إلى شقيق روحي وصديق
عمري أخي الفاضل أبو نشأت
شبل أهدي كتابي هذا
أخوك
د. أحمد أبو السعادات
المدينة ٢٧/٦/١٩٨٢م

دكتور أحمد أحمد أبو السعادات

دراسات في العقيدة الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م

مطبعة النهضة العربية

١٣ شارع كامل صدقي (الفجالة) ت ٩٠٦٧٨٠

الإهداء

- إلى كل مسلم يعمل لصالح دينه ، ورسوخ عقيدته وعزة أمته .
- وإلى كل مسلمة ترعى الله فى دينها ، وطهرها ، وزوجها وبيتها ، وأولادها .
- إلى كل المجاهدين فى الله حق جهاده ، بالنفس ، أو بالمال أو بالكلمة .

أهدى هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وأشهد أن لا إله إلا الله له صفات الكمال المطلق وهو المنزه عن أى عجز ، والمستحيل عليه كل نقص . سبحانك يارب الوجود ؛ كل الخلائق محتاجون إليك ، وأنت وحدك الغنى وليس مثلك شىء .

وأشهد أن خاتم رسلك محمداً - صلى الله عليه وسلم - جاء بالمحجة البيضاء ليلها كنهارها . فبلغ الرسالة ، وجمع الناس على التوحيد الخالص ، والعقيدة الجامعة الخالدة فصلوات وسلام عليك يارسول الله مابقى ملك الله ورضى الله - تبارك وتعالى - عن آلك وأصحابك ومن اهتدى بهديك ، وسار على نهجك ، واتبع سنتك إلى يوم الدين .

أما بعد : فلقد ألح علىَّ - منذ أمد بعيد - كثير من أبنائى طلاب العلم الذين قمت بتدريس مادة العقيدة الإسلامية لهم على أن أكتب فى العقيدة كتاباً على غرار المحاضرات التى تناولنا فيها موضوعات كثيرة عن العقيدة ومفهومها بأسلوب علمى معاصر يدعمه الدليل النقلى والعقلى مما ظنوا فيه

شفاء للغليل ، ودحضاً لحجج أهل المكر والأباطيل كما أشار علىّ مجموعة من صفوة الإخوة بأن أفسح المجال لقلمى كى يحظى بشرف الكتابة فى هذا المجال العلمى الذى فيه عز الدنيا وسعادة الآخرة . غير أنى لم أستطع إجابة لمطالبهم الملحة فى الفترة الماضية لأن الكتابة عن العقيدة الإسلامية طريقها شائك والمسالك لها وعرة ، والدروب نحوها شبه موصدة وهذا ما جعلنى أحجم الأعوام الطوال عن أن أدلو بدلوى ولو فى جانب من جوانبها . غير أنى فى كل تلك المدة كنت بين إقدام على الكتابة تارة ، وإحجام عنها تارة ثانية ، أقدم إليها رجلا ، وأؤخر عنها أخرى حتى أيقنت أنه لا مناص لى من الكتابة الآن فى هذا المجال لأسباب كثيرة . منها :

⊙ أولا : التيار الجارف المعادى للإســــلام وأهله والذى احتاج دياره ، وقلوب الكثير من أبنائه، وأطبق على رقعته من الشرق والغرب بالفكر المسموم ، والمبادىء الهدامة المدمرة للعقيدة ومبادئها السامية .

⊙ ثانياً : أن كثرة هائلة من المستشرقين قد جندوا أنفسهم لمسخ الدين الإسلامى وآدابه . وفعلوا ذلك إرضاء لساداتهم ، أو إرواء لأحقادهم ، أو جرياً وراء أطماعهم . أو لكل هذه الأمور كراهيته لهــــذا الدين وبغضاً لأهله. فنفثوا سمومهم فينا باسم الحضارة والمدنية والتقدم. والله يشهد إنهم لكاذبون .

⊙ ثالثاً : أن بعضاً ممن ينتسبون للإسلام الحنيف قد قلبوا له ظهر المجن، وكاشحوه بالعداوة ، وكشروا له عن أنيـــابهم وجرفهم تيار المدنيات الزائفة ، واستهوتهم أبواق الحاقدين الناعقة، فعملوا جاهدين ـ إما عن مكر أو سذاجة ـ على إلباس دينهم ثوباً ليس له ، وأفتوا فيه بغير علم ،

وحرفوا فى تفسير بعض أحكامه كى توا كب مسيرة المارقين وتنسجم مع موكب المنحرفين ، وما فقهوا بأنه الدين الخاتم الذى تولى ربنا — سبحانه — حفظ دستوره ، ليظل الدين المعطاء ، وليبقى زاداً للبشرية العاقلة فى رحلتها الممتدة من الدنيا إلى الآخرة .

◉ رابعاً : أن السواد الأعظم من أبناء الإسلام قد أصابهم الوهن فطمعوا فى الدنيا وأحبوها ، ورغبوا عن الجهاد فى سبيل الله ، وكرهوا الموت وخافوا إسمه مع يقينهم بأن الدنيا مهما امتدت أزمانها فهى قصيرة ومهما عظمت غاياتها وأدركت فهى حقيرة . ومهما كثرت لذائذها وتحققت فهى فانية . يؤكد هذا قول الله تبارك وتعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (١) .

ونسوا أو تناسوا أن الله قد اختارهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس ، وليقودوا ركب الإنسانية إلى السمو والرفعة ، ولينشروا العدل والفضيلة والأمن والسلام والرحمة فى ربوع المعمورة كلها فعموا وصموا عن قول الحق تبارك وتعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلوة وآتوا

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الحديد .

الزكوة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (١).

ونعقوا مع كل ناعق ، فعاشوا على هامش الحياة ورضوا منها بأقل من الدون فاستذلهم الأرذلون، وأصبحوا كغثاء السيل ، لا رأى لهم ، ولا فكر عندهم ولا هدف يجمعهم ، ولا مبادىء تربطهم ، ولا عقيدة تصقلهم وهم مع ذلك محسوبون على الدين ، ويقيم غير المسلمين عقيدة الإسلام ومبادئه ، وآدابه ، وأحكامه من خلال سلوكهم وتصرفاتهم البعيدة عن روح الدين ومبادئه والتى هو منها براء .

◉ خامساً : القلة الباقية ممن لهم غيرة على الدين قاموا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر غير أنى ـ والأسى يملأ قلبى ـ أجد منهم من تشدد وغلا فى أشياء ليست من أصول الدين، ولا يتوقف على تركها هدم قاعدة من قواعده . فألقوا رحالهم عندها ، وألزموا غيرهم بالتمسك بها ، وحكموا بأن تركها مروق من الدين . فنفرت كثرة منهم . واستغنت عن توجيهاتهم وتندروا بهم . وهم بذلك قد وقفوا مكانهم . وما انتفع الإسلام منهم . بل أساءوا إليه ، وأخفوا بعض معالمه مع أن حالهم يؤكد أنهم ماقصدوا إلا الخير للإسلام وأتباعه غير أنهم لما قطعوا صلتهم بالعديد من العلوم ، وشككوا فى كثير من جلة العلماء ، وقنعوا بطائفة محدودة من الآراء ، جمدت أفكارهم وضاقت آفاقهم ، فكان ما كان من أمرهم .

ومنهم من قام يدعوا إلى الله جهراً ، ويواجه الظلم بقوة الإيمان والجهل

---

(١) الآية ٧٨ من سورة الحج .

بالحجة والبرهان ، وينادى بتطبيق أحكام الشريعة فى كل شئون الحياة فوقف المنحرفون من أرباب السلطان لهم بالمرصاد وضيقوا عليهم السبل وفرقوا جموعهم وروعوا أمنهم ، وشتتوا جهدهم ، وعذبوا أجسادهم ، وقتلوا بعضهم، وأخافوا منهم بقية الناس ، فابتعد عنهم الأهل والأخلاء وتناساهم الخلص من الأصدقاء خوف الإهانة والتعذيب أو السجن والتشريد . فضاع جهدهم هباء، وقل أملهم فى الإصلاح، وخلت الساحة منهم ، وصفا الجو للأدعياء وحلفائهم من الأعداء « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد »(١) .

ومنهم من جاهد فى الله بالكلمة المكتوبة . فألف عن الإسلام وتناول العديد من جوانب العقيدة . والكثير من قواعد الشريعة فأطلت العصبية العمياء برأسها ، وخرجت أفعى الصليبية من جحرها ، وتضافرت جهود الصهيونية مع من يناصرها ضد تلك الكتابة الحكيمة ، وأساليبها المستقيمة ومناهجها القويمة ، فشككوا فى نوايا هؤلاء الكتاب ، وأوغروا عليهم الصدور ، وحرفوا فى عباراتهم ، وحملوا كلامهم فوق ما يحتمل ولا تهدأ لهم ثورة إلا إذا أوقفت هذه الكتب ، وقد يشترونها لإحراقها، وأى كتاب منها يفلت من بين أنيابهم يباع خلسة ويقرأ سرا « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »(٢) .

---

(١) الآيتان الثامنة والتاسعة من سورة البروج .
(٢) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة التوبة .

⊙ سادساً: ما كتب عن العقيدة فى القديم بعضه ـ فى رأيى ـ لايشفى الغلة، ولا يعطى التصور الكامل والصادق عن العقيدة الإسلامية لأنه كتب بأسلوب إما فلسفى محير أو منطقى معقد . كما أنه ألف فى أزمنة لاتتلاءم أساليبها وهذه الآونة مما يجعل القارىء أو الدارس لهذه المؤلفات فى حيرة من أمره ، وحرج من غيره ، فلا يستطيع دحض الشبه الحاقدة ، ولا الرد على الأسئلة الملتوية ، وأيضاً المدنية الحديثة بتقدمها العلمى جعلت طالب الحقيقة لايقنع بمثل هذه الأساليب التى لا تتلاءم وعصر طغيان المادة وتحكمها . مع مافى تلك الكتابات من علم غزير وجهد كثير .

أما ما كتب عن العقيدة فى هذه الأزمنة من العلماء الأجلاء المتخصصين فهو ـ وإن كان ناضج الثمار ، ووارف الظلال ، وعميق الجذور ، ولا يأبه بالرياح العاتية ـ إلا أنه قليل لايصل إلى يد كل طالب ولا يروى ظمأ كل راغب .

⊙ سابعاً : الحيرة الشديدة التى يعانى منها الكثير من شباب الحاضر فى المسائل الدينية ، والخواء المخيف الذى يحياه فى الأمور العقدية والأسئلة الكثيرة التى لايجد لها جواباً شافياً ؛ مع ماافتتح عليه من صخب الحياة ولهوها ، والافتتان بالمخترعات الجديدة وأهلها ؛ مما جعل البعض ينكر وجود الله تصريحاً ، والبعض الآخر قلقاً فأنكر المعبود الأوحد تلميحاً ، وآخرون زاد تمسكهم بالدين ، غير أن منهم من أوغل فيه بعنف فضاع جوهر الاعتقاد من قلوب هذه الفئات ، ولازمهم الشك فى كل الحالات التى لها صلة بالعقيدة ، وداخلهم الريب فى كل فرد يدعو إلى الله على هدى وبصيرة .

والقلة الباقية من الشباب المؤمن التى سارت على الطريق الصحيح . تأثيرها غير ملموس ، ومدى صوتها غير مسموع وهى فى نظر غيرها من الفئات السابقة . إما منزمتة ومتأخرة أو متهاونة ومفرطة ، وكأنها جسم غريب أقحم بين أجسام متلائمة ، أو شحنة موجبة أو سالبة اقتربت من أخرى مماثلة لها .

لهذه الأسباب وغيرها أقدمت ـ مستعيناً بالله القوى القادر ـ على تأليف هذا الكتاب وأسميته :

« **دراسات فى العقيدة الاسلامية** » راجياً المولى جل علاه أن يمنحنى التوفيق والسداد والهداية والرشاد وليخرج هذا الموضوع إلى مجال الانتفاع به وقد آتى أكله وحقق رجاء الراجين ، وأجاب طلبة الطالبين وطمأن القلوب الحائرة ، وهدأ من روع النفوس الثائرة .

ولا أدعى لنفسى سبقاً فى هذا المجال ، أو أنى فقت فيه الأوائل وأتيت بما لن يأتى به الأواخر بل سبقنى إليه صفوة من الأعلام الأقدمين ، ونخبة من العلماء المحدثين . وقد أفدت كثيراً مما كتبوه فى موضوعات العقيدة وما يتصل بها . وإن كان ما كتبه الأقدمون عن بعض تلك الموضوعات ليس فى مكان معين من كتبهم ، بل ما وجدته كان مبعثراً ومنثوراً ، فجمعت شتاته وشذبت ألفاظه ونظمت عقده . كما قربت بين طريقة الأقدمين وطريقة المحدثين ممن تناولوا هذه الموضوعات مع إبداء الرأى فيما يحتاج لذلك من القضايا مخالفاً لبعض اتجاهاتهم ، مدللا على صحة ما ارتضيته من كتاب الله ومما صح من سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما وافقهما من الأدلة العقلية . إحقاقاً للحق الذى به تعرف الرجال . كما دعمت موضوعات الكتاب بالكثير

من الأدلة التى يحتاجها شبابنا المعاصر ، وأتى بها العلم الحديث . وقد ظهر جلياً من تلك الأدلة أن الحقيقة العلمية الكونية لاتصطدم ولا تختلف مع الحقيقة القرآنية بل تسايرها وتناصرها فالكل كتاب الله . القرآن آياته المقروءة، والكون آياته المحسوسة التى لاتنتهى ولا تنفد، وما أصدق ماتقوله الآيات القرآنية عن تلك الآيات الكونية : « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم »(١) .

وأنا بحاجة ماسة إلى عون المخلصين ، وآراء الراشدين من أبناء ديننا الحنيف وسيجدوننى ـ بعون الله ـ رجاعاً إلى الحق ، فسيح الصدر لكل نقد بناء ، وتوجيه سديد. فمن وجد فى كتابى هذا استقامة وتوفيقاً، فالفضل من الله والشكر له ، ومن رأى غير ذلك فليرسل إلى بسديد رأيه ، وصادق توجيهه ، ولن يجد منى إلا عاطر الثناء وخالص الدعاء . وقد تتشعب بطلاب الحقيقة الدروب والمسالك ، وتختلف الآراء والاتجاهات إلا أن وجهتهم جميعاً واحدة ، وسيلتقون فى النهاية عليها لا محالة . وإنى على يقين من صدق نوايا الصادقين وإخلاص سرائر المخلصين فى أن يلبس هذا الكتاب فى طبعاته القادمة أنصع الثياب وأطهرها وخيرها وأفضلها وإن كنت أبغى من وراء هذا الكتاب شيئاً .

فخير ما أرجوه : رضاء ربى ، ورفعة دينى وعزة أمتى : « ربنا عليك

---

(١) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » (١) « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » (٢) .

د / أحمد أبو السعادات

القاهرة فى { الجمعة ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٤٠٢ هـ
الموافق ١٠ من سبتمبر — أيلول سنة ١٩٨٢ م }

---

(١) الآية الرابعة من سورة الممتحنة .
(٢) الآية الثامنة من سورة آل عمران .

تمهيد

لقد امتن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الإنسان، لخلقه بيديه، وصنعه على عينه ، ونفخ فيه من روحه ، وحباه بعلمه ، وفضله على كثير من خلقه ، وسخر له مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه .

ليعرف ربه معرفة بينة ، وليعبده وحده لايشرك به شيئاً ، وليكون خليفة فى أرضه ؛ يعمرها وينشر عليها العدل ، والأمن، والسلام ، والفضيلة والرحمة .

ولكى يستطيع الإنسان أن يؤدى هذا الدور ـ كما ينبغى ـ كان لابد له من مرشد يرشده ، وهاد يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم .

فاقتضت حكمة الله ـ العليم بخلقه ـ أن يرسل له الرسل بالوحى الإلهى ، والدين الربانى ليكون على بصيرة من أمره لا يزيغ عن الحق ، ولا يتبع الهوى مادام ملتزما طريق الدين ، وطاعة الله رب العالمين .

واقتضت حكمة الله أيضا تكوين الإنسان من جسد وروح ليكون بجسديته منجذبا إلى الأرض التى هو جزؤها كى يؤدى دوره عليها على ضوء دينه ، وليستطيع بروحانيته أن يتصل بالملأ الأعلى حتى ينير قلبه وحياته بالهدى الإلهى . وليظل دائما على صلة بخالقه يذكره ولا ينساه ، وليعرض عليه كل شئونه ، ويستمد منه الهداية والرشاد ، ويقف عند حدوده

لايتجاوزها قيد أنملة وكان هذا التكوين على أساس من الفطرة الإلهية (١) التى سماها بعض العلماء دنيا ، أخذاً من قول الله ـ تبارك وتعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون »(٢) .

ولقد أثبت التاريخ أنه قد وجد فى الماضى السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات ؛ وعلوم ؛ وفنون ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين . يقول د/ محمد يوسف موسى ما خلاصته :

« والدين قديم قدم البشرية ، فما من جماعة إنسانية كانت تعيش فى تلك الأزمان القديمة إلا كان لها دين ومعبودات تتجه إليها ، ولقد وجـــدت ديانات عديدة عرفتها البشرية فى العصور العريقة فى القدم أى منذ آلاف وآلاف من الأعوام قبل ميلاد المسيح عليه السلام فى مصر ، وبابل ، وآشور ، وما بين النهرين ، وفى الهند وما حولها ، وفى الصين وما والاها ، وفى فارس ، وفى سائر بلاد ذلك العالم القديم .

نعم قد توجد ـ كما يوجد فى كل عصر ـ أقلية من الناس فى أمة أو أمم مختلفة لا تأبه للتفكير فى الدين ومسائله ، وتنساق فى حياتها بتيار المادية الجارف ، وتكاليف الحياة الدنيا الثقيلة المرهقة وتأخذ الحياة على أنها لهو ولعب ولا شأن للدين بها . ولكن هذا لايعنى أن هذه الأمة أو الأمم لم تخل فى عصر من عصورها من اتخاذها دنيا لها ، أو على الأقل ليس هناك مايدل على أن نشأة الدين تأخرت عن نشأة الإنسان والجماعات الإنسانية » (٣).

---

(١) سنتناول كلمة الفطرة بشىء من التفصيل عند عنوان سؤال وإجابته ص ٢٩ .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٣) من كتاب الإسلام وحاجة الإنسانية إليه من صفحات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

الدين ضرورة إجتماعية

والدين كما هو فطرة إنسانية فى ذات كل فرد فهو أيضاً ضرورة اجتماعية، لأنه هو الذى يحدد طريق التعامل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، فلا يظلمه ولا يخذله ، ولا يعتدى على نفسه ، أو ماله ، أو عرضه يفعل ذلك لا خوفاً من مخلوق ، ولا رهبة من ذى سلطان ، ولا خشية من عقاب القانون الوضعى بل يقوم بكل هذا مراقبة لربه فى سره وعلنه ، فى نهاره وليله ، وسواء أكان أمام الناس أو بمفرده والفطرة فى حاجة ماسة إلى صون ورعاية، وحماية وعناية ، والقادر الحق على حمايتها من التيارات الجارفة والشعارات الزائفة ، ورعايتها من الأفكار العقيمة والآراء القيمة هو الله وحده — سبحانه وتعالى —

وكلما اقترب الإنسان من ربه ، والتزم منهاجه ولجأ إلى رحابه ، واعتصم بحبله ، هداه وأرشده وصانه وحماه ، وأعزه وكفاه يؤكد هذا قوله — تبارك وتعالى — فى محكم كتابه : « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام » (١) .

وليس لأحد أن يغتر بالعقل وقدرته على التفكير والابتكار — بعيداً عن الوحى الربانى والعون الإلهى ولا أن يخدع نفسه بالعلم المادى وحده ، ولا بما وصل إليه من الكشف عن كثير مما كان يجهله لأن العلم الحديث نفسه قد أظهر بطلان كثير مما كان يراه العلماء فيما مضى حقائق لاريب فيها .

---

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزمر .

والإنسان قد يضل إذا اعتمد على تفكيره وحده لأنه محاصر في دائرة المحسوسات بل قد ضل مراراً بالأمس ، ويضل كثيراً اليوم وغداً .

ومن آيات ذلك مانعرفه من التراث الفكرى لليونان وغيرهم من الأمم التى حرمت نفسها من نور الوحى الإلهى يقول د/ محمد عبد الله دراز فى كتابه : « الدين »(١)

« إن تقدمنا الحثيث فى العلوم يقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا والإقرار بأن مثل مانعلمه من الكون فى جانب مانجهله منه كمثل قطرة واحدة من محيط خضم عميق ، ذلك أن كل باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكون وامتداده ينفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهذا الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة .

ولنأخذ مثلا بمجموعتنا الشمسية وما فيها من الكواكب السيارة التى لا يرى منها بالعين المجردة إلا عدد يسير فقد اكتشف فيها من الأقمار والتوابع على عهد - لا بلاس - ما تبلغ به اثنين وأربعين كوكباً ، ثم أثبتت الأرصاد الأخيرة من أجزاء هذة المجموعة ما يجاوز الألف ، ثم قامت الدلائل القوية على أن كل مجموعتنا هذه ماهى إلا واحدة من ملايين المجموعات التى لها أجزاؤها وتوابعها والتى تختلف أعمارها ويتفاوت جوها ونظام حركتها ، وتكوين سطحها وطبقاتها وأسلوب الحياة فيها وكل ذلك لا نعرف عنه شيئاً على وجه الوضوح واليقين ، ولا أمل فى الوصول إليه الآن إلا على ضرب من القياس والتخمين فضلا عما وراء ذلك من فضاء أو ملاء حتى إننا لو عرفنا كيف تتكاثف بعض الغازات السطحية السحابية العليا فتتولد منها الشموس لبقى علينا أن نعرف من أين تتولد تلك السحابيات نفسها .

---

(١) ص ٩٠ .

وهكذا كان اتساع نطاق المعلومات هو نفسه اتساع لنطاق المجهولات لأن محيط كل دائرة جديدة يماس الحدين بباطنه وظاهره ، فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها من عالم الشهادة مراحل أخرى من عالم الغيب فى آحاد ، وآباد لايدرك الإنسان نهايتها إلا إذا انقلب المحاط محيطاً ، والحادث الفانى أزلياً باقياً وصدق القرآن حين يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١) .

لذا شاء الله ألا يترك الإنسان لعقله وعلمه ، فأمده بقبس من نوره ، ومنحه حرية كاملة فى اختيار أقواله وأفعاله ليكون مسئولا عن كل مايصدر عنه ، وليحقق الغاية من وجوده .

والإنسان إذا تعهد نفسه بالحياة الروحية والصلة الإلهية مع الاعتدال فى رغباته المادية ، والسير بها على ضوء ماجاءت به القواعد الشرعية كان دائم السعادة غنيا بالله وإن كان صفر اليدين ـ عزيز الجانب ـ دون ما تكبر ـ رحيما فى غير ضعف ، نقى السريرة ، محباً للخير ، يعمل لصالحه وللإنسانيه على ضوء دينه الحنيف فينجو من شقوة الدنيا ، وعذاب الآخرة .

أما إن قنع من دنياه بالماديات الفانية ، وقطع صلته بربه فهو ذليل مهما عز ، وقلق وإن تظاهر بالاستقرار ، وظامىء لرى الله ولو شرب زلال الماء ؛ وعذب الحياة . كما أنه يعيش فى وحشة وإن سامره الأخلاء ، وآنسه الأصفياء ، وفوق ذلك فإنه فى الحياة الخالدة يحرم من النعيم الإلهى ، وأكثر من هذا أنه يكون فى معية الشيطان وحزبه ، وفى عذاب المنتقم القادر فيندم ولات ساعة مندم .

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

الإلحاد ليس أصلا فى تكوين الأفراد

أو المجتمعات

وقد يقول قائل : إن بعض المجتمعات قد أسقط الدين من حسابه، وأقام بعض الأفراد حياتهم على أساس أنه لا يوجد إله ، وأن الحياة مادة .

والإجابة على هذا القول وأمثاله تتلخص فى أن هذه الأشياء لا تعبر فى الواقع عن نفسية المجتمع الذى وجدت فيه هذه الظاهرة، ولا تترجم مشاعره ترجمة صحيحة ، لأن فكرة الانحراف الدينى نشأت فى ذهن بعض الأفراد ، ونمتها الظروف الاجتماعية الخاصة كظروف الفقر ، والحاجة، والحرمان، وساعد على تقوية جذورها ، وبسط سلطانها أنه لم يكن ثمة التفات إلى دين ينير العقل ، أو يطمئن القلب فضلا عن أن كثيرين من المتظاهرين بالتدين كانوا مظهراً للتخلف ، والرذيلة، بل كانوا مضرب المثل فى الضياع ولم يقفوا يوماً واحداً فى جانب المحرومين ، وإنما كانوا دائماً أسرع النـــاس فى الإنضواء تحت لواء المارقين ، وعونا للطغاة وسنداً للمستبدين ، فهـــذه الظاهرة الإلحادية ليست وليدة علم ، ولا ممثلة للفطرة ، وإنما هى فكرة شاذة أتت بها عوامل خارجة عن نطاق التكوين السوى للإنسان وأوحت بها الظروف القاسية ، وخلقتها البيئة المجهدة ، وروجت لها الأحقاد التى ملأت الصدور أمداً طويلا ثم حمل عليها الأفراد حملا ، وأكرهوا عليها إكراها دون أن يكون لهم رأى أو اختيار. وأكبر دليل على ذلك الشيوعية وما تقوم به من قهر الأفراد والشعوب على نبذ التدين ، وعدم الإعتراف بالخالق / جل علاه / كما أن التيارات الإلحادية ، والمجتمعات غير المتدينة وجدت أيضا لأن إنسان العصر يريد من الدين أن يقنع عقله ، ويرضى طموحه ، ويساير تقدمه ، ويجارى تطوره ، ولا يحرمه من ثمرة جهده ،

ولا لذة بدنه ، ولم يجد ذلك الإقناع فى أية ديانة من الديانات الوضعية ، ولا فى أى جانب من الشرائع الإلهية التى بدلت وحرفت ، حتى الدين الإسلامى الشامل الذى جاء صالحاً لكل زمان ، ومخاطباً لكل العقول ومشجعاً لكل تقدم لايخالف الفطرة . فإنه لم يشف الغلة أيضاً عند الإنسان المادى ، وليس ذلك لتقصير فيه ، بل لأن البعض من هؤلاء الملحدين لم تتح لهم الفرصة أن يطلعوا على مبادئه الكريمة ، وأخلاقه الحميدة ، ودستوره الخالد ، وقواعده المكينة ، وتعاليمه السامية .

وقد يطلع البعض منهم على كل ماذكرنا عن الإسلام ولكنه يكفر به عناداً وكثير من هؤلاء الملحدين يعرفون الإسلام ممثلا فى أعمال بعض من ينتسبون إليه ، وتلك الأعمال فى واقعها تشويه لجمال الإسلام ، وعرض سيء لمبادئه الحقة . لذا كان الحكم عليه من هؤلاء الملحدين كالحكم على غيره من الديانات الأخرى .

من هنا انصرف كثير من العلماء الذين أسهموا فى بناء الحضارة بعيداً عن الدين عامة وعن الإسلام خاصة ، وانحرفوا عنه ، واتجهوا كلية إلى العقل وحده يستفتونه ، ويحتكمون إليه ولا يعولون فى قضية إلا عليه . وقد أثبتت التجارب التى لاحصر لها بأن العقل وحده لايستطيع أن يصل بالإنسان إلى مراتب الكمال لأن العقل بعيداً عن الوحى الإلهى لا ينتج إلا فى نطاق المحسوسات فقط .

ونقول أيضاً : إنه مهما وجد من تيارات إلحادية ومذاهب غير دينية فإن الفطرة الإنسانية أقوى من جميع القوى التى تحاول أن تطمسها وتغير معالمها فإن النصر والغلبة لهذه الفطرة مهما طال الزمن ، وارتفع صوت المارقين ، وستبقى النفس البشرية التى حرمت نور الفطرة تنزع إليه دائماً لأنها تنزع إلى شيء هو من طبيعتها ، وتشعر بفراغ كبير إذا تخلت عنه .

وصدق ربنا حيث يقول : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال »(١) .

إن الذين ابتعدوا عن الدين ، وصرفوا أنفسهم عنه . قد حرموا خيراً كثيراً وافتقدوا نعمة السعادة ، وعزفوا عن الهدوء والسكينة وما ذلك إلا لأنهم صاروا ملحدين فأعطوا عقولهم وهواءهم السيادة المطلقة ، وأصبحوا راضين تمام الرضا عن أحكام تلك العقول ، ومسلمين بكل ما يصدر عنها فى ظل اللادينية ، ولو أنهم مكروا . وقدروا وتأنوا وتدبروا لتأكد لهم أن العقل لايستطيع أن يقوم بواجبه ولا أن يؤدى دوره المنوط به إلا فى ظل الدين الصحيح وتحت رعايته . كما أن الدين لن تطبق تعاليمه ولن يحقق الغرض الذى جاء من أجله إلا مع العقل السليم والإدراك المستقيم .

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الرعد .

وقفة مع اليهودية والنصرانية والإسلام

إن العقل السليم ينزع دائماً إلى قوة مهيمنة وغير محدودة لأنه موقن أنه بدونها لا يستطيع أن يؤدى دوره الذى خلق من أجله ، غير أنه لا يمكن أن يصل إليها بذاته ، فكان لابد وأن يلجأ إلى ما جاء عن الله من الدين ، وأنه يقتفى أثر المرسلين حتى تتضح أمامه الرؤية ويعرف الطريق الصحيح الموصل إلى النجاة والفلاح فيسير فيه على هدى وبصيرة ، وبطمأنينة وأمان لكن من أين يأخذ التعاليم الصحيحة ، والأصول السليمة أمن اليهودية والنصرانية ، أم من الإسلام ؟؟؟ .

أما اليهودية والنصرانية . فقد قال عنهما كل المحققين(١) المنصفين من مسلمين وغير مسلمين إنه قد ثبت بالبحث العلمى المتجرد أنه لا تصح الثقة العلمية بأى نص من نصوص كتب العهدين القديم والجديد ما لم تقم معه قرائن ومؤيدات ، وأدلة أخرى ترفع من قيمة النص إلى مرتبة الثقة به ، والتسليم بمضمونه وإن كانت كتب العهد القديم تحوى من الأصول الصحيحة نسبة أوفر مما تحويه كتب العهد الجديد من الإنجيل الأصل لاسيما خمسة الكتب الأولى منها (٢).

وذلك لأن اليهود قد عاشوا فى ظل ديانة صحيحة فترات من الزمن

---

(١) المراجع فى هذا الموضوع أكثر من أن تحصى هنا غير أن ماركزنا عليه هو كتاب « إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى وكتاب العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانى .

(٢) وهى سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر الأحبار اللاويين ، وسفر العدد وسفر الاستثناء .

تعاقب فيها عدد وافر من أنبياء بنى إسرائيل . أما النصارى فإنهم لم يثبت فى التاريخ تداول الإنجيل الأصل الذى أنزل الله على عيسى — عليه السلام — بشكل واضح بين أيديهم فى فترة متقدمة من تاريخ المسيحية .

ومع أن التحريفات فى الكتب اليهودية والنصرانية كثيرة والحديث عنها يتطلب سفراً خاصاً ودراسة منفردة إلا أننا نقول باختصار شديد : إن التحريف فى تلك الكتب أخذ مظهرين :

الأول: تحريف لفظى ويكون بأحد ثلاثة وجوه. بالتبديل أو بالزيادة، أو بالنقصان .

الثانى : تحريف معنوى وذلك بتغيير مدلولات الألفاظ وترجمتها إلى ما يوافق أهواءهم .

وقد وصف القرآن الكريم أهل الكتاب من يهود ونصارى بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وبأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، وبأنهم يبدون من كتبهم شيئاً ويخفون كثيراً .

قال الله تعالى عن بنى إسرائيل : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » (١) .

وقد قال فى الكلام عن النصارى : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »(٢) .

---

(١) الآية ١٣ من سورة المائدة .

(٢) سورة المائدة الآية ١٤ .

وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب عامة : «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»(١) .

وقد تتبع المحققون كتب أهل الكتاب فوجدوا فيها الشيء الكثير من التحريفات التى يشهد العقل بداهة بأنها تحريف لاشك فيه ، وكشفوا جملة كثيرة من المتناقضات والأغلاط التى ملأت هذه الكتب المحرفة . وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه « إظهار الحق » مائة شاهد على التحريف اللفظى والمعنوى فى كتب العهدين القديم والجديد(٢) نذكر منها على سبيل المثـــال :

⊙ أولا : (١) التحريف اللفظى بالتبديل فى التوراة . الشاهد الأول : «إن الزمان من خلق آدم ـ عليـــه السلام ـ إلى طوفان نوح ـ عليه السلام ـ على وفق النسخة العبرانية ست وخمسون وستمائة وألف سنة ١٦٥٦ سنـــة ، وعلى وفق النسخة اليونانية اثنتان وستون ومائتان وألفا سنة ٢٢٦٢ سنة ، وعلى وفق النسخة السامرية سبع وثلثمائة وألف سنة ١٣٠٧ سنة (٣) .

---

(١) الآية ١٥ من سورة المائدة .

(٢) من كتاب الإسلامية وأسسها الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانى ببعض تصرف من صفحات ٥٨٣ ، ٥٨٦ والتى بعدها .

(٣) من كتاب اظهار الحق الشيخ رحمة الله الهندى ص ٢٠٦ من دار التراث العربى القاهرة بدون سنة طبع .

التحريف اللفظى بالتبديل فى الإنجيل شواهد كثيرة منها الآية الثامنة والعشرون من الإصحاح العشرين من سفر الأعمال فيها : « لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه » قال كريباخ : لفظ الله غلط ، والصحيح : لفظ الرب ، فعنده لفظ الله محرف (١).

(ب) إثبات التحريف بالزيادة فى التوراة ومن شواهده الآية الحادية والثلاثون من الإصحاح السادس والثلاثين من سفر الخليقة ويسمى سفر التكوين.

هكذا : « وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم قبل أغلق ملك ملك لبنى إسرائيل » ، ولا يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى عليه السلام لأنها تدل على أن المتكلم بها موجود بعد زمان قامت فيه سلطنة بنى إسرائيل وأول ملوكهم شاول وكان بعد موسى / عليه السلام / بست وخمسين وثلثمائة ٣٥٦ سنة . قال آدم كلارك فى المجلد الأول من تفسيره ذيل هذه الآية : « غالب ظنى أن موسى / عليه السلام / ماكتب هذه الآية ، والآيات التى بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين . بل هذه الآيات هى آيات الإصحاح الأول من السفر الأول من سفر أخبار الأيام ـ من الآية الثالثة والأربعين وما بعدها ـ وأظن ظناً قوياً قريباً من

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٠ .

اليقين أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة فظن الناقل أنها جزء من المتن فأدخلها فيه » .

فاعترف هذا المفسر بإلحاق الآيات التسع ، وعلى اعترافه يلزم أن أسفارهم كانت صالحة للتحريف لأن هذه الآيات التسع مع عدم كونها من التوراة دخلت فيه وشاعت بعد ذلك في جميع النسخ(١) .

إثبات التحريف بالزيادة فى الأناجيل : ومنه : الآية الحادية والثلاثون من الإصحاح السابع من إنجيل لوقا هكذا: «ثم قال الرب فيمن أشبه أناس هذا الجيل؟. ومايشبهون؟». وهذه الجملة « ثم قال الرب » زيدت تحريفاً . قال المفسر ـ آدم كلارك فى ذيل هذه الآية : « هذه الألفاظ ما كانت أجزاء لمتن لوقا قط ، وهذا الأمر شهادة تامة . ورد كل محقق هذه الألفاظ ، وأخرجها ـ بنجل ـ و ـ كريسباخ ـ من المتن » .

فانظر كيف حقق هـــذا المفسر ؟ . والعجب أن المسيحيين من فرقة البروتستنت لايتركونها فى تراجمهم . أليس إدخال الألفاظ التى ثبتت زيادتها بالشهادة التامة ، وردها كل محقق فى الكلام الذى هو كلام الله فى زعمهم نوع من أقسام التحريف ؟ »(٢).

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٣ . (٢) نفس المرجع ص ٢٣٣ .

(ﺟ) إثبات التحريف بالنقصان فى التوراة ومنه الآية السابعة عشر من الإصحاح السابع من سفر التكوين من النسخة العبرانية هكذا : « وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض » وهذه الجملة فى كثير من النسخ اللاتينية ، وفى الترجمة اليونانية هكذا : « وكان الطوفان أربعين يوماً وليلة على الأرض » قال ـ هورن ـ فى المجلد الأول من تفسيره : « فلينز ولفظ (ليلة) فى المتن العبرى »(١).

إثبات التحريف بالنقصان فى الأناجيل. الشاهدالسابع عشر . فى الآية السابعة من الإصحاح السادس عشر من سفر أعمال الرسل هكذا :« فلم يأذن لهم الروح» قال ـ كريسباخ ـ و ـ شولز ـ الصحيح هكذا : « فلم يأذن لهم روح يسوع» فعلى إقرارهما سقط لفظ يسوع ، وأدخل هذا اللفظ فى الترجمة العربية المطبوعة سنة١٦٧١، سنة ١٨٢١م وعبارتها هكذا : « فلم يتركهم روح يسوع » (٢).

⊙ ثانياً : التحريف المعنوى : ويقول عنه الشيخ رحمة الله الهندى أيضاً فى كتابه إظهار الحق : « ولا نزاع بيننا وبين المسيحيين فى القسم الثانى أى التحريف المعنوى ـ لأنهم كلهم يسلمون صدوره عن اليهود فى العهد العتيق فى تفسير الآيات التى هى إشارة فى زعمهم إلى المسيح ، وفى تفسير الأحكام التى هى أبدية عند اليهود ، وإن علماء البروتستنت

---

(١) نفس المرجع ص ٢٤٦ . (٢) نفس المرجع ص ٢٤٩ ، ٢٥ .

يعترفون بصدوره عن المعتقدين فى عصمة البابا يرمون اليهود بهذا رمياً شديداً فلا احتياج إلى إثباته » (١) لأننا نثبت هذا التحريف لإقناع غـــير المسلمين بأن اليهودية والنصرانية قد حرفتا من قبل المعتنقين لهما ، وهم فى مجال التحريف المعنوى على قناعة كاملة بوجوده فى العهدين القديم والجديد ويرمى به بعضهم بعضاً ، ولم يقتصر تحريفهم فى تلك الكتب على مايعنيهم من أمور حياتهم . بل حرفوا فى صلب الديانة، و « سهل عليهم الكذب على الله فى أصل العقيدة . فقالت طائفة من اليهود عزير ابن الله .

وقال بعض النصارى إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال بعضهم إن الله ثالث ثلاثة . وقال بعضهم إن المسيح عيسى هو ابن الله ، وقال بعضهم : إن عيسى وأمه إلهان من دون الله ! ! إلى غير ذلك من أقوال باطلة ، خالفوا فيها أصول العقل والدين والكتب السماوية . إن هؤلاء إذ سهل عليهم كل ذلك فى أصول العقيدة فلا بد أن يكون الكذب عندهم فيما وراء ذلك من أحكام ونصوص وأخبار أهون وأسهل متى كان لهم فى الكذب منـــافع وشهوات ومصالح دنيوية » (٢).

ومما أتينا من عجالة أكدت تحريف اليهود والنصارى لكتبهم نستطيع أن نقول : إن اليهودية والنصرانية لا تصلحان لإعطاء أى راغب فى المعرفة التعاليم الصحيحة ، ولا الأصول السليمة . ولم يبق إلا الإسلام ، فهو وحده القادر على العطاء الدائم من أصول ثابتة لا أباطيل فيها ولا تحريف . ولئن

---

(١) نفس المرجع ص ٢٠٥ .

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ص٥٨٧ ، ٥٨٨ طبعة ثانية ، دمشق — بيروت ١٩٧٩ .

ساغ للماديين والملحدين أن يبتعدوا عن الديانة اليهودية والنصرانية لأنهما حرفتا ، فما كان لهم أن يبتعدوا عن الدين الإسلامى لأنهم لو عمقوا النظر فى تعاليمه ومبادئه بعيداً عن الأدعياء والمنحرفين لوجدوا أنه الدين الأوحد الموثوق بأصله ، فدستوره القرآن الكريم . « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه وله من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(١) وهو وحده القادر على أن يسمو بكل البشر إلى الكمال المادى والروحى فهو دين وضحت معالمه ، وكرمت مبادئه ، وثبتت مصادره كما حفظت من التغيير والتحريف، والتبديل والتصحيف وهو كفيل بأن يحقق للإنسان ماينشده من ارتقاء وما يرجوه من كمال ورفعة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »(٢) .

---

(١) من الآية ٤١ والآية ٤٢ من سورة فصلت .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

ســــؤال وإجابته

ولقائل أن يقول أيضاً : إذا كان كل إنسان قد خلق مفطوراً على الخير واتباع الحق ـ كما نسمع ـ وكما ذكرت آنفاً وجبل على أن يكون عبداً لإله واحد مستحق وحده للعبادة ، وطبع على أن يأخذ ماجاءت به الشرائع الإلهية للعمل بما أمرت به ، واجتناب مانهت عنه ، فلماذا لاينسلخ الملحدون والمنحرفون من إلحادهم وانحرافهم ويهرعون إلى ساحة الدين ويلوذون به؟ هل تخلف فى حقهم مبدأ الفطرة فطبع على قلوبهم فلن يرجعوا إلى الرشاد أبداً أم أنه قد وجدت عوامل جعلتهم ينحرفون وبزوالها يعودون إلى سبيل الهدى وطريق الفلاح ؟ وإذا كانوا قد انحرفوا عن الفطرة بسبب آخر فهل يعاقبون على هذا الانحراف أم أن اللوم يقع على من أخذ بأيديهم إلى الهلكة والفساد ؟ وهل الفطرة غير ما أنا متصور لها من أنها الجبلة التى خلق الله الإنسان مفطوراً عليها ليعبده وحده دون سواه ؟

والإجابة على هذا السؤال ينبغى أن نبدأ أولا بتعريف الفطرة فى اللغة والإصطلاح . فنقول :

الفطرة فى اللغة لها معان كثيرة منها البدء ، ومنها الخلق ، ومنها الدين . ففى القاموس المحيط يقول الفيروز أبادى ماخلاصته: الفطرة هى الخليقة التى خلق عليها المولود فى رحم أمه . وفطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم ، وفطر الأمر : ابتدأه وأنشأه ، والفطرة أيضاً هى الدين(١) .

---

(١) ج ٢ ص ١١٠ .

وفى تاج العروس . يقول الزبيدى: فطر الله الخلق يفطرهم فطراً خلقهم وبدأهم ، وفطر الأمر ابتدأه وأنشأه ومنه قول ابن عباس رضى الله عنهما : « ماكنت أدرى مافاطر السموات والأرض حتّى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها : أى ابتدأت حفرها » . والفطرة بمعنى الخلقة(١) .

وفى لسان العرب . يقول ابن منظور ماخلاصته : وتوجد فطرة ثانية وهى الكلمة التى يصير بها العبد مسلماً وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله جاء بالحق من عنده فتلك الفطرة الدين(٢) . والدليل على ذلك مارواه البخارى عن البراء بن عازب قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لاملجأ ولا منجا منك إلا إليك . اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ماتتكلم به » قال: فرددتها على النبى صلى الله عليه وسلم فلما بلغت : « اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت » قلت : ورسولك . قال : « لا . ونبيك الذى أرسلت »(٣) فقول النبى صلى الله عليه وسلم : « فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة » أى على الدين .

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس / محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزبيدى ، المجلد الثالث ص ٤٧٠ .

(٢) لسان العرب / جمال الدين محمد بن بكر بن منظور الأفريقى المصرى المجلد الخامس ص ٥٥ .

(٣) فتح البارى لأحمد بن حجر العسقلانى المجلد الأول ص ٣٥٦ آخر باب الوضوء .

وأرى أن هذه المعانى التى أتيت بها للفطرة متقاربة ومنسجمة وتكون متصلة ببعضها إذا قلنا : إن الله مبتدأ الإنسان وكونه فى بطن أمه مطبوعاً على أن يعبده وحده لا يشرك به شيئاً .

والفطرة فى إصطلاح أهل العلم من المفسرين والمحدثين والفقهاء لها معان كثيرة أيضاً . منها أنها الملة ، ومنها أنها التوحيد ومنها الإسلام . وبكل هذا قال جمهور السلف(١) . رضوان الله عليهم وقال آخرون هى البداءة التى ابتدأ الله الناس عليها ، فإنه ابتداهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة(٢) .

والسبب فى تعدد الإراء فى مفهوم الفطرة أن العلماء لما أرادوا توضيح معنى الفطرة التى خلق الله الناس عليها إختلفوا ، فمن العلماء — وهم جمهور السلف — من قال : هى الإسلام بعقائده ومعاملاته ، ومنهم من قال إنها تعنى المعرفة ؛ والإستعداد لها ؛ والتهيؤ لقبولها(٣) .

ومنهم من قال : إنها تعنى الخلقة مجردة ليس معها شىء من هذا ولا ذاك(٤) .

ومنهم إمن قال غير ذلك كقوله بأن الفطرة تعنى الفقر والفاقة(٥) ،

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٤ فى التى بعدها .

(٢) قال بهذا الرأى طائفة من العلماء منهم الإمام مالك رضى الله عنه وعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل قبل أن يرجع عنه . ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٣ ص ٢٥ .

(٣) قال بهذا الرأى طائفة من العلماء منهم ابن الأثير صاحب الكامل وقد نقل هذا الرأى ابن القيم فى شفاء العليل عن ابن عبد البر حكاية عن هذه الطائفة .

(٤) أصحاب هذا الرأى طائفة من أهل الفقه والنظر وإليه ذهب أبو عمر ابن عبد البر ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٣ ص ٢٧ .

(٥) وهو قول أبى بكر الوراق وقد حسنه القرطبى . ينظر تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٠ .

أو هى ما يقلب الله تعالى قلوب الخلق إليه بما يريدون[1] .

والذى أرتضيه وأميل إليه بعد التعرف على هذه الآراء وغيرها : هو أن الفطرة تعنى الجبلة التى خلق الله الإنسان عليها من الإيمان بالربوبية ، ومعرفة أن لهذا الكون إلها واحداً لا شريك له فى العبادة ، والإستعداد لقبول وأخذ ما جاءت به الرسل من الله تبارك وتعالى للعمل بأوامره وإجتناب نواهيه وهو يوافق قول السلف عن الفطرة بأنها تعنى الإسلام إذا أرادوا بالإسلام العقيدة الأولى التى هى الإيمان بالربوبية ، ومعرفة أن لهذا الكون رباً واحداً لا معبود سواه وهو ما جاءت به كل الرسل . وقد قال به بعضهم ، ويؤكده نص ما قاله ابن تيمية : « ولا يلزم من كونهم — أى بنى آدم — مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذى هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلماً[2] » .

أما إن كان علماء السلف يعنون بالفطرة الإسلام الذى جاء به نبياً محمد صلى الله عليه وسلم بما فيه من عقائد وعبادات ومعاملات ، فليس من اليسير التسليم بما يقولون وذلك لأسباب كثيرة ، منها :

أن الإسلام بهذا المفهوم غير معلوم لبعض من أصحاب العقول السليمة من الكبار فضلا عن أن يولد عليه كل مولود من بنى آدم ومنها : أن الله

---

(١) قال أبو عمر ابن عبد البر : ان هذا القول وان كان صحيحا فى الأصل الا أنه أضعف الأقاويل من جهة اللغة فى معنى الفطرة . ينظر كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ج ٥ ص ١١٧ وما بعدها .

(١) الآية ٧٨ من سورة النحل .

— سبحانه وتعالى — قال فى محكم كتابه : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »(١) فأفاد - سبحانه - بالنص القطعى أن الإنسان يخرج من بطن أمه غير عالم لشىء أصلا . ثم يتولد عنده العلم بعد ذلك وإلا لما كانت هناك حاجة للرسل ولا للمرشدين .

وبقليل من التأمل نجد أنه يوجد تقارب كبير بين المعنيا اللغوى والمعنى الإصطلاحى للفطرة . وقد إستعمل القرآن الكريم لفظ الفطرة بمعنيها اللغوى والإصطلاحى فى بعض آياته .

فمن الآيات التى يراد بها المعنى اللغوى قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض . . . »(٢) أى خالقها ومبدئها وقوله سبحانه : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون »(٣) أى خلقنى .

ومن الآيات التى يرد بها المعنى الإصطلاحى للفطرة قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله إلى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٤) يقول الشوكانى فى تفسيره فتح القدير : « فى هذه الآية الفطرة معناها الملة يؤكد ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول « فطرت الله التى فطر

(١) الآية ٧٨ من سورة النحل .
(٢) من الآية الأولى من سورة فاطر .
(٣) الآية ٢٢ من سورة يس .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الروم .

الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » فكل فرد من أفراد الناس مفطور أى مخلوق على ملة الإسلام حيث أخذهم ربهم من ظهر آدم — عليه السلام — وسألهم : « ألست بربكم قالوا بلى » ولكن لا إعتبار بالإيمان والإسلام الفطرين ، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم وقول جماعة من المفسرين وهو الحق»(١) لأن الإيمان والإسلام الفطريين لا إختيار للإنسان فيهما فلا تكتب لصاحبهما النجاة إلا إذا وجد منه إيمان وإسلام شرعيان فيطابق اختياره فطرته .

وبعد أن عرفنا الفطرة نجيب على بقية سؤال السائل فنقول : على ضوء ما ارتضيناه من تعريف للفطرة يتبين أن الله خلق المخلوقات جميعها مجبولة على عبادته ، ومفطورة على الإنقياد له ، والإذعان لكل أوامره مصداق ذلك قوله تبارك وتعالى : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا أوكرها وظلالهم بالغدو والأصال »(٢) . والإنسان من جملة المخلوقات فطر أيضاً على أن يكون عبداً للإله الواحد المستحق وحده للعبادة وطبع على أن يأخذ ما جاءت به الرسل للعمل بأوامره واجتناب نواهيه . غير أن الفرق بينه وبين بقية المخلوقات أن الإنسان زود بالعقل ، وأوتى قوة الفهم والتأمل وحرية الفكر ، وحرية الإختيار فى الرأى والعمل فإن هيأ نفسه لإستخدام عقله وفكره وفهمه استخداماً صحيحاً ، وسار بها فى الطريق المستقيم الذى بينته الرسل وجاءت به الشرائع الإلهية ، فإن العقل يثبت قواعد الفطرة ويمكن بنيانها ، كما أن الفطرة تهدى العقل إلى فريد من

---

(١) فتح القدير لمحمد بن على بن محمد الشوكانى جـ٤ ص ٢٢٤ دار الفكر بدون سنة طبع .

(٢) الآية ١٥ من سورة الرعد .

الاستقامة ، والمعرفة ، والسداد ، فهما ـ فى هذه الآونة ـ قوتان متماسكتان متناصرتان لا تستغنى إحداهما عن الأخرى .

أما إذا انحرف الإنسان بفكرة ، وضل عقله عن الصراط السوى ، وتمرد على القوانين الإلهية ، فإنه ـ والحالة هـذه ـ ستتضارب القوتان ، فطرة تأخذ بزمامه إلى الخير ، وعقل سقيم الفكر يأخذ بيده إلى الهلكة .

والإنسان مخير فى أن يلجأ إلى الفطرة ، ويحارب انحراف العقل ، أو أن يوصد الباب دونها ، ويسير وراء نزواته وأهوائه فإن اختار جانب الفطرة ، وجاهد نفسه وطوع لله هواه نجا وسلم ، وإن غلب ماحرمت الشرائع من الشهوات الزائلة واللذائذ الفانية ضل وهلك ووقتها لا يلومن إلا نفسه ، وهو مسئول مسئولية كاملة عن كل أفعاله الاختيارية ، وسيعاقب على كل ما اقترف من جرائم ؛ هو ومن سول له السير فى طريق الغواية كل بحسب نيته واختياره ، وعلى مقدار دوره الذى آداه .

من عوامل الإنحراف عن الفطرة

وإذا ثبت أن الإنسان مفطور على السلوك السوى من عبادة للإله الواحد المستحق وحده للعبادة ، ومن عمل الخير له وللإنسانية ، فقد ثبث من نفس الطريق أن الملحدين ومن على شاكلتهم قد أثرت فيهم عوامل جعلتهم ينحرفون عن الفطرة ، وتلك العوامل كثيرة ومتشابكة . غير أننا سنأخذ منها العوامل التالية :

أولا : عوامل نفسية .

ثانياً : عوامل بيئية .

ثالثاً : عوامل إجتماعية ضيقة .

رابعاً : عوامل إجتماعية موسعة .

وتلك العوامل ذات صلة وثيقة بموضوع الفطرة الذى نتناوله الآن بالبحث والدراسة ، وما عداها من عوامل الإنحراف إما داخله تحتها ، أو متشعبة عنها .

العوامل النفسية

أما العوامل النفسية فإنه يندرج تحتها نقاط من أهمها :

(١) النفس البشرية .

(٢) الهوى النفسي :

(٣) الشيطان وسنوجز الكلام عن كل نقطة منها فنقول :

⊙ **النفس البشرية** : ولفظ النفس له معان عدة ، فقد يطلق ويراد به ذات الإنسان وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات ، والنفس بهذا المعنى محمودة . ولها أوصاف مختلفة بحسب إختلاف أحوالها ، فإذا وصلت إلى درجة الإنقياد الكامل لأوامر الشرع وخالفت الشهوات حتى أصبحت معارضة لها تمام المعارضة سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى فى مثلها : « ياأيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية »(١) . وإذا كانت مدافعة للشهوات ومعترضة عليها لكنها قد تقع أحيانا تحت تأثيرها ولم تتخلص تماما من سلطانها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة »(٢)

ويطلق لفظ النفس أيضاً ويراد به الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان . وهى بهذا المعنى مذمومة غاية الذم ومبعدة عن الله تبارك وتعالى وهى من حزب الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء يجوز أن تكون

---

(١) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الفجر .

(٢) الآية الثانية من سورة القيامة .

من جملتها وهى التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله ـ تعالى ـ « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم » (١) ، ويتعين على صاحب النفس الأمارة بالسوء الجامعة للصفات المذمومة أن يجاهدها وأن يكسر حدة غضبها وزيادة شهواتها(٢) .

والذى يعنينا هنا من هذه المعانى. النفس التى هى الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان لأنها بحالتها هذه تكون عدواً لصاحبها تغمسه فى دنس الشهوات وتثنيه عن أى لون من الطاعات ، ومع أن عداوة الشيطان للإنسان واضحة ، وكان الأجدر أن نقدم الحديث عنه أولا إلا أننا قدمنا الحديث عن النفس هنا لأنها بمثابة الباب لقلب الإنسان ويميلها الكلى إلى الشهوة والغضب يتحكم فيها الشيطان فتكون أضر على صاحبها من الشيطان ذاته ، لذا قدمنا الحديث عنها .

والخالق / جل علاه / خلق فى الفطرة البشرية مجموعة من الدوافع لتعين الإنسان على القيام بما كلف من أمر الخلافة فى الأرض كمطالب الجسد من طعام وشراب ومسكن وكحب التملك ، وإثبات الذات ، وعلاقة الجنس ، إلى غير ذلك من الدوافع التى هى ضرورة لعمارة الأمر وأداء رسالة الإنسان عليها . غير أن هذه الدوافع لها خطرها المدمر للكيان البشرى إذا هى تركت بلا عناية تقوم اعوجاجها ، ولا ضابط يضبط انحرافها . وعندئذ

---

(١) الآية ٥٣ من سورة يوسف .

(٢) ينظر الجزء الثالث من احياء علوم الدين للغزالى ص ٤ مطبعة ومكتبة المشهد الحسينى بالقاهرة بتصرف .

تصبح شهوة جامحة تملك الإنسان وتسير كيفما شاءت وفى أى وقت أرادت .

وشاء الله أن يكون الإسلام هو النظام الأمثل الذى يسمح لهذه الدوافع بأن تؤدى وظيفتها التى خلقت من أجلها بدون انحراف عن الخط الذى جاءت به الفطرة فلا يعطلها ولا يكبتها من أصولها(١) . كما أنه فى الوقت ذاته يضبط منطلقها فلا تتحول إلى شهوات جامحة ومع أن الإسلام لا يقـــر الانفلات مع الشهوات الجامحة فهو أيضاً لا يقر الرهبانية لأنها تعطل دوافع الفطرة وتكبتها ، بل هو يتيح للدوافع كلها أن تعمل لا يستقذر شيئاً منها ولا يستنكره ، وفى الوقت ذاته يعمل على تهذيب هذه الدوافع والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسان من رفعة فى حدود كيانه البشرى فلا تصبح شهوات جامحة وإنما رغبات منضبطة بالحدود التى رسمها الله ـ تعالى ـ بعلمه وحكمته ـ وقال عنها : « تلك حدود الله فلا تقربوها »(٢) ، وقال أيضاً : « تلك حدود الله فلا تعتدوها »(٣) .

وما أنجع علاج الإسلام لهذه الأمور حيث بين التوازن الأمثـــل فى الحديث الذى رواه الحاكم وابن حبان عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن

---

(١) وذلك لأنه الدين الخاتم الصالح لكل زمان ومكان. أما اليهودية والنصرانية فإن أتباع اليهودية أفرطوا فى الماديات وأهملوا الروحانيات . وأتباع النصرانية تظاهروا بإهمال الماديات وابتدعوا رهبانية ماكتبها الله عليهم فما رعوها حق رعايتها فانحرفوا جميعا عن الفطرة .

(٢) الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .

رسول الله / صلى الله عليه وسلم / قال : « وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات . ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله ، وساعة يخلو فيهـــا لحاجته من المطعم والمشرب » .

◉ **والنفس البشرية** : أمام هذا التوازن الذى صنعه الإسلام فى هذه الدوافع بين أمرين . إما أن تلتزم بما رسمه الإسلام للإنسان من الأخـــذ بمطالب الروح والجسد بلا إفراط ولا تفريط فتهدى صاحبها إلى السعادة فى الدنيا ، والفلاح فى الآخرة .

وإما أن تنحرف عن الاعتدال فى هذه الدوافع فتعيش مع مطالب الروح والجسد بغير حدود وبلا ضوابط فيهيم صاحبها فى دنيا الضنك ، ويحشر يوم القيامة مع الظالمين .

قال تعـالى : « فمن اتبـع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنـكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشـــد وأبقى »(١) .

فإذا ألفت النفس المحسوسات، والتذت بها وعشقتها نسيت عالم المجردات

---

(١) الآيات من ١٢٣ الى آخر ١٢٧ من سورة طه .

وميلها إليه، وابتعدت عن الله وأوامره والشريعة وأحكامها، فتكون معول هدم فى يد صاحبها يهدم بها القيم والمبادىء، والأخلاق، والمثل.

وأصحاب مثل هذه النفس يكونون فى دنياهم كالأنعام بل هم أضل وهم فى الآخرة فى جهنم وساءت مصيراً.

ولقد قال عنهم، وعن أمثالهم ربنا سبحانه فى محكم كتابه: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»(١).

كما أنها لو مالت إلى الناحية الروحية أكثر مما أمرها به الله/ سبحانه وتعالى /كانت منحرفة أيضاً إذ الانحراف يأتى من أية مخالفة للوضع السوى للإنسان فليس الانحراف هو الجنوح الثابت نحو الحيوانية وحدها كما قد يخيل للكثير من الناس- وإن كان هذا هو الأكثر حدوثاً - ولكن الجنوح نحو الروحانية أكثر من المطلوب هو كذلك إنحراف بالنسبة للإنسان يؤكد هذا ماورد من أنه: «ذهب ثلاثة رهط(٢) إلى بيت من بيوت رسول الله / صلى الله عليه وسلم / فسألوا عن عبادته - صلى الله عليه وسلم - فلما أخبروا كأنهم تقالوها(٣). فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام.

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.
(٢) الرهط: مادون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة
(٣) أى رأوها قليلة فى نظرهم

وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء ، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »(١) .

لذا كانت النفس البشرية بإنحرافها عن السلوك السوى فى مقدمة العوامل التى تؤدى إلى الانحراف عن الفطرة .

(١) رواه الشيخان والنسائى

الهوى النفسى

وهو ميل القلب إلى أى شىء يحبه الإنسان . والإنسان متقلب المزاج ، متغير الحال ، فتارة يكون راضياً وأخرى يكون غاضباً . ومرة يكون محباً لشىء وبعد فترة قد يكون كارهاً لهذا الشىء ذاته ، ثم هو يكون فى وقت صحيحاً وفى وقت آخر يكون مريضاً ، لا يستقر حاله على وتيرة واحدة من هنا كان هواه متقلباً تبعاً لتقلب مزاجه ، وتغير حاله ، وقد اقتضت حكمة الله العليم بخلقه ألا يكل الإنسان إلى هواه وألا يتركه إلى مزاجه المتقلب ، وحاله المتغير . بل جعل له الشريعة الثابتة المبادىء ، الراسخة القواعد ، البعيدة كل البعد عن مصدر الإنسان المتقلب المزاج وهواه المتجدد ، فصدرها لا يميل مع الهوى ولا تغلبه النزوة ولا يتغير بتغير الأشخاص أو تقلب الأحوال أو تنوع المزاج .

وإذا كان الإنسان صاحب نفس سقيمة وأفكار عقيمة فإن هواه سيكون على تلك الوتيرة نفسها ، ولن يميل إلا إلى الشر والجريمة ، والسوء والفساد والضلال من هنا كان الهوى النفسى بهذه الصورة عاملا مؤثراً من عوامل الانحراف عن الفطرة . ولن يأمن الإنسان جانب هذا الانحراف ، ولن تستقيم حياته ، ولن يرق إلى مصاف البشرية الواعية المدركة إلا إذا طوع هواه لجعله فى مرضاة خالقه ، ودار مع الإسلام حيث دار ، واستمد من دستوره وأصوله كل مايحتاجه فى عقيدته وعبادته ومعاملاته وكل إتجاهاته .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

وليس الهوى النفسى كله ضلالا أو إنحرافاً ، فهو إن وافق الشريعة الثابتة ، وسار فى فلك الوحى الإلهى الذى هو الحق ، ولا يحيد عن الشريعة الغراء كان هوى يعمق الإيمان فى القلوب. ويثبت قواعده فى النفوس ويزين الأفئدة بالرباط القوى بالله رب العالمين .

أما إن كان الهوى النفسى يسير على غير هدى ولا يعرف طريق الرشاد فهو هوى ضال مضل ينسى صاحبه ربه فلا يتوب إليه إن خرج عن طاعته ، ولا يستغفره إن أصاب ذنباً كما أنه يغرر بصاحبه فلا يرى إلا أنه على الحق «أخرج الحكيم الترمذى عن عطاف بن خالد قال : بلغنى لما نزل قوله تعالى: « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفرون لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون» (١) صاح إبليس بجنوده ، وحثا على رأسه التراب ، ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر . فقالوا : مالك ياسيدنا ؟ . قال : آية نزلت فى كتاب الله لايضر بعدها أحد من بنى آدم ذنب ، قالوا : وما هى ؟ . فأخبرهم قالوا : نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على الحق ، فرضى منهم بذلك »(٢) .

وقد يكون صاحب الهوى المنحرف على يقين من أن الحق فى غير هواه

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى مجلد س ٣٨٢

ومع ذلك يعلن تمرده على الحق وينصر باطله وفى تلك الحالة يكون عبـــداً لهواه الذى قد يتشعب فيصير آلهة متعددة . وإنسان هذا شأنه يعجب منه ربنا ويفضح أمره بين عباده فيقول عنه فى محكم كتابه : « أفرءيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكـرون »(١).

وتقول بعض كتب التفسير فى هذا المقام(٢) : « والتعبير القرآنى المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب وحين تتعبد هواها وتخضع له وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها، ومشاعرها وتحركاتها ، وتقيمه إلهاً قاهراً لها مستولياً عليها تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول . يرسم هذه الصورة ويعجب منها فى استنكار شديد « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » ؟ ! أفرأيته : إنه كائن عجيب يستحق من الله أن يضله فلا يتداركه برحمة الهدى فما أبقى فى قلبه مكاناً لهدى وهو يتعبد هواه المريض : « وأضله الله على علم » على عـــلم من الله باستحقاقه للضلالة ، أو على علم منه بالحق ومع ذلك لا يقوم لهواه، ولا يصده عن اتخاذه إلهاً يطاع وهذا يقتضى إضلال الله له ، والإملاء له فى عماه . « وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » فانطمست فيه تلك المنافذ التى يدخل

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الجاثية

(٢) ينظر تفسير الفخر الرازى مجلد ١٤ ص ٢٦٩ طبعة أولى دار الفكر ، لبنان ــ بيروت سنة ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م وفى ظلال القرآن مجلد ٥ ص ٣٢٣٠ والتى بعدها الطبعة العاشرة سنة ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م دار الشروق بيروت ــ القاهرة .

منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى وتعطلت فيـــه أدوات الإدراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم : « فمن يهديه من بعد الله » لا أحد لأن الهدى هدى الله وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة فذلك من شأن الله الذى لا يشاركه فيه أحد حتى رسله المختارون .

« أفلا تذكرون » ، ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربقة الهوى وعاد إلى المنهج الثابت الواضح الذى لا يضل سالكوه وقريء : « أفرأيت من اتخذ آلهته هواه » أى كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها » .

الشيطان

ولفظ الشيطان إختلف علماء اللغـــة فى نونه . هل هى أصلية أم زائدة ، فإن كانت أصلية فهو من شطن أى بعد عن الحق . وإن كانت زائدة فهو من شط أى بعد . أو شاط أى بطل ، وشاط أيضاً أى إحترق . وأشاطه غيره أهلكه . ويقول الفيروزاباذى : شاط يشيط شيطاً وشيطوطة وشياطة بالكسر إحترق . وشاط فلان هلك . ومنه الشيطان فى قول .

والشاطن الخبيث وكل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة ، وشيطن وتشيطن فعل فعل الشياطين . والشيطان معروف »(١) وهو جسم خلق من نار وهو من الجن وقد تمرد على أمر ربه فلم يسجد لآدم لذا فقد طرد من رحمة الله من يومها وله أعوان وأتباع مثله وظيفتهم الوسوسة والعمل على إغواء بنى آدم . وهو خبيث عات متمرد هالك مبتعد عن الحق محترق بنار الله هو ومن إتبعه .

وكما يكون من الجن شياطين فإنه يوجد فى الإنس شياطين أيضاً . ذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً »(٢) « غير أن شيطان الجن يوسوس فى صدور الناس وشيطان الإنس يأتى علانية »(٣) نعوذ بالله من شر الشياطين .

ولا يخفى على أى عاقل . سليم الفكر . أن الشيطان هو صاحب القسط القسط الأكبر فى إنحراف الإنسان عن الطريق السوى إذا ترك له زمام

---

(١) القاموس المحيط جـ ٢ ص ٣٧٠ و جـ ٢٤٠ . وتفسير فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ٤٤ .

(٢) من الآية ١١٢ الأنعام .

(٣) فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٥٢٣ .

النفس ، وقيادة الهوى ، كما أن الشيطان أيضاً يمثل قوة الشر الموجودة عند الإنسان ، وتكون كامنة إذا سيطر العقل الواعي على تصرفات صاحبه غير أنها تنطلق من عقالها ، وتدمر كل شيء يقف في طريقها إذا ترك لها الحبل على الغارب ، وأهمل الإنسان جوانب المراقبة عنده .

وعداوة الشيطان للإنسان وجدت من وقت وجود آدم عليه السلام . ومع أن أبا البشر لا دخل له في طرد إبليس من رحمة الله ـ إذ الذي طرده حقده وعنصريته وتمرده على أمر الخالق /جل علاه/(١) إلا أن اللعين تناسى خطأه وجرمه وتفرغ للكيد الدءوب لآدم وذريته ليأخذ من أطاعه إلى غضب القوى القاهر ، وليصنع منهم حزباً يناوىء حزب الله . وما لهم جميعاً — هو وحزبه — الخسران لا محالة . وصدق الله حيث يقول : « إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون »(٢) .

وهو أيضاً يعدهم بالوعود الكاذبة ، ويمنيهم بالأماني الضالة قال تعالى : « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً »(٣) وفوق أن وعوده وأمانيه لن يتحقق لهم منها شيء ، فإنهم سيكونون في نار : « وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »(٤) .

---

(١) يؤكد هذا ما حكاه الله عنه في محكم كتابه لما امتنع عن السجود لآدم : « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » الآية ١٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٩ من سورة المجادلة .

(٣) الآية ١٢٠ من سورة النساء .

(٤) الآية السادسة من سورة التحريم .

وكما يتبرأ الشيطان دائماً من ضحاياه فى الدنيا — بعد أن يوقعهم فى الغواية كما وضح ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب »(١) فإنه يتبرأ منهم فى الآخرة أيضاً . يؤكد ذلك قوله تعالى حكاية عنه : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم »(٢) .

ومن أول الوجود البشرى حذر ربنا — سبحانه — آدم وزوجه من الشيطان ، وبين أن عداوته لهما بينة ، وطلب منهما أن يحذراه وألا يأمنا جانبه . قال تعالى لآدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين »(٣) كما يحذر سبحانه كل الناس من عداوة الشيطان لهم مطالباً إياهم أن يبادلوه عداوة بعداوة لأنهم إن أطاعوه كانوا فى بعد عن الله فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب السعير . قال تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير »(٤) كما يوضح لهم أن الشيطان وأعوانه أساليبهم ملتوية ومكرهم شديد ويرون الإنسان من حيث لا يراهم قال تعالى : « يبنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢٢ من سورة ابراهيم .

(٣) من الآية ٢٢ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٦ من سورة فاطر .

ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »(١) .

ويطلب ربنا من رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن ينصح لأمته ، وأن يحذرهم من طاعة الشيطان لأن فى طاعته إختلاف قلوبهم وذهاب قوتهم ، وتشتيت شملهم ، وتفتيت وحدتهم . قال تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً(٢) » .

وليحكم الشيطان قبضته على الجنس البشرى طلب من الله أن يمهله إلى يوم البعث لينفث فيهم سمومه ، وليفصل بينهم وبين علائق الخير ، وليغويهم أجمعين . فأنظره ربنا إلى يوم الوقت المعلوم ، غير أنه حصن عباده المخلصين من غوايته وحفظهم من مكره يصور ذلك القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى : « قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هـذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من إتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم »(٣) .

وحيل الشيطان لإغواء الإنسان لاتقف عند حد وتفننه لإنحرافه يفوق كل عد . يصور ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى حكاية عن إبليس مع الناس « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين

(١) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٥٣ من سورة الإسراء .

(٣) من الآية ٣٦ إلى آخر الآية ٤٤ من سورة الحجر .

أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (١) غير أن رحمـــة الله دائما قريب من المحسنين الذين إذا أصابهم الشيطان بوسوسته تذكروا (٢) ربهم فتيقظ الخير فيهم ، وإستجابت حواسهم لنور الله فأضاءت جوانبهم ، ووقوا أنفسهم من الشيطان باللجوء إلى الله مستعينين به فيفتح لهم آفاق الرحمة ، ويبدلهم غير الجوانب التي سدها الشيطان عليهم جوانب فياضة بالمغفرة وعلو المنزلة من فوقهم ومن أسفل منهم . فإن رفع الواحد منهم يده يدعو ربه إستجاب دعاءه ، وإن سجد يناجي خالقه كان أقرب ما يكون إليه وهو ساجد فتفوت على الشيطان الفرصة ويتحصن المؤمن من أمامه ومن خلفه ومن جهتي يمينه وشماله . فلا يكون للشيطان عليه من سبيل . يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره عند قوله تبارك وتعالى : « فبما أغويتنى . . . » إلخ الآيتين .

ما خلاصته : لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه على « صراطك المستقيم » أى طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك . روى الإمام أحمد عن سبره بن أبى الفاكه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك . قال : فعصاه وأسلم » قال : « وقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال : فعصاه وجاهد » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الأيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .

(٢) يقول الله سبحانه فى محكم كتابه : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » الأية ٣٠١ من سورة الأعراف .

« فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » وقوله : « ثم لآتينهم من بين أيديهم » الآية .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس « ثم لآتينهم من بين أيديهم » أشككهم فى آخرتهم « ومن خلفهم » أرغبهم فى دنياهم « وعن أيمانهم » أشبه عليهم أمر دينهم « وعن شمائلهم » أشهى لهم المعاصى وإختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر فالخير يصدهم عنه ، والشر يحسنه لهم . وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس « ولم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم » ولهذا ورد فى الحديث الإستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتى » تفرد به البزار وحسنه » انتهى كلام ابن كثير(١) .

ومن ترك التزام بأوامر الدين ولم يبتعد عن الشيطان بعد أن حذره الله منه . فإن الله يكل أمره لنفسه فيستفزه الشيطان بصوته ويجلب عليه بخيله ورجله ويشاركه فى أمواله وأولاده كما قال ربنا — سبحانه وتعالى — فى القرآن الكريم : « واستفزز من إستطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً »(٢) .

(١) من المجلد الثانى ص ٢٠٤ والتى بعدها ط ١٤٠٢ م ، ١٩٨٢ م دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت — لبنان .
(٢) الآية ٦٤ من سورة الإسراء .

وقد يرى البعض أن في تفصيلنا للعوامل النفسية التي تؤدي إلى الإنحراف عن الفطرة ، وتقسيمنا إياها إلى النفس والهوى والشيطان صعوبة لدى الكثير من القراء في تحديد الدور الذي يقوم به كل عامل منها على إنفراد إذ النفس لا تعصى ربها إلا إذا مال هواها جهة المعصية ، والميل يكون بوسوسة الشيطان . « وإن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم من العروق »(١) فيؤثر على النفوس المريضة بعوامل الإنحراف كلها كالحلقة المفرغة جميع أطرافها متشابكة . غير أننا نقول : لو دقق كل قارىء النظر في تلك العوامل ، وأخذ كلا منها على حدة وحلله ـ كما فعلنا سابقاً ـ لاستطاع أن يلمس دور كل منها بدون تداخل وبغير تشابك .

ثانياً : العوامل البيئية ، وأهم مصادرها :

(١) الوالدان .

(٢) الإخوة والأخوات .

(٣) بقية الأهل والأصدقاء .

١ ــ الولدان : إن أول ما تتفتح عليه عين الطفل الوالدان ومن أقوالهما ، وأعمالهما ، وأخلاقهما ، وسلوكهما يأخذ أقواله ، وأعماله ، وأخلاقه ، وسلوكه . فإذا تهيأت له التربية المنزلية الواعية ، والبيئة المؤمنة الصالحة فإنه ينشأ على ما يعمق به أصول الفطرة من أخلاق فاضلة ، وصلة بالله قويمة ، وعمل الخير له ولغيره من بني البشر .

أما إذا نشأ في بيت منحرف ، ووجد في بيئة ضالة ، وعاشر أبوين حياتهما فاسدة ، فلا شك أنه سيرضع لبان الفساد وسينشأ معوج السلوك ،

---

(١) هذا حديث شريف متفق عليه .

وسيتحول من فطرته السليمة التى جبل عليها إلى جاهلية عمياء ، وسوف ينتقل من إستعداد تام للإيمان بالله الواحد الأحد إلى عبادة آلهة متعددة ناشئة عن نفس تعبدت هواها ، كما أنه سينسلخ من بشريته الواعية المدركة إلى حيوانية شرسة ضالة .

يقول الشيخ محمد قطب فى كتابه (دراسات فى النفس الإنسانية) ما خلاصته : « كما أن سوء التربية يزرع فى النفس أمراضاً لم تكن لتوجد بطبيعتها لولا سوء التربية ، فعن طريق القدوة السيئة أو التوجيه الفاسد يمكن تنمية الحسية المفرطة ، أو السلبية المفرطة أو الفردية المفرطة أو العكس وبسوء التربية ينشأ الطفل على الإنطوائية المريضة ، أو الجرأة المتبجحة ، ويمكن أن يوقف نموه عند درجة معينة لا يتعداها ، أو يشل جزء من نفسه عن النمو والنضوج . وهكذا وهكذا . كل الإنحرافات يمكن أن تحدث من سوء التربية كما أن كل الإنحرافات يمكن أن تقوم عن طريق التربية السليمة الراشـــدة الواعية الدائبة وهى المهمة الحقيقية للوالدين »(١) .

والضوابط النفسية فى حاجة ماسة إلى التوجيه والرعاية والوالدان هما أقدر الناس على غرس خصال الخير فى أبنائهم أو نشر الشر فى نفوسهم ويقول الإمام الغزالى فى هذا المقام : « والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة . فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك »(٢) . وصدق

---

(١) ص ٣٢١ .

(٢) تربية الأولاد فى الإسلام جـ ١ ص ١٥٢ .

الرسول الكريم / صلى الله عليه وسلم / حيث يقول : «والرجل داع فى بيت أهله ومسئول عن رعيته» . والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . . .»(١) .

وحين يسلك الآباء والأمهات مع أولادهم طرق الخسة والإلتواء فى التربية . فإنهم يقتلون أنفسهم مع إهلاك أولادهم ويفقدون وجودهم الحقيق. ويحنمون بفعالهم الرخيصة وتربيتهم السيئـــة لأولادهم بأن يعقوهم إذا ما شبوا وقويت سواعدهم كما أساءوا إليهم حال صغرهم . «جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه عقوق إبنه ، فأحضر الابن وأنبه على عقوقه لأبيه . فقال هذا الابن : يا أمير المؤمنين : أليس للولدحقوق على أبيه ؟ . قال . بلى . قال: فما هى ياأمير المؤمنين؟ قال : أن ينتقى أمه ، ويحسن إسمه ويعلمه الكتاب (القرآن) . فقال ياأمير المؤمنين : إنه لم يفعل شيئاً من ذلك . أما أمى فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سمانى جعلا (٢) ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له : أجئت إلى تشكو عقوق إبنك وقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك»(٣) .

ورحم الله شوقى حين قال :

ليس اليتيم من إنتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليـــلا
إن اليتيم هو الذى تلق له ... أما تخلت أو أباً مشغـــولا

إن الولد غراس عمر أبيه ، وثمرة كفاحه ، وأمل حياته ، والقسط

---

(١) من حديث رواه البخارى ومسلم .

(٢) جعل كصرد دويبة صغيرة سوداء اللون وتسمى – جعرانا – .

(٣) هداية المرشدين لشيخ على محفوظ ص ٣٤٠ ط التاسعة ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م دار الإعتصام القاهرة .

الأكبر من زينة الدنيا لديه . والشر كل الشر عليه أن لا يثمر غرسه إلا الشوك ، وأن يفقد إبنه فى حياته ، وأن يحيا به بلا أمل وأن يجر عليه الوبال فى دنياه . ولو علمه أن ينطق الكلمة الطيبة بدل الخبيثة ، وعودة الخلق الحميد بدل السيء منه ، وغذاه بالصدق والحب والإيثار بدلا من الكذب والحقد والأثرة لو فعل معه ذلك لأثمر غرسه الثمرة المرجوة ، ولسعد به فى دنياه ولكان إمتداداً له بعد أن يلقى الله . . ونختم الكلام عن مسئولية الوالدين عن أولادهم بجزء من بحث عن إعداد النشء كتبه الشيخ على محفوظ فى كتابه «هداية المرشدين»: «إن تربية النشء تربية حسنة حكيمة من أهم الفرائض، وألزم الواجبات التى لا يصح أصلا التهاون فيها ، لشدة خطرها ، وعظم مسئوليتها. قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة »(١) .

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وغيرهم من حديث على رضى الله عنه فى معنى الآية قال : « علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم » وأخرج ابن جرير وابن المنذر من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصى الله ، ومروا أولادكم بإمتثال الأوامر : وإجتناب النواهى فذلك وقاية لكم ولهم من النار » وروى ابن ماجة من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إلزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » فهذا الحديث الشريف أوجب على الآباء مراقبة الأولاد مراقبة دقيقة ، وتأديبهم أحسن الأدب ، فعلى

---

(١) من الآية السادسة من سورة التحريم .

الأبوين أن يقوما بهذه المراقبة داخل البيت وخارجه . يحببان إليه النافع من الأعمال والطيب من الأخلاق ، وينفرانه من الضار منهما بقـــدر مايسعه إدراكه .

وروى البيهقى عن أبى رافع : «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وأن لايرزقه إلا طيباً » .

والصبى أمانة فى عنق والديه يسألان عنها فى عرصات[1] القيامة وقلبه الطاهر جوهرة نقية خالية من كل نقش وصورة فهو قابل لكل ماينقش فيه ويغرس ، قبول العجينة فى يد الخباز ، ومستعد للتوجه به إلى أى جهة . قال صلوات الله وسلامه عليه : «كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » متفق عليه من حديث أبى هريرة . ومعناه أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهىء لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها إلى غيرها ، وإنما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد بحكم البيئة ـ ثم تمثل بأولاد اليهود وغيرهم فى اتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم إنحرافاً عن مقتضى الفطرة السليمة ـ فإن عود الخير وعلمه . نشأ عليه وكان سعيداً فى الدنيا والآخرة . وشاركه فى ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك فى نفسه : وكان شقاء وبلاء على أمته ، وكان الوزر فى رقبة ولى أمره ، والقيم عليه » . انتهى نص كلامه (٢) .

---

(١) عرصات جمع عرصة بوزن ضربة . والعرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، ويراد بها هنا مواقف القيامة .

(٢) ص ٣٣٨ والتى بعدها .

٢ — الاخوة والأخوات :

وقد يكون سلوك الوالدين طيب فى تصرفاتهما الشخصية غير أنهما لم لم يحسنا تربية أولادهما إما إهمالا أو جهلا أو لانشغالهما بأعمال أخرى غير أولادهما أو قد يكون سلوكهما سيئاً ونشأ عليه أولادهما الكبار أو واحداً منهما ثم ماتا أو شغلا فآلت تربية بقية الأولاد للكبار منهم فإذا بكبيرهم لفقده المبادىء السليمة ، والأسس القويمة للحياة الأسرية الرفيعة ينحدر بمن آلت إليه إلى حياة ماجنة ، وعيشة فاسدة، وسوء فى السلوك . وقد يصل الأمر به إلى أبعد من هذا فيفرض على بقية إخوته أو بعضهم السير فى طريق الشرور والآثام فيفقدون الشرف والعفة والاتزان، ويألفون حياة الإجرام والرذيلة .

وبيت تنشأ فيه مثل هذه النفوس يكون مآله التصدع العاجل فى صفوف أبنائه ، والتفكك السريع بين أفراده فالشيطان رائدهم فى كل أعمالهم وأقوالهم فيصبحون من أخلص جنوده ، وأنشط أعوانه ، وينشرون فيمن يحيط بهم من أسر ، ومن يلتقون به من أبناء المجتمع . الفاحشة والانحراف وكل ألوان الفساد ، لأنهم إنحرفوا عن الفطرة .

وما ذكرت فيهم كلمة تقربهم من ربهم فغلقت قلوبهم عن تلقى الخير ، وعميت أبصارهم عن رؤية الحق، وصمت آذانهم عن نداء الفضيلة. لا يعرفون إلا الحق والبغضاء لذوى الفطر السليمة ، ولا تفكر عقولهم إلا فى نشر الظلم والظلام فقطعوا جميع العلائق بربهم ، وأوصدوا كل نوافذ النور فى

وجوههم و « نسوا الله فنسيهم »(١) لذا « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »(٢) .

ومن خلال الرؤية العاجلة لمثل هؤلاء الأفراد فإن الحكم يكون بإلقاء اللائمة كلها على الابن الأكبر الذى يعولهم ويتولى تربيتهم ، غير أنى أقول بشيء من الرؤية قبل الحكم يتضح أن الابن الأكبر وإن كان مهملا فى تربية الآخرين ومخطئاً فيما يقوم به نحوهم ، وعليه وزر لكل مافعله بهم ، أو تسبب فيه معهم إلا أننا نلقى باللائمة أكثر على الوالدين الذين لم يربيا هذا الابن العائل على فطرة الدين ، ولم يغذياه على السلوك القويم ، ولم ينشئاه على الفضيلة ومحبة الآخرين ولو فعلا معه ذلك ثم ماتا أو تخليا لغرس الخير فيمن يعول ولقاد ركب أسرته إلى نهاية حميدة ، ولوصلت سفينته بهم إلى بر الأمان وأكثر من هذا : لوكان الوالدان على تقوى من الله فى كل أمورهم ، وملازمين للصدق فى كل أحوالهم ، ثم ماتا ولهم صغار ؛ فإن الله سيكفل لهم من يرعاهم ويصونهم ويحافظ عليهم وينشئهم تنشئة صالحة يوضح ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » (٣) .

والأسرة لبنة المجتمع الأولى ، فإن كانت صالحة أسس المجتمع على تقوى من الله ورضوان ، وإن كانت فاسدة أسس على شفا جرف هار فانهارت به

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة التوبة .

(٢) الآية السابعة من سورة البقرة .

(٣) الآية التاسعة من سورة النساء .

فى أعماق الرذائل ، وساحات الانحطاط . لذا كلف الإسلام كل عائل بأن يأخذ بيد أهله إلى مايعمق جوانب الفطرة فى نفوسهم ، وبأن يقوم ببناء بيته على أساس من دين الله فى الوقت الذى كلفه هو بإصلاح نفسه ، وتقويم سلوكه حتى يكون قدوة عملية لكل من يعول .

والإسلام هو الدين الأمثل الذى عرف للأسرة قدرها (ومن ثم يقرر تبعة المؤمن فى أسرته، وواجبه فى بيته، فالبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة وهو الخلية التى يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحى - المجتمع الإسلامى - .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع العقيدة الإسلامية ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها ، حصينة فى ذاتها ،كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ أحد إليها ولا يتسرب شىء منها وإن لم تكن كذلك . سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه ، فلا يصعب على طارق ، ولا يستعصى على مهاجم) (١) .

---

(١) ببعض تصرف من تفسير فى ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٦١٩ ، دار الشروق القاهرة وبيروت — لبنان .

٣ — بقية الأهل والأصدقاء :

ولا يخلو الحال من أن يكون للإنسان ذووا قرابة نسبية ، أو أن تربطه بالآخرين صداقة قوية فيأتون إليه ويختلطون به، فإن كان فيهم أو فى بعضهم سوء فى السلوك ، أو إعجاب بالرأى أو هوى ضال ، أو أى لون من ألوان الانحراف عن الفطرة فإن ذلك سوف يؤثر ـ لا محالة ـ على أولاده ومن يعول . وقد ينشأ الأولاد فى بعد عما عليه أبواهما من إتزان وقرب من الله ويظهر فيهم الانحراف والتخبط ، فإن مرد ذلك يكون إلى المحيطين بهم من ذوى القرابة ومن تربطهم بهم لقاءات عديدة ومستمرة .

وقد يؤثر ذووا القرابة والأصدقاء فى هؤلاء الأولاد تأثيراً سيئاً بالصدفة المحضة وذلك بأن يسمع الأولاد أحدهم يقول كلمة خبيثة لا يلقى بها بالا ، أو يعمل عملا خسيساً لايعبأ به . فيعلق بذهن الأولاد أو واحد منهم ما يكون سبباً فعالا فى إنحرافه عن الفطرة، وبعده عن الحياة الجادة والسلوك القويم .

وقد يؤثرون فى الأولاد عامدين إذا كانوا أو أحدهم يحملون حقداً لقريبهم ، أو يضمرون شراً لصديقهم فيكيدون له فى أولاده ، ويتحينون الفرص لغرس السموم فيهم ، ونشر الرذيلة فيما بينهم، ويبتكرون المناسبات كى يلتقوا بهم ليجعلوا منهم معاول هدم للمبادىء السامية، وأدوات تخريب للفطرة الصادقة يبتغون من وراء ذلك إذلال قريبهم فى صور أولاده ، وإذاقته الحسرة طوال حياته .

وربما كان هؤلاء الأقرباء المنحرفون أعماماً أو أخوالا وفى أمثالهم

يقول القائل :

أقارب كالعقارب فى أذاها ... فلا تركن إلى عم وخال
فكم عم يكون الغم منه ... وكم خال من الخيرات خال(١)

وكما يكون بعض الأهل والأصدقاء عوامل إنحراف عن الفطرة إن كانوا فاسدين . فهم على العكس من ذلك يكونون عوامل تعميق للفطرة ، وتثبيت لمبادئها إن كانوا صالحين ، يدل على ذلك مانراه ونلمسه من التأثير الحسن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ابن عمه على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ الذى أخذه فى حال صغره وتولى أمره بدل عمه أبى طالب كى يخفف عنه عبء الحياة ويساعده فى تربية أولاده خلقاً ووفاء ، ولما جاءت الرسالة لرسول الله / صلى الله عليه وسلم / كان على بن أبى طالب أول من أسلم من الصبيان وهو يومئذ ابن عشر سنين ، على حين أن من أسلم من إخوته قد تأخر عنه فى إسلامه وأبوه نفسه عاش ومات على كفره . وما ذلك إلا لأن علياً ـ رضى الله عنه ـ قد عاش فى بيئة نظيفة طاهرة وزادت صلتها بربها عن طريق الرسالة .

وفى تلك البيئة الأسوة الحسنة التى وجدت فى رسول الله / صلى الله عليه وسلم / وفى أهل بيته مما كان له الأثر الحسن فى حياة الإمام على كلها .

◉ **ثالثاً : عوامل اجتماعية ضيقة وتكون أكثر خطورة على الفرد**

---

(١) فى هذا الشعر تعميم وقد كتبت فى الفقرة التى بعده مايبين ذلك .

والجماعة ـ إن أسيء استغلالها ـ وتتناول ـ الشارع ـ، و ـ دور التعليم ـ و ـ المصنع ـ و ـ المتجر ـ و ـ النادى ـ و ـ أى تجمع سكانى محدود ـ .

وهذه العوامل وإن كنا قد أطلقنا عليها عوامل اجتماعية ضيقة فإنه يصح أن يطلق عليها أيضاً عوامل بيئية موسعة لأنها تكون فى محيط المنطقة التى بها دور القوم وأماكن منافعهم . وهذه الأماكن منها مايتصل بها الطفل من أول تمييزه للأشياء ومعرفتها كالشارع ودور التعليم وإن كان اتصاله بالشارع يكون قبل اتصاله بدور التعليم .

ومنها ما تكون صلته به فى سن مبكرة من حياته بعد ذهابه إلى دور التعليم كالنادى والمزرعة . وإن كان ذهابه إلى النادى يكون مرغماً إليه فى كثير من أوقاته . أما المزرعة فقد يذهب إليها مرغماً وخاصة إذا كبر وعهد إليه بأى عمل عضلى ومنها ما تكون صلته به بعد أن يتحمل جانباً من مسئوليات الحياة وأمور المعيشة كالمصنع والمتجر، ومنها ما تكون صلته به ثانوية لأنه قد لا يوجد فى الشهر إلا مرة . وقد يوجد فى العام كله مرتين أو ثلاث مرات . وذلك كأى تجمع سكانى محدود على نطاق المربع السكنى الذى يحيا فيه .

ولم نأت بالمسجد مع أن له خطره فى سلوك الأفراد والجماعات لأنه لما كان الشأن فيه أن يعمل على تثبيت غراس العقيدة وتعميق مفهوم الفطرة وليس عاملا من العوامل التى تبيت فيها نوايا الانحراف. لم نأت به فى تقسيمنا هذا لتلك العوامل .

كما أننا لم نأت بدور الخيالة ، ولا الإذاعة المرئية ، ولا المسموعة ، ولا

غيرها من وسائل الإعلام مع أنها تكون من عوامل الانحراف - إن أسيء استخدامها - لأنها وإن وجدت فيها تجمعات إلا أن الانتباه أكثر ما يكون للمادة المعروضة لا للمجتمعين . والمادة المعروضة يرجع الانحراف فيها - إن وجد - لإدارات البرامج والإعلام التى تشرف عليها مؤسسات عامة سنعرض لها فيما بعد عند الحديث عن عوامل الانحراف الاجتماعية الموسعة .

وعوامل الانحراف التى ذكرناها يكمن الخطر فيها على قدر قربها من الإنسان فالشارع ، وتليه دور التعليم . من أخطر تلك العوامل فى حياة الطفل إذا صادف فيهما شياطين الإنس ، وقرناء السوء ، وصانعى الجريمة. وتليهما العوامل الأخرى مرتبة حسب درجة خطورتها وهى - كما أرى - النادى - المزرعة - المتجر أو المصنع - ثم - أى تجمع سكانى محدود . والعاملان الأولان وهما الشارع ، ودور التعليم . قد يرى البعض أن نتيجة الإنحراف بسببها غير خطرة ، وعواقبها ليست وخيمة ، لأن الطفل يكون فى أول سنى حياته فلن يكون تأثيرهما عليه كتأثير بقية العوامل التى بعدهما .

وأقول : إن عاقبتهما فى الإنحراف وخيمة أكثر من العوامل التى تليهما وذلك لأن الطفل إذا صادف بهما إنحرافاً فإنه سيتأصل فيه ، وينمو معه على مر الزمن فإن التحق بأى من الأماكن الباقية كان غير محصن ضد أى انحراف وكان فيه الإستعداد لإقتراف أى جريمة وعمل أى سوء . لذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من الجليس السوء ، وحث على السير مع المعتدلين المبتعدين عن الإنحراف

فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم

قال : إنما مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك(١) ، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة» (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه الترمذى : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ، وما أحسن ماقاله الشاعر :

عن المرء لاتسل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

ويروى ابن عساكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف» لأن النفس تقتبس الخير أو الشر من الجلساء . وقديماً قالوا : من جالس جانس . لهذا أمر ربنا سبحانه وتعالى بصحبة الأخيار الصادقين فقال : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»(٣) .

فما أجدر الآباء والمربين أن يأخذوا بالتوجيهات الإلهية الكريمة ، وبالعظات النبوية الجليلة ، وبما أثر عن الكرام السابقين وكل الأطهار المعتدلين . ليخرجوا للمجتمع براعم آمنت بربها وتربت على الطهر ، والصدق والإخلاص ، والوفاء ، وحيل بينها وبين ماتشتهى من أمور تعكر صفو الإيمان . فهم مستقبل الأمة المرتقب لعمل الخير ، وسواعدها الفتية التى تصنع المعروف وتحقق الآمال . وقلوبها النابضة بالصدق والإخلاص ، وعقولها المفكرة فيما يعود بالنفع على كل الخلائق بما يتلاءم وقواعد الدين الحنيف .

---

(١) يحذيك : أى يعطيك   (٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) الآية ١١٩ من سورة التوبة .

وما وصل الشباب فى المجتمع الإسلامى إلى ماوصل إليه من انحطاط وتأخر ، إلا يوم أن ترك الآباء والمربون بلا رعاية ولا عناية ، وأهملوا فيه جانب الفطرة مما جعل أكثره ينجر إلى الإنحراف ، والزيغ ، واعتناق مبادىء الكفر والإلحاد .

وفى الجزء الأول من كتاب « تربية الأولاد فى الإسلام » يقول مؤلفه:
« ولأهمية الفطرة وأثرها .. نعلم أن الولد إذا نشأ فى بيت منحرف ، وتعلم فى بيئة ضالة ، وخالط جماعة فاسدة . . فلا شك أنه سيرضع لبان الفساد ، ويتربى على أسوأ الأخلاق ، ويتلقن مبادىء الكفر والضلال . وسرعان مايتحول من السعادة إلى الشقاء ، ويتدرج من الإيمان إلى الإلحاد ، وينتقل من الإسلام إلى الكفر . وعندئذ يصعب رده إلى جادة الحق ، وإلى سبيل الإيمان والهدى . ولا بأس أن نستعرض نماذج وصوراً من بيئات الضلال والفساد لنعلم العوامل التى تؤدى إلى انحراف الولد فى عقيدته وأخلاقه ولنتأكد كذلك أنه إذا تساهل الآباء والأولياء والمربون فى تربية الأولاد فسيصل الأمر فى الغالب بهؤلاء الأولاد إلى الزيغ والإنحراف واعتناق مبادىء الكفر والإلحاد فالأب الذى يدفع بولده إلى المدارس الأجنبية ، والمعاهدالتبشيرية يرضع من لبانها ، ويتلقف التوجيهوالتعليم على يد مبشريها لاشك أن هذا الولد سينطبع على الزيغ والضلال ويميل إلى الكفر والإلحاد بل ستترسخ فى نفسه مشاعر الكره للإسلام وإضمار العداوة لهذا الدين .

والأب الذى يسلم قيادة ولده لأساتذة ملحدين ، ومربين أشرار يلقنونه مبادىء الكفر ، ويغرسون فى سويداء قلبه بذور الضلال . لاشك أن هذا الولد سينشأ على التربية الإلحادية والتوجيه العلمانى الخبير .

والأب الذى يسمح لولده أن يطالع ماشاء من كتب الملحدين والماديين، ويقرأ ما أراد من مطاعن المبشرين والمستعمرين لا شك أن هذا الولد سيتشكك بحقيقة عقيدته ودينه، ويهزأ بتاريخه وأمجاده، ويكون حربا على الإسلام ومبادئه. والأب الذى يرخى لولده العنان، ويترك حبله على غاربه ليخالط من رفقاء الزيغ والضلال من يشاء، ويعتنق من المبادىء الضالة والأفكار المستوردة ما يريد. لا شك أن هذا الولد سيسخر لا محالة بكل القيم الدينية والمبادىء الخلقية التى جاءت بها الأديان والشرائع.

والأب الذى يترك المجال لولده لأن ينتمى إلى أحزاب إلحادية كافرة. وإلى منظمات علمانية لادينية وإلى هيئات لا ترتبط بالإسلام عقيدة وفكراً وتاريخاً لا شك أن هذا الولد سيتربى على عقائد ضالة، وينشأ على مبادىء إلحادية كافرة، بل يكون حرباً على الأديان والقيم والمقدسات(١)». ثم يقول فى صفحة ٢٩٢ والتى بعدها من نفس الكتاب.

ما خلاصته: «وأقول للأولياء والمربين والآباء: أليس من المؤسف أن يصل شبابنا إلى سن التكليف ولم يعلموا عن الإسلام أنه الدين الوحيد الذى له ملكة الشمول والخلود والبقاء للزمن المتحضر والحياة المنظورة أليس من المؤسف أن يتعلم أبناؤنا فى المدارس الكثير عن رجالات الغرب وفلاسفة الشرق، وعن أفكارهم وآرائهم وتاريخ حياتهم ومآثر أعمالهم ولم يعرفوا عن حياة أبطالنا وعظمائنا فى تاريخ وأخبار الفاتحين سوى النذر اليسير.

---

(١) ص ١٠٣ والتى بعدها ببعض تصرف.

أليس من العار أن يقتنى أبناء هذا الجيل الكتب الإلحادية والقصص الغرامية وتمسخهم فى المدارس الثقافات الأجنبية حتى أصبح الكثير منهم لا يوجد عنده أدنى إهتمام بالكتب الفكرية التى توضح نظم الإسلام، وترد على شبهات الأعداء وفوق ذلك غرست فيه العداوة لدينه وتاريخه وحضارته».

فما أحوجنا إلى عودة جادة للدين الذى إرتضاه الله لنا شرعة ومنهاجاً وما أحوجنا إلى وقفة متأنية لتقيم أعمالنا ولنغرس فينا وفى أبنائنا مبادىء الخير والفضيلة حتى نقى أنفسنا وأهلينا شرور الدنيا وعذاب الآخرة.

رابعاً : عوامل اجتماعية موسعة :

وتتناول أولا الحكومة، أو الحزب الحاكم، أو الهيئة التنفيذية العليا كل دولة على حسب نوع الحكم فيها.

ثانياً : الحاكم الأعلى فإذا وجد إنحراف فى الحكومة ـ فى البلاد التى بها حكومات ـ أو ما يماثلها من أحزاب أو هيئات ـ فى البلاد ـ والتى يكون نظام الحكم فيها لا تمثله الحكومات ـ كان الخطر داهما، والمصيبة عامة. وذلك لأن أفراد الشعب أو الأمة سيقعون تحت تأثير هذه الحكومة أو ماشابهها لأن السلطة التشريعية والتنفيذية كلها فى يد أفراد الحكومة أو ما يقوم مقامها.

يضاف إلى ذلك أن جميع المؤسسات العلمية، والإعلامية والإقتصادية والعسكرية والسياسية وغيرها فى كثير من البلاد تخضع لسيطرتها، وتذل لسلطانها وتأتمر بأوامرها، وتنفذ تعليماتها ولئن أراد أى فرد، أو أية جماعة

أو مؤسسة الخروج عن تلك التعاليم الفاسدة والأوامر المنحرفة . وبخاصة فى المجتمعات الشيوعية فإن الحكومة أو ما يضاهيها تعمل جاهدة على إستمالة من تمرد عليها بالترغيب أولا فتمنيهم بالأمانى التى قد تنفذ لهم بعضها ـ إن أطاعوها وتتغاضى عن بعض هفواتهم التى يقعون فيها لتكون لها الأيادى البيضاء عليهم فتذلهم بها ، ولا يجرؤون على مناوأتها ، والوقوف فى طريقها فإذا لم يفد الترغيب فيمن تمرد عليها إستعملت معه العنف والترهيب ، وأذاقته صنوف العذاب وألوان العقاب ، وأهانت أهله وقرابته إنتقاماً من شخصه ، وربما لقى حتفه إن ظل على عناده .

والحاكم الأعلى للدولة أو الأمة إن كان منحرفاً عن الفطرة فالويل كل الويل للشعب أو الأمة إن لم يدوروا فى فلكه وينضووا تحت لوائه لأنه بما أوتى من سلطة مطلقة ـ لا تخضع لقانون عادل ، ولا لقاعده سليمة ـ فإنه سيرغم كل رعيته على الإنحراف ـ رضيت أم أبت ـ ولئن أعلن أحد من تلك الرعية عصيانه له ، وعدم إنحرفه عن طريق الجادة فإنه يرغمه على الإنحراف بالترهيب فقط إذ لا ترغيب عنده لأنه صاحب السلطة العليا ، والكلمة النافذة ، والقول الذى لا تعقيب عليه ، وكل من دونه من حكومة أو غيرها تحت تصرفه ، وفى قبضة يده ، وعلى من أعلن عصيانه أن يلقى جزاءه . وقد يكون هذا الجزاء ضرباً ، أو سجناً ، أو هتكاً لعرضه ، أو بتراً لبعض أعضائه ، أو إزهاقاً لنفسه ، أو صلباً لجسده « ومانقموا منهم إلا أن يؤمنون بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد »(١) .

---

(١) الآيتان الثامنة والتاسعة من سورة البروج .

وقد إبتليت شعوب كثيرة بأمثال هؤلاء الحكام ، وبنظائر تلك الحكومات ، وكم جروا بانحرافهم من ويلات على الشعوب والأمم فحولوا الكثير منهم عن مسار الفطرة السليم إلى ضـــلال الإنحراف والكفر والإلحاد .

ووصل الأمر ببعض الحكام وحكوماتهم كالمجتمعات الشيوعية أنهم أنكروا الله ذاته ولم يعترفوا بوجوده ، وأعلنوا أن الدين خرافة ، وأنه أفيون الشعوب . وأنهم لما وصلوا إلى القمر وغيره باختراعاتهم بحثوا - كما يقولون - عن الله فلم يجدوه ، وكأن الله شخصاً فى مكان ، أو جسما متحيزاً فى حيز ، أو أنه - سبحانه - موجود فى جزء من ملكه ، أو يستطيع إنسان أن يحد ذاته أو يعرف كنهه : « سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً(١) » .

ومع وجود السلطة المطلقة ، والقوة الغاشمة مع الحكام الظالمين ، والحكومات المنحرفة ، والأحزاب المتسلطة إلا أنهم لم يستطيعوا أن يثنوا كل شعوبهم أو جميع أبنـــاء دولهم عن طريق الفطرة لا بالترغيب ولا بالترهيب . بل وقفت فى طريقهم فئات آمنت بربهم وظلت على فطرتها، ومكثت على عقيدتها ، وتمسكت بمبادئها مستعذبة كل ألوان القهر والظلم والتشريد والتعذيب فى سبيل دينها وعقدتها ، ومبادئها السليمة وخطرتها المستقيمة متأسية بمن سبقها من الأخيار الأطهار بمن جاهدوا فى الله حق جهاده .

---

(١) الآية ٤٣ من سورة الإسراء .

حتى فى البـــلاد التى أعلنت تمردها على الله بنكران ذاته ولم تعترف بوجوده فإنه يوجد بها أفراد وجماعات أكرهوا على النطق بكلمة الإلحاد غير أن قلوبهم مطمئنة بالإيمان .

ولئن كانت الحكومات المنحرفة عن الفطرة تشارك الحاكم الأعـــلى المنحرف فى أن كلا منهما يبعد الشعب أو الأمة عن المسار السليم إلا أنه يوجد بينهما فارق كبير ـ وإن كانت النتيجة إلى الإنحراف واحدة . ذلك الفارق هو أن الحكومة وما شابهها يبـــدأ فى أخذ الشعب إلى الإنحراف بالترغيب أولا ، فإن لم يفلح الترغيب استعمل الترهيب ، أما الحاكم الأعلى فإنه أول ما يبدأ يستعمل الترهيب فقط .

كما أنه يوجد فارق بين العوامل الاجتماعية الموسعة فى الإنحراف ـ التى هى الحاكم الأعلى ـ والحكومة ـ وبين بقية عوامل الإنحراف المتقدمة ـ التى هى عوامل نفسية ، وبيئية واجتماعية ضيقة ـ وهذا الفارق واضح وملموس . إذ الإنحراف فى العوامل الاجتماعية الموسعة يكون على نطاق واسع ، وضحاياه كثير عددهم ، أما العوامل الأخرى فإن الإنحراف فيها إما لفرد واحد كالعوامل النفسية ، أو لأفراد قلائل كالعوامل البيئية والاجتماعية الضيقة .

وأما أشدها من بلية . تلك التى تجعل مجموع أفراد الشعب أو غالب أبناء الأمة ينحرفون ـ إن طوعاً أو كرهاً ـ عن الجبلة ، والسجية التى خلقهم الله عليها . ولقد توغلت الشيوعية فى بعض البلاد حتى أصبح حكامها وحكوماتها يقتفون أثر ساداتهم من الماركسيين الذين ينكرون كل شىء يقرب من

الفطرة، بل ينكرون الله ذاته الذى خلقهم ورزقهم وأعطاهم بعضاً من أسرار كونه وملكوته .

ولأن الإسلام الآن هو الدين الأوحد الذى يمثل الفطرة السليمة بعد أن دخل التحريف على غيره فقد عمل أعداؤه كلهم ـ وفى مقدمتهم الشيوعية الحاقدة ، والصهيونية الماكرة ، والصليبية المترقبة ـ على ضربه ومسخه حتى يتسنى لهم العمل بحرية وطمأنينة على تحويل أكبر عدد من أبنائه إلى الإنحراف عن الفطرة السليمة ، والعقيدة القويمة .

يؤكد هذا ما ذكره عبد الله علوان فى الجزء الثانى من كتابه : « تربية الأولاد فى الإسلام » :

ولقد نشرت مجلة (كلمة الحق) فى عددها الصادر فى شهر المحرم سنة ١٣٨٧ الموافق لشهر أبريل — نيسان — سنة ١٩٦٧ م إحدى الوثائق السرية الخيرة وبها مخطط رهيب للقضاء على الإسلام وقد أعده الشيوعيون فى — موسكو — وقدموه لعبيدهم المسخرين فى أحد بلدان الشرق العربى المسلم لينفذوه ، وقد أخذوا فى تنفيذه بدقة . وها نحن أولاء ننقل من مجلة — كلمة الحق — بعض ما يحويه المخطط الشيوعى لضرب الإسلام فى دياره . تقول الوثيقة : « برغم مرور خمسين سنة تقريباً على الإشتراكية فى الإتحاد السوفياتى ، وبرغم الضربات العنيفة التى وجهتها أضخم قوة اشتراكية فى العالم إلى الإسلام فإن الرفاق الذين يراقبون حركة الدين فى الإتحاد السوفياتى صرحوا كما تذكر مجلة (العلم والدين) الروسية فى عددها الصادر فى أول يناير — كانون الثانى — سنة ١٩٦٤ م بما نصه : « إننا نواجه فى الإتحاد السوفياتى تحديات داخلية فى المناطق الإسلامية وكأن مبادىء ـ لينين ـ لم

تنشر بها دماء المسلمين ، وبرغم القوى اليقظة التي تحارب الدين فإن الإسلام مازال يرسل إشعاعاً ، وما يزال يتفجر بالقوة بدليل أن الملايين من الجيل الجديد في المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام ويجاهرون بتعاليمه مع أن قادة الحزب ومفكرى المذهب لا يغيب عنهم خطر يقظة الإسلام في المناطق الإسلامية بالإتحاد السوفياتي الذي أشار في (دائرة معارف الثقافة الشيوعية إلى أن الإسلام أخطر الأديان الرجعية ويبذل أقصى جهده ليكون في خدمة المستغلين ، والاقطاعيين والرأسماليين ، ويقدم كل العون للاستغلال ، وهو دين جاوز حقود على الحضارة والتقدم وخصم عنيد للإشتراكية ومناهض التحركات التحررية »(١) .

وتقول الوثيقة : « ومن هذا المخطط أن يتخذ الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام نفسه وقررنا مايلي :

١ — مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه ، والمهاونة لأجل حتى نضمن أيضاً السيطرة ، ونجتذب الشعوب العربية الإشتراكية .

---

(١) ولا يخفى أن هذا محض افتراء . فإن الإسلام دين تقدم ورقى ، وما وقف مرة بجانب المستغلين من الإقطاعيين أو الرأسماليين أو غيرهم ، وما عرفت الإنسانية الحضارة الحقة إلا عن طريقه ، وهو دائما يقف بجوار المظلوم لينصره ، ويؤازر المستعبد لينال كامل حريته ، ويكفى رداً على هؤلاء الأفاكين أنهم قالوا في تلك الفقرة من وثيقتهم هذه « فإن الإسلام مازال يرسل أشعاعا وما يزال يتفجر بالقوة » .

٢— تشويه سمعة رجال الدين(١) ، والحكام المتدينين ، واتهامهم بالعمالة والصهيونية .

٣— تعميم دراسة الاشتراكية فى جميع المعاهد والكليات والمدارس فى جميع المراحل .. ومزاحمة الإسلام ومحاصرته حتى لا يصبح قوة تهدد الاشتراكية » .

وتقول الوثيقة فى فقرة ٦ :

« الحيلولة دون قيام حركات دينية فى البلاد مهما كان شأنها ضعيفاً ، والعمل الدائم بيقظة لمحو أى انبعاث دينى ، والضرب بعنف لا رحمة فيه على يد كل من يدعو إلى الدين ولو أدى إلى الموت .

٧— ومع هذا لا يغيب عنا أن للدين دوره الخطير فى بناء المجتمعات ولذا وجب أن نحاصره من كل الجهات فى كل مكان ، وإلصاق التهم به ، وتنفير الناس منه بالأسلوب الذى لا ينم عن معاداة الإسلام .

---

(١) لا يوجد فى الإسلام — رجال دين — بالمعنى الذى يوجد عند غيره من الأديان بأن يسيطر قوم على عقول ، وأفكار ، وأموال الكثير من الناس الذين يوهمونهم بأنهم وسطاء بينهم وبين الله ، ويعطونهم — نظير مقابل — صكوكا بغفران ذنوبهم وعليهم أن يعترفوا أمامهم على انفراد — رجالا كانوا أم نساء — بما ارتكبوه من حرام . لكن يوجد فيه علماء متخصصون فى جوانب دينية . ولا دخل لهم فى علاقة الإنسان بربه ، ولا واسطة لأحد بين الله وعباده قال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » — الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

٨— تشجيع الكتاب الملحدين وإعطاؤهم الإمكانات كلها فى مهاجمة الدين والشعور الدينى ، والضمير الدينى ، والعبقرية الدينية ، والتركيز فى الأذهان أن الإسلام انتهى عصره ، ولم يبق منه اليوم إلا العبادات الشكلية التى هى الصوم ، والصلاة ، والحج وعقود الزواج والطلاق وستخضع هذه العقود للنظم الاشتراكية .

٩— قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعاً تاماً ، وإحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الإسلامية التى هى أكبر خطر على اشتراكيتنا العلميـــة .

١٠— إن قصم روابط الدين ، ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد والكنائس ، لأن الدين يكمن فى الضمير ، والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية ، والمطلوب هو هدم الضمير الدينى ، ولم يصبح صعباً هدم الدين فى ضمير المؤمنين به بعد أن نجحنا فى جعل السيطرة والحكم والسيادة للإشتراكية . . ، ونجحت فى تعميم ما يهدم الدين من القصص والمسرحيات والمحاضرات والصحف والأخبار والمؤلفات التى تروج للإلحاد وتدعو إليه وتهزأ بالدين ورجاله ، وتدعو للعلم وحده وتجعله الإله المسيطر » .

وتقول الوثيقة فى فقرة ١٢ :

« خداع الجماهير بأن نزعم لهم أن المسيح اشتراكى وإمام الاشتراكية فهو فقير ، ومن أسرة فقيرة ، وأتباعه فقراء كادحون ، ودعا إلى محاربة الأغنياء .

وتقول عن محمد: إنه إمام الاشتراكيين، فهو فقيروتبعه فقراء، وحارب الأغنياء المحتكرين ، والاقطاعيين ، والمرابين ، وثار عليهم . وعلى هـــذا النحو يجب أن نصور الأنبياء والرسل ونبعد القداسات الروحية والوحى والمعجزات عنهم بقدر الإمكان لنجعلهم بشراً عاديين حتى يسهل علينا القضاء

على الحالة التى أوجدوها لأنفسهم ، وأوجدها لهم أتباعهم المهوسون »[١] .

وتقول الوثيقة فى فقرة ١٨ :

« نشر الأفكار الإلحـــادية ، بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الدينى والعقيدة الدينية وتزعزع الثقة فى رجال الدين فى كل قطر إسلامى » .

١٩ — « لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين، ولا بأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية للتضليل والخداع، على ألا يطول زمن ذلك ، لأن القوى الثورية يجب ألا تظهر غير ما تبطن إلا بقدر، ويجب أن نختصر الوقت والطريق ، لتضرب ضربتها ، فالثورة قبل كل شىء هدم للقديم ، والمواريث الدينية جميعها » .

وتقول الوثيقة فى فقرة ٢١ :

« تسمية الإسلام الذى تؤيده الإشتراكية/لبلوغ مآربها وتحقيق غاياتها/ بالدين الصحيح ، والدين الثورى ، والدين المتطور ، ودين المستقبل ، حتى يتم تجريد الإسلام الذى جاء به محمد من خصائصه ومعالمه ، والاحتفاظ منه بالاسم فقط لأن العرب — إلا القليل — مسلمون بطبيعتهم فليكونوا الآن مسلمين إسماً ، إشتراكيين فعلا ، حتى يذوب الإسلام لفظاً كما ذاب معنى»

---

(١) لان الرسل لم يضفوا على أنفسهم هالة كما يدعى الحاقدون ، ولم يصنع لهم أتباعهم أكثر مما يستحقون . فالله قد صنعهم على عينه ، واختصهم بوحيه وأيدهم بالمعجزات من قبله ، واصطفاهم لرسالته من بين خلقه قال تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير » الحج ٧٥ .

ولن يستطيع أعداؤهم أن ينقصوهم شيئا من قدرهم لأن الله / لا محالة / ناصرهم والمؤمنين فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » غافر ٥١ .

وتفصح الوثيقة عن أسرار رهيبة فتقول :

« وفى المحيط العربى كله يعمل أنصارنا بجد وقد إستطاعوا أن يثبوا إلى المناصب الرئيسية فى الوزارات ، والإدارات الحكومية ، والشركات ، والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، ووفقوا حسب تعليماتنا للسيطرة التى ـ وإن كانت فردية ـ إلا أن توفيقهم للوصول إلى تلك المناصب يعد من الأعمال الناجحة ، كما أن لقاء الأفراد بعضهم مع بعض يحمل اللقاءات فى صورة اللقاء الجماعى ، ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتولون المناصب ذات الأثر الفعال فى خلق الجو الصالح للتحرك الثورى ، وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزراء والمسئولين الذين لا يشك فى إخلاصهم للنظام الرجعى الحاكم المعادى للإشتراكية واجهة يقفون وراءها ويعملون تحت ستارها ما يريدون فى أمن وطمأنينة مع اليقظة والحذر دون أن تحوم حولهم الشكوك لأنهم يتسترون بأولئك المسئولين »(١) .

ولا تقل مخططات الصهيونيه الماكرة ، والصليبية الحاقدة عن تلك المخططات الشيوعية المدمرة للمبادىء الإنسانية، والإتجاهات الدينية . ومن جملة ما تقوم به الصهيونية . إفساد عقائد الأمم وتحطيم مفاهيمها وأخلاقها ونظمها وإبعادها عن صراط الله ومكايدهم للرسول صلى الله عليه وسلم ولصحابته وللمسلمين من بعدهم غير خافية على أحد ولا حصر لها .

ومما جاء فى « بروتوكولاتهم » ما يلى : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا ، إن ـ فرويد ـ منا وسيظل يعرض العلاقات

---

(١) من الصفحات ٧٩٢ : ٧٩٨ باختصار بعض الفقرات .

الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار أخلاقه »(١)

ونأخذ من المخططات الصليبية ما يلى : « يقول ـ صموئيل زويمر ـ رئيس جمعيات التبشير فى مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥ م : « إن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، فإن فى هذا هداية لهم وتكريماً .

إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالى لا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الإستعمارى فى الممالك الإسلامية لقد هيأتم جميع العقول فى الممالك الإسلامية لقبول السير فى الطريق الذى سعيتم له ، ألا وهو إخراج المسلم من الإسلام .

إنكم أعددتم نشأ فى ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقاً لما أراد له الإستعمار ، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ، ولا يصرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات ، إنه يجود بكل شىء للوصول إلى الشهوات(٢) . . .

---

(١) نفس المرجع ص ٨١٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٠١ وما بعدها .

ولا يقل خطر الإستشراق والتبشير والإستعمار عن هذه المكائد. من ذلك ما قاله - راندولف تشرشل - عام ١٩٦٧ م بعد سقوط القدس: « لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم اليهود والمسيحيين على السواء ؛ إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود ، إن القدس قد خرجت من أيدى المسلمين وقد أصدر الكنيست اليهودى ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية ولن تعود إلى المسلمين فى أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود »(١) . ويقول المبشر الصليبي - وليم جيفورد بالكراف - « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه »(٢) .

ويقول — غلادستون— فى مجلس العموم البريطانى وقد رفع المصحف أمام المجتمعين « مادام هذا القرآن موجوداً فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هى نفسها فى أمان »(٣)

« وبإنهاء الخلافة الإسلامية المتمثلة فى الدولة العثمانية إنتهزت إنجلترا ، واليونان ، وإيطاليا ، وفرنسا فرصة ضعف الدولة العثمانية وتخلخها وخلافاتها بين بعضها فانقضت كالذئب الكاسر بجيوشها الضخمة الكثيرة ، وسيطرت على جميع أراضيها ، ومنها العاصمة — إستانبول — ولما ابتدأت مفاوضات مؤتمر لوزان لعقد صلح بين المتحاربين إشترطت إنجلترا على

---

(١) نفس المرجع ص ٨١٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٠٠ نقلا عن كتاب جذور البلاء ص ٢٠١ .

(٣) نفس المرجع والصفحة نقلا عن كتاب الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٩ .

خائن تركيا الأكبر — مصطفى كمال أتاتورك — أنها لن تنسحب من أراضى تركيا إلا بعد تنفيذ الشروط التالية :

(أ) إلغاء الخلافة الإسلامية ، وطرد الخليفة التركى من تركيا ، ومصادرة أمواله .

(ب) أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

(ج) أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

(د) أن تختار لها دستوراً مدنياً بدلا من دستورها الذى هو مستمد من أحكام الإسلام .

فضلا عن إلغاء المحاكم الشرعية والمدارس الدينية ، والأوقاف وأحكام الميراث وجعل الأذان باللغة التركية ، وإستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، وعطلة يوم الجمعة تكون فى يوم الأحد وتم ذلك كله عام ١٩٢٨ م .

ولما نفذ الخائن — أتاتورك — هذه الشروط إعترف الإنجليز والحلفاء بإستقلال تركيا ، وباركوا جهود أتاتورك فى إلغاء الخلافة ، ومحاربة الإسلام ، وجعل الدولة علمانية(١) .

---

(١) كلمة العلمانية لاصلة لها بلفظ العلم ومشتقاته على الإطلاق والترجمة الصحيحة لتلك الكلمة هى : (اللادينية) ، أو (الدنيوية) لا بمعنى ما يقابل الحياة الأخروية فحسب ، بل بمعنى أخص وهو : مالا صلة له بالدين ، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد . ومن أراد مزيد تفصيل فعليه بكتاب — العلمانية . نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة لمؤلفه سفر بن عبد الرحمن الحوالى ص ٢١ .

ولما وقف — كرزون — وزير خارجية إنجلترا فى مجلس العموم البريطانى يستعرض ما جرى مع تركيا ويؤكد إعتراف بلاده باستقلالها احتج بعض النواب الإنجليز بعنف على — كرزون —، وإستغربوا كيف إعترفت إنجلترا باستقلال تركيا التى يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية وتهجم على الغرب. فأجاب كرزون « لقد قضينا على تركيا ولن تقوم لها قائمة بعد اليوم.. لأننا قضينا على قوتها المتمثلة فى أمرين : الإسلام ، والخلافة. » فصفق النواب الإنجليز كلهم وسكتت المعارضة »(١) .

والاستشراق لا يقل خطراً عن الإستعمار والتبشير ومن بعض أخطاره وكيده الإسلام وأهله ما ذكره الشيخ الميدانى إذ يقول : « أخذ فريق من المستشرقين يؤلف المؤلفات المتعلقة بالعلوم الإسلامية لخدمة أهداف الاستشراق الأساسية ، الرامية إلى تشويه الإسلام ، وتشويه التاريخ الإسلامى ، ووضع الشبهات وتصيد الأدلة لها. وتوجيه الإنتقادات الملفقة إلى أحكام الإسلام وشرائعه ، وتتبع الأخبار الساقطة ، والأقوال الضعيفة المردودة ، وتفسير الظواهر تفسيراً مادياً بحسب ما يروق لهم ، وشرح النصوص القرآنية على أساس أن القرآن ليس من كلام الله ، وليس كتاباً منزلا ، وشرح الأحاديث النبوية على أساس أن محمداً عبقرى من الناس وليس برسول كسائر الرسل ، وتعليل الفتح الإسلامى بالرغبات الشخصية المماثلة للرغبات التى توجد عند الإستعماريين ، وإبعاد كل دافع دينى إسلامى

---

(١) نفس المرجع ص ٧٩٩ ببعض تصرف . نقلا عن كتاب الأرض والشعب ص ٤٦ ج ١ . وكتاب كيف هدمت الخلافة ص ١٩٠ .

عن كل حدث تاريخى للمسلمين . ومحاولات التحريف فى النصوص عند الإستشهاد بها ، واللجوء إلى المغالطات الكثيرة لدى مناقشة الموضوعات الإسلامية ، وتعمد إبراز سقطات الفساق من المسلمين مدى تاريخهم الطويل ، والتشكيك بصحة الأحاديث الصحيحة المروية . بتوجيه المطاعن إلى رواة الحديث ، ولو كانوا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم والتشكيك بالقرآن الكريم ، بتوجيه المطاعن المفتراة إلى فعله وتدوينه والقراءات الثابتة فيه ، وإلى مضامينه وبتوجيه المطاعن إلى ظاهرة الوحى التى تلقى بها الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب ربه ، إلى غير ذلك من أمور لا تحصى ، وأساسها جميعاً الرغبة بإبطال الحق تعصباً وإتباعاً للهوى »(١) وستبوء كل محاولتهم لطمس معالم الإسلام والتشكيك فيه بالفشل والخسران لأنه الدين الخاتم الذى جعله الله نوراً يضىء به جوانب الإنسانية وأرجاء الوجود « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ، ولو كره الكافرون »(٢) .

وهو الدين الذى استهدف إقامة حياة إنسانية رفيعة يتحرر فيها العقل والضمير ، وتستقل فيها الإرادة والتفكير ، ويشعر فيها كل فرد بأنه سيد نفسه ، ومالك أمره ، وأنه لا سلطان لأحد عليه سوى سلطان الحق الذى يعلو ، ولا يعلى عليه . وهو الذى أهاب بالناس أن يفتحوا عقولهم ليعرفوا آيات الله فى الكون وسننه فى الخلق ، وحكمته فى الطبيعة : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء »(٣) . وتعطيل

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ص ٨٤ ، ٨٥ طبعة ثالثة .

(٢) الآية الثامنة من سورة الصف .

(٣) من الآية ١٨٥ من سورة الأعراف .

قوى الإدراك ، وعدم الإنتفاع بها يعتبر فى نظره جريمة ، يسأل عنها الإنسان ، ويحاسب عليها الحساب العسير : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »(١) .

والإسلام بعقيدته وعبادته ومثله وقيمه ومبادئه قد بعث الحياة فى العواطف الخامدة ، واليقظة فى القلوب الهامدة ؛ وحرك حواس الخير فى الإنسان لتتسع نفسه للعلاقات الحسنة والصداقات الطيبة ، والمعاشرة بالمعروف ، وإنه إلى جانب هذا حارب الظلم ، والبغى حتى لا تهدر كرامة أحد ولا تنتهك حرمة إنسان ، ولا يشعر ضعيف بهوان ، ولا يحس فقير بضياع ، ولا يؤخذ مال بغير حق ، وأنه أراد أن يقيم أطهر حياة وأنظفها على وجه الأرض حياة لا شرك فيها ولا وثنية ولا نكران للإله ، بل فيها التوحيد الخالص والعبادة لله الذى تعنو له(٢) الوجوه حياة لا ظلم فيها ولا إستبداد بل فيها حق وعدالة وحرية وإخاء . حياة لا جهل فيها ولا أمية بل فيها علم ومعرفة وحكمة ، حياة لا رفث(٣) فيها ولا فسوق . حياة لا حسد فيها ولا حقد بل فيها محبة وتعاون ، وتآزر وتناصر ، حياة لا سرف فيها ولا ترف بل فيها بذل وكرم وإيثار ، حياة لا خمر فيها ولا قمار ، بل فيها كدح وعمل وطلب لما أحل الله .

والإسلام استهدف تهذيب الفرد . وتعاون الجماعة وإيجاد حكم أساسه

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة الإسراء .

(٢) تعنوله الوجوه أى تخضع .

(٣) الرفث : الفحش فى القول . والفسوق فى أصل اللغة والخروج يقال : فسق عن أمر ربه أى خرج عنه .

الشورى، وغايته حراسة الدين، وسياسة الدنيا وجعل فى طليعة وظيفته الدعوة إلى الهداية لهذا الدين لتعم الأخوة الإنسانية مما يعجل بسلام عام يعيش الناس فى ظله آمنين، هذا هو الإسلام الذى تهفو إليه القلوب فى عصر العلم والاكتشاف الذرى .. ولقد استيقظت أوروبا وأمريكا فنادت معظم الآراء فيهما بوجوب العودة إلى الدين لأن التطور المادى الذى لم يصحبه سند من روح، تطور خطير، لا غاية له إلا الخراب والدمار، ولأن النفوس قد أفسدها الطمع والجشع والشرة والأنانية، وهم أحوج ما يكونون إلى إصلاح هذه النفوس وعلاجها ليسود المجتمع المودة والرحمة والمعاونة والإيثار والسماحة الطيبة.

وهذه الفضائل لامصدر لها إلا الدين والإيمان، وليس من دين سوى دين الإسلام يستطيع تقديم هذه الفضائل الإنسانية وليس هذا هو رأينا الخاص وإنما هو رأى علماء الغرب الذين درسوا الإسلام ووقفوا على حقائقه.

يقول – جولدزيهر –: إنه إذا أردنا الإنصاف ينبغى أن نؤمن بأن فى منهج الإسلام قوة صالحة توجه الإنسان نحو الخير، وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية حياة أخلاقية لا غبار عليها ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله، والوفاء بالعهود والمحبة، والإخلاص، وكف غرائز الأنانية، والمسلم الصالح هو الذى يحيا حياة يحقق فيها مطالب خلقية قاسية(١)».

---

(١) من كتاب إسلامنا الشيخ سيد سابق ص ٦٧ .

والإسلام — وإن كان قوياً بنفسه لأنه الحق — إلا أنه فى حاجة إلى رجال يوضحون حقائقه ، ويظهرون معالمه ، ويضحون من أجله ، وإن أى جهد يبذل من أجل الإسلام لهو خدمة للإنسانية نفسها ، وهى أحوج ما تكون إليه . لذا كان لزاماً على الأمة الإسلامية أن تتبنى الاضطلاع بهذا العبء لأن جهد الأفراد أضعف من أن يحتمل النهوض بهذا الأمر الكبير وعليها أن تتمثل هذا الدين علماً وعملا ، وأن تكون صورة صادقة لمبادئه وتعاليمه كما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وبعرض الإسلام فى صورته الصحيحة ، وفى حالته العلمية التطبيقية نكون قد أقمنا الدعوة الإسلامية على أساس متين . بينما يكون علمنا وعملنا أقوى حجة : وأوضح برهاناً فى الاقناع والاستدلال وإفحام من يتصدى لنا من الخصوم والمعارضين . من شيوعيين وصهاينة ومستشرقين ومبشرين وإستعماريين وغيرهم ممن ناصبونا العداء لا لجريمة فعلناها . ولكن لأننا آمنا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ولأننا اعتقدنا بأن الله الذى أفردناه بالعبادة هو وحده الخالق، الرازق، المحيي ، المميت ، النافع ، الضار ، المبدىء ، المعيد الذى تفرد بصفات الكمال . ولأننا دنا بالإسلام الذى ارتضاه الله لنا شرعة ومنهاجاً . وعلينا أن نلزم جانبه وتلازم العمل بما جاء فيه عن الله ورسوله. وإن هذا لهو جهاد الوقت ولا يقل فى قيمته عن جهاد الحرب والقتال .

وإذا كانت الرسالات الإلهية ، وفى مقدمتها الدين الإسلامى الحنيف ـ هى الأساس لحياة إنسانية كريمة ، وبدونها لا حياة، ولا إنسانية ولا كرامة فإنه يتعين على كل ذى عقل رشيد ، ورأى سديد أن يتجه كليــة إلى الدين

يسترشده ويحصن به عقله ، وفكره ، ويأخذ منه علاج أدوائه(١) ويطلب منه زاده لحياة دنيوية راقية ، وحياة أخروية باقية زاخرة بالنعيم المقيم الذى لا يقل ولا يفنى .

وحتى ينجلى معالم الدين أمام كل راغب فى المعرفة ، وباحث عن الحقيقة كان لزاماً أن نبين معنى كلمتى ـ الدين ـ و ـ الإسلام ـ فى صورتيهما العامة والخاصة ليتضح الصبح لذى عينين ، وليظهر من تحت الرغوة اللبن الفصيح ، وليسرع طالبوا النجاة إلى اللجوء للدين الإسلامى الخاتم الذى يخاطب الفطرة والعقل ، ويدعو إلى العبودية لله وحده ، وينادى بالحرية والتقدم والرقى ، ويبغى الخير ، ويرشد إلى السعادة لكل البشرية فى جميع أطوارها ومستوياتها .

---

(١) أدواؤه : أمراضه .

معنى كلمة الدين

جاءت كلمة الدين فى اللغة العربية الغدة معان . منها : الجزاء على الأعمال والحساب بها كما قال تعالى : « مالك يوم الدين »(١) أى مالك يوم الجزاء والحساب ، وفى الحديث : « الكيس من دان نفسه . . . » أى حاسب نفسه « وعمل لما بعد الموت » ومنه الديان فى صفة الله تعالى ، أى المجازى والدين أيضاً : الطاعة والانقياد تقول : دان فلان لغيره يدين له دينا أى أطاعه . وهو كذلك الشرعة والمنهاج قال تعالى : « ورضيت لكم الإسلام ديناً »(٢) أى شرعة ومنهاجاً .

والجمع الأديان ، والمتدين هو المطيع لربه المقر بالجزاء والحساب والمعاد . وقال ثعلب : دان الرجل : إذا أطاع ، دان إذا عصى ودان إذا عز ، ودان إذا ذل فهو من الأضداد ، كما يطلق الدين على العادة ، والشأن ، وسيرة الملك ، وغير ذلك(٣) .

ولكثرة معانى كلمة الدين . قال عنها الدكتور — محمد عبد الله دراز — فى كتابه (الدين) : « فالذى يرجع فيها إلى القاموس المحيط ، أو إلى لسان العرب ، أو غيرهما يضل فى بيداء ، ويخيل إليه أن هذه الكلمة الواحدة

---

(١) الآية الرابعة من سورة الفاتحة .

(٢) من الآية الثالثة من سورة المائدة .

(٣) القاموس المحيط ج ٤ ص ٢٢٥ ، وتفسير القرطبى ج ٢ ص ١٣٥ طبعة الشعب ومختار الصباح ص ٢١٨ .

يصح أن تستعمل فيما شئت من المعانى المتباعدة ، بل المتناقضة فالدين هو الملك ، وهو الخدمة ، — هو العز ، وهو الذل ، — هو الإكراه ، وهو الإحسان ، هو العادة ، وهو العبادة . هو القهر والسلطان ، وهو التذلل والخضوع . — هو الطاعة ، وهو المعصية ، هو الإسلام والتوحيد ، وهو إسم لكل ما يعتقد أو لكل ما يتعبد الله به . . . إلخ »(١)

وذهب علماء الأديان مذاهب شتى فى تعريف الدين تعريفاً إصطلاحياً حيث إتخذ كل منهم فى تعريف الدين مذهباً يتفق مع تصوره له ، وأبعاده فى نفسه ، وفى المجتمع ، كما يتفق مع المصدر الذى استقى منه الدين .

ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « والواقع أننا إذا نظرنا فى إشتقاق هذه الكلمة . ووجوه تصريفها نرى من وراء هذا الإختلاف الظاهر تقارباً شديداً ، بل صلة تامة فى جوهر المعنى إذ نجد أن هذه المعانى الكثيرة تعود فى نهاية الأمر إلى ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة ، بل نجد أن التفاوت اليسير بين هذه المعانى الثلاثة مردة فى الحقيقة إلى أن الكلمة التى يراد شرحها ليست كلمة واحدة ، بل ثلاث كلمات ، أو بعبارة أدق أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب .

وبيانه أن كلمة (الدين) تؤخذ من فعل متعد بنفسه : (دانه يدينه) ، وتارة من فعل متعد باللام : (دان له) وتارة من فعل متعد بالباء : (دان به) . وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التى تعطيها الصيغة .

١ — فإذا قلنا : (دانه ديناً) عنينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه وساسه ،

---

(١) ص ٢٥ .

ودبره ، وقهره ، وحاسبه ، وقضى فى شأنه وجازاه ، وكافأه ، فالدين فى هذا الإستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بمـا هو من شأن الملوك من السياسة ، والتدبير ، والحكم والقهر ، والمحاسبة والمجازاة ومن ذلك : « مالك يوم الدين » أى يوم المحاسبة والجزاء ، وفى الحديث : « الكيس من دان نفسه » أى حكمها وضبطها ، و « الديان » الحكم القاضى .

٢ — وإذا قلنا : « دان له » أردنا أنه أطاعه ، وخضع له فالدين هنا هو الخضوع والطاعة ، والعبادة ، والورع ، وكلمة (الدين لله) يصح أن يفهم منها كلا المعنيين ، الحكم لله ، أو الخضوع لله .

وواضح أن هذا المعنى الثانى ملازم للأول ومطاوع له : (دانه فدان له) أى قهره على الطاعة فخضع وأطاع .

٣ — وإذا قلنا : « دان بالشيء » كان معناه أنه إتخذه ديناً ومذهباً أى إعتقده أو إعتاده ، أو تخلق به . فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التى يسير عليها المـــرء نظرياً أو عملياً . فالمذهب العملى لكل امرىء هو عادته وسيرته كما يقال : « هذا دينى وديدنى » . والمذهب النظرى عنده هو عقيدته ورأيه الذى يعتنقه ، ومن ذلك قولهم : « دينت الرجل » أى وكلته إلى دينه ولم أعترض عليه فيما يراه سائغاً فى إعتقاده .

ولا يخفى أن هذا الإستعمال الثالث تابع أيضاً للإستعمالين قبله ، لأن العادة ، أو العقيدة التى يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم إتباعها .

وجملة القول فى هذه المعانى اللغوية أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له ، فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وإنقياداً ، وإذا وصف بها الطرف الثانى كانت أمراً وسلطاناً ، وحكما وإلزاماً ، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هى الدستور المنظم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذى يعبر عنها . فالمادة كلها تدور على معنى لزوم الإنقياد ، فإن الإستعمال الأول « الدين هو إلزام الإنقياد ، وفى الإستعمال الثانى هو : إلتزام الإنقياد ، وفى الإستعمال الثالث هو : المبدأ الذى يلتزم الانقياد له ولايخفى من جهة أخرى ، أن معنى اللزوم هذا هو المحور الذى تدور عليه كلمة الدين بفتح الدال ، والفرق بين الدين بالفتح ، والدين بالكسر هو أن أحدهما يتضمن فى الأصل إلزاماً مالياً ، والآخر يقتضى إلزاماً أدبياً(١) ، ونحن نعرف من سنن اللغة العربية فى تصاريفها أنها حين تريد التفرقة بين الحسيات والمعنويات من جنس واحد قد تكتفى بتغيير يسير فى شكل الكلمة مع إبقاء مادتها كما هى مثل : « العوج بفتح العين ، والعوج بكسرها » و « الخلق بفتح الخاء ، والخلق — بضمها » « والرؤية — والرؤيا » و « الكبر — بفتح الباء — والكبر بسكونها » .

وهكذا يظهر لنا جلياً أن هذه المادة بكل معانيها أصيلة فى اللغة العربية ، وأن ماظنه بعض المستشرقين من أنها دخيلة معربة عن العبرية أو الفارسية فى كل إستعمالاتها أو فى أكثرها — بعيد كل البعد ، ولعلها نزعة شعوبية

(١) لو قال : التزاما عقديا أو خلقيا لكان خيرا من قوله : التزاما أدبيا .

تريد تجريد العرب من كل فضيلة ، حتى فضيلة البيان التى هى أعز مفاخرهم »(١).

وبعد أن إستعرض الدكتور دراز فى كتابه « الدين » عدة تعريفات لمشاهير من مؤرخى الأديان ، وبعد حكايته لهذه التعاريف ونقده لها ، وبيان عدم وفاء كل تعريف منها على حدة بعناصر الدين . خلص إلى التعريف المختار فى رأيه ، والذى يجمع هذه العناصر وهو : « الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات — غيبية — علوية — لها شعور وإختيار ، ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الانسان ويكون إعتقاداً من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات الالهية السامية فى رغبة ورهبة وفى خضوع وتمجيد » وبعبارة موجزة هو : « الايمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة » هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية . . بمعنى التدين .

أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة . . فنقول : « هو جملة النواميس(٢) النظرية التى تحدد صفات القوة الالهية ، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها »(٣) .

وقوله : ذات أو ذوات يجعل هذا التعريف يتناول الدين الالهى الصحيح وغيره من الأديان الفاسدة . أما الدين الالهى الذى أرسل ربنا به

---

(١) من كتاب الدين من ص ٢٥ الى ٢٨ ببعض إختصار .

(٢) النواميس جمع الناموس ومن معانيه أنه صاحب سر الخير ويراد به أيضا جبريل عليه السلام . والمقصود به هنا جملة التعاليم الإلهية التى تأتى الى الرسل من قبل الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام . وهى مايعرف بالوحى . أنظر القاموس المحيط ج ٢ ص ٢٠٦

(٣) ص ٤٩ والتى بعدها .

الرسل . فهو الوضع الالهى الذى إختاره الله لعباده ليصلحهم وعلى ذلك فالتعريف الذى يخص الدين الالهى دون غيره هو : «الاعتقاد بوجود ذات إلهية غيبية علوية لها شعور وإختيار ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الانسان . وهذا الاعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات الالهية السامية فى رغبة ورهبة وفى خضوع وتمجيد» . أو هو «الايمان بذات إلهية . جديرة بالطاعة والعبادة» وهو التعريف الموجز الذى أتى به الدكتور / دراز فى كتابه «الدين» وذكرناه هنا سابقاً .

والبشر قديماً وحديثاً إبتعد منهم أناس عن الفطرة ، وأعلنوا التمرد على أن يدينوا لخالقهم وحده أو رفضوا التدين أصلا إما لأمر خارج عنهم ، أو لنقص يعانون منه فى إرضاء تزكية نفوسهم من هنا تشعبت الأهواء وتعددت لتشعبها الآلهة والأرباب . وعلماء المقابلة بين الأديان يعرفون ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى إعتقادها بالآلهة والأرباب وهى كما بينها الأستاذ / عباس محمود العقـــاد فى كتابه «الله» مبينة كما يلى :

أولا : دور التعدد .

ثانياً : دور التميز والترجيح .

ثالثاً . دور الوحدانية .

فى دور التعدد : كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور ، وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى، وهو دور التميز والترجيح: تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذرب منها فى البروز والرجحان على سائرها إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش وإما لأنه يحقق للعباد جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة.

وفى دور الوحدانية ـ وهو الدور الثالث: تتوحد الأمة فتجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة، ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها، كما تفرض عليها سيادة تاجها، وصاحب عرشها.

والرأى الراجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد بالثنائية يأتى أحياناً كثيرة بعد الاعتقاد بالوحدانية على الصورة التى أجملناها وهى: الوحدانية الناقصة التى تأذن بوجود الأرباب معها، أو بتنازع الوحدانية بين إله دولة وإله دولة أخرى.

وهم يعللون ظهور الثنائية بعد هذه الوحدانية الناقصة بأن الإنسان يترقى فى هذا الطور فيحاول تفسير الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير فيكون للشر إله وللخير إله، ولا يكون هذا من قبيل النكسة فى عقيدته لأن الوحدة عنده ناقصة فلا مانع عنده معها من تعدد الأرباب، ولا مانع من التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها.

ويؤكد علماء مقابلة الأديان على أن وحدة الوجود تأتى بعد جميع هذه الأطوار توفيقاً بين النقائض والضروريات، وإثباتاً لوجود الله عن طريق

الثبوت الذى لاشك فيه وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان.

ولم تكن أرباب الأمم الماضية فى جميع أطوارها نوعاً واحداً أو مثلاً لفكرة واحدة ، ولكنها أنواع شتى يمكن أن نجمعها فى الأنواع التالية :

أولا : الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد ، والبرق والمطر ، والفجر ، والظلام ، والينابيع ، والبحار ، والشمس ، والقمر ، والسماء ، والربيع .

ثانياً : الأرباب التى تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات .

ثالثاً : أرباب الأسرة وهم الأسلاف الغابرون يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهورة - كما يحيى الناس ذكرى الموتى فى هذا الزمان - ويزودونهم بالأقوات والألطاف(١) . ولكن مع هذا الفارق البين وهو أن الرجل الهمجى لا يمنعه مانع أن يجعل الذكرى عبادة ، وأن يجعل هدايا القبر فى حكم الضحايا والقرابين .

رابعاً : أرباب المعانى ، كرب العشق ، ورب الحرب ، ورب الصيد ، ورب العدل ، ورب الإحسان ، ورب السلام .

خامساً : أرباب البيت ، كرب الموقد ، ورب البئر ، ورب الجرن ، ورب الطعام .

---

(١) الألطاف هى : الهدايا .

سادساً : أرباب النسل والخصب وهى على الأغلب الأعم فى صورة الإناث ويسمونها بالأمهات الخالدات وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة .

سابعاً : آلهة الخلق التى ينسب إليها خلق السماء والأرض ، والإنسان ، والحيوان .

ثامناً : الآلهة العليا التى تدين عبادها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق ، وتضمن السعادة الأبدية فى عالم البقاء .

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هى أرقى مابلغته الإنسانية فى أطوارها المتوالية . واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الأكوان ، والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس .

ثم يقول :

غير أنه قد وجدت قبائل إفريقية(١) لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر . تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى ـ أبا الآباء وقبائل أخرى من إفريقيا أيضاً(٢) من جملة معبوداتهم نوع مفرد ولا جمع له ، وليس من الأطياف(٣) ، ولا من الأرواح المتعددة

---

(١) هى قبائل الهوتنتوت ،

(٢) هى قبائل البانتو .

(٣) والمعبودات عندهم ثلاثة : آخرها هذا المفرد ، وأولها نوع بمثابة الأطياف الإنسانية الراحلة وهو الذى يسمونه ـ ميزيمو ـ ونوع وسط هو أرواح لم تسكن قط فى أجساد البشر وهو الذى يسمونه ـ بيبو ـ ويزعمونه قابلا للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء .

ويسمونه ـ مولتجو ـ لايمثلونه فى وثن ، ولا تعويذة ، ولا يفلح فيه سحر الساحر ، ولا حيلة العراف . وفى يديه الحياة والسطوة ، ووسائل النجاح فى الأعمال، ويصفونه بأعلى مافى وسعهم من صفات التجريد، والتفرد، والكمال». ا . ه . كلام العقاد .

وما أكثر الماديين الذين يجحدون آيات الله وينكرون وجوده ـ ويقولون ـ كاذبين : « إن أساس عقيدة الألوهية نوع من الضعف الإنسانى استحوذ على الإنسان الأول حين رأى نفسه وحيداً فى مجاهل هذه الأرض هائماً على وجهه بين المغاور والكهوف . يخشى على نفسه الحيوانات المفترسة ويجد الوحشة والحيرة أمام حوادث الكون الغريبة على سمعه وبصره ، ويتلمس الفائدة وسد حاجاته الطبيعية من طعام وشراب ودفء أينما وجد إليها سبيلا ، ويستشعر الراحة واللذة أحياناً فى ضروب من الأعمال أو المشاهدات كما يجد الألم والعناد فى أعمال ومشاهدات أخرى . كل ذلك دفع به إلى أن يجد الرهبة لما هو أقوى منه، والرغبة فيما يفيده وينفعه ، والإعجاب بما يسره ويطمئنه فخضع لهذه المعانى جميعاً ، وظهر هذا الخضوع فى صورة عبودية وتأليه ، فعبد وإله صنوفاً من الحيوان والنبات ، وعبد وإله من هو أقوى منه من بنى الإنسان وعبد وإله الشمس والقمر والنجوم والكواكب وصنع التماثيل والرموز ، واخترع الصور والطقوس ليعبر بها عن هذه المشاعر وعبد وإله النار والنور والخير والشر ، وأقام لذلك كله المعابد وجاء الرسل فاستغلوا فى الإنسان هذا الشعور ووضعوا له هذه العقيدة فى الله ، وما هى إلا عقيدة وهمية لا وجود لها ، ولا حقيقة، وإنما يؤمن بها السذج البسطاء الذين ينخدعون بالظنون ، وتروج عندهم الأوهام . أما الراسخون

فى العلم – فى عرفهم – القائمون على دولة المنطق والفكر المستنيرون بثمرات البحث العقلى فهؤلاء لايقيمون وزناً لهذه الآراء وخصوصاً أن أحداً من الناس لم ير الإله بعينه ، ولم يدركه بإحدى حواسه ، والحواس هى وسائل المعرفة والإدراك الذى لاشك فيه ، ويقولون : إن لهذه العقيدة أثرها السيء فى المجتمعات ، فإنها تعلم الناس الكسل ، والتواكل ، والرضا بالظلم والصبر على الضيم وتخدعهم عن حقهم فى الحياة بما تطبعهم عليه من الضعف والإستسلام وترقب حكم القضاء ، والاعتماد على القدر . ولهذا أطلق بعض فلاسفة هذه الفكرة المادية الصرفة على العقائد والأديان – مخدر الشعوب – وجعلوا فى رأس مناهجهم الإصلاحية الاجتماعية ، أن يحاربوا الدين ، وأن ينزعوا عقائده من صدور أهله بكل سبيل » .

وهذا ادعاء باطل ، وافتراء على الدين وأهله لأن طبيعة الإنسان لم تكن هى المادة وحدها ، بل هى قوى وملكات وعواطف وأنه لذلك له مطالب مادية تتمثل فى الحاجات الأساسية لاستمرار الحياة كالأكل والشرب مثلا ، وله مطالب روحية هو فى أمس الحاجة إليها لكى تستمر حياته متوازنة ، وبدون إرضاء هذه المطالب الروحية فإن الإنسان يظل قلق النفس متوتراً لايطمئن إلى شيء . وعلى رأس المطالب الروحية مطلب الدين .

وكما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه (الله) (١) : ما نصه :

---

(١) الله فى العقيدة الإسلامية للشيخ حسن البنا ص ١٧ وما بعدها ببعض تصرف .

«فني الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام فالروح تجوع كما يجوع الجسد، وإن طلبها لطعامها كطلب الجسد لطعامه.

ومما شجع الجاحدين على هذا الإدعاء الباطل وغيره أنهم وجدوا أرباب الديانة اليهودية والمسيحية قد حرفوا كتبهم المقدسة فغيروا فيها وبدلوا حسب أهوائهم، وعلى مقتضى ميولهم «فاليهود مثلا: حرفوا التوراة ووصفوا الإله بأوصاف تتنافى مع الألوهية فنسبوا إليه ـ عز شأنه ـ أعمال الإنسان وحركاته، وذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة، وأنه يأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال، وأنه يحب ريح الهواء، وأنه يتمشى فى ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها، وأنه أنجب ولداً، وأنه يصارع عباده، ويصارعونه، وأنه يتعب ويستريح ويغار من منافسيه، ويخص الإسرائيليين وحدهم بالبركة والتشريع، ووصفوه أيضاً بأنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وذكروا فى التوراة أيضاً ما يمس شرف الأنبياء ويتنافى مع ما لهم من عصمة ومكانة رفيعة، وخلق متين، فقالوا عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه كذاب، وأن لوطاً ـ عليه السلام ـ زنا بابنتيه، وهارون ـ عليه السلام ـ دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل وقت غيبة موسى ـ عليه السلام ـ وداود عليه السلام ـ زنا بزوجة أوريا ـ قائد جيشه ـ وسليمان ـ عليه السلام ـ عبد الأصنام إرضاء لزوجه.

والنصارى أيضاً: حرفوا الإنجيل الذى نزل على عيسى ـ عليه السلام ـ بل غيروه كله، وما بين أيديهم من أناجيل فهى من تأليفهم وليست مما أنزل

الله على عيسى . ويكفى لصحة التدليل على التحريف فى الأناجيل المتداولة بأيدى النصارى الآن أنها أربعة اختيرت من نحو سبعين إنجيلا ، وهـــذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام ، ومؤلفوها معروفون ، وأسماؤهم مكتوبة عليها . وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هى رأى بولس دون سائر الحواريين ، ودون أقرب الأقربين إلى عيسى ـ عليه السلام .

وقد وجد فى مكتبة أمير من أمراء باريس نسخة من إنجيل « برنابة » وقد طبعته مطبعة المنار العربية وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة .

وكان من نتيجة هذا التحريف والتأليف فى الأناجيل أن ظهرت بدع منها : أن عيسى ابن الله ، أو هو الله ذاته ، ومنها : أن مريم العذراء موصوفة بالألوهية ويعبدونها كأنما هى الله . ويقربون لها أقراصاً مضفورة من الرقاق ومن تلك البدع عقيدة الثالوث المجتمع من الآب ، والابن ، والروح القدس ، ولحواها أن المسيح المخلص هو ابن الله ، وأن الله أرسله فداء لأبناء آدم وحواء ، وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة فى الجنة بعد أن نهاهما الله عن الاقتراب منها(١) » .

وفى هذا المقام يقول الدكتور نظمى لوقا فى ص ٧٠ من كتابه (محمد الرسالة والرسول) : « وإن أنس لا أنس ما ركبنى صغيراً من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى وما سيقت فيه من سياق مروع يقترن بوصف

---

(١) من كتاب العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٧٥ ، ١٦٧ ببعض تصرف .

جهنم ، ذلك الوصف المثير لمخيلة الأطفال ، وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران جزاء وفاقاً على خطيئة آدم بإيعاز من حواء ، وأنه لولا النجاة على يد المسيح الذى فدى البشر بدمه الطهور لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين ، وإن أنس لا أنس القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى على ملايين البشر قبل المسيح . أين هم ؟ . وما ذنبهم حتى يهلكو بغير فرصة للنجاة ؟».

هذه البدع وغيرها فى اليهودية والنصرانية جعلت أصحاب المذاهب المادية والملاحدة يقفون من الدين عامة موقف العداء . ولو نظروا إلى الدين الإسلامى نظرة إنصاف واحدة ، ولو اقتربوا منه بدون حقد وبغير كراهية لعلموا أنه الدين الوحيد الذى مازال وسيظل كما أنزله الله محفوظاً من التحريف والتبديل ولوجدوا فيه الشفاء لكل العلل ، والإجابة الشافية لكل سؤال ، وأنه يهدى للتى هى أقوم .

معنى كلمة الإسلام

وتطلق كلمة إسلام فى اللغة على مطلق الامتثال ، والانقياد ، والخضوع فيقال : أسلم فلان أى : انقاد وخضع ، وامتثل الأوامر ، وصار مسلماً (١).

والإسلام الذى هو الدين الإلهى معناه : الاستسلام لله ، والانقياد له فى أمره ونهيه على لسان الوحى الذى جاء مع كل نبى ورسول أرسله الله لعبـــاده .

والإسلام بهذا المعنى دين المرسلين جميعاً ، والنبيين قاطبة من لدن آدم ـ عليه السلام ـ حتى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى ختم الله برسالته جميع الرسالات ، وقد أكد ربنا ـ سبحانه ـ فى القرآن الكريم هـــذا المعنى تأكيداً تاماً فذكر على لسان نوح ـ عليه السلام ـ قوله : « وأمرت أن أكون من المسلمين »(٢) . وعلى لسان إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما السلام : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »(٣) .

« ويوصى أيضاً إبراهيم / عليه السلام / نبيه بالإسلام ، ويسير على نهجه ابنه يعقوب / عليه السلام / فى تلك الوصية ويحكى القرآن الكريم عنهم ذلك فيقول : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم

---

(١) القاموس المحيط ج ٤ ص ١٣٠ .

(٢) من الآية ٧٢ من سورة يونس .

(٣) من الآية ١٢٨ من سورة البقرة .

الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (١).

ويقص القرآن الكريم كذلك أن يعقوب / عليه السلام / عند موته اطمأن على بنيه بإقرارهم له باتباع الإسلام فقال : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » (٢).

وفى معرض الحديث عن التوراة يقول القرآن الكريم : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » (٣).

ويقول عن يوسف / عليه السلام / : « توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين »(٤).

ويحكى عن سحرة فرعون وقد آمنوا بموسى / عليه السلام / : « ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين »(٥).

ويقول عن ملكة سبأ التى آمنت : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »(٦).

وفى عاد الرجل الصالح يقول : « وأصلح لى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين » (٧).

---

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .
(٣) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .
(٤) من الآية ١٠١ من سورة يوسف .
(٥) من الآية ١٢٦ من سورة الأعراف .
(٦) من الآية ٤٤ من سورة النمل.
(٧) من الآية ١٥ من سورة الأحقاف .

ويثبت القرآن الكريم إقرار الحواريين بقــوله : « وإذ أوحيت إلى الحوارين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون »(١).

ويأمر ربنا سبحانه وتعالى نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) بأن الله يعلن للناس أنه يبغى بكل أقواله وأعماله وجه الله وأن هذا هو الإسلام الحق فيقول له : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك لله وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »(٢).

وفى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان وأبو داود : « والأنبياء إخوة أبناء علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » ، وصدق الله حيث يقول فى القرآن الكريم : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »(٣).

وما شرعه الله لنا من الدين ، ووصانا به كما وصى به رسله السابقين هو : أصول العقائد ، وقواعد الإيمان . وهى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر . لافروع الدين ، ولا شرائعه العملية . فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكرى والروحى .

وقد يطلق الإسلام ويراد به النصوص التى أوصى الله بها لرسله مبيناً بها دينه .

---

(١) الآية ١١١ من سورة المائدة .
(٢) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٣) من الآية ١٣ من سورة الشورى .

وقد يطلق ويراد به عمل الإنسان وإيمانه بالنصوص التى أوحى الله بها لرسله واستسلامه لها.

والإسلام على الإطلاق الأول يختلف من رسول إلى رسول فى السعة والشمول مع اتفاقه فى المبادىء والأصول .. فالإسلام الذى أنزل على موسى عليه السلام أوسع من الإسلام الذى أنزل على نوح عليه السلام لأن الله ذكر عن التوراة قوله تعالى : « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة » (١).

كما أن الإسلام الذى جاء به خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أوسع من الإسلام الذى جاء به أى رسول سابق ، لأن الرسل السابقين جميعاً بعثوا لأقوامهم خاصة ، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم بعث للناس عامة. فاقتضى ذلك أن يكون الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أوسع من كل رسالة سابقة ، وبهذا تم بناء النبوة والرسالة .

فهدى الله المؤمنين به لسنن الأنبياء والمرسلين السابقين وأكمل لهم الدين الذى ارتضاه لهم شرعة ومنهاجاً .

قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٢).

وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى أخرجه الشيخان : « مثلى

---

(١) من الاية ١٤٥ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية الثالثة من سورة المائدة .

ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

وبهذا الشمول والإتساع ، والكمال والتمام أصبحت البشرية كلها مطالبة به ، فنسخ به كل شرع سابق ، ولن ينزل بعده شرع لاحق إذ بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ختمت الرسالة التى جاء بها رحمة للعالمين كما عبر عن ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما »(١) .

وقوله : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »(٢) .

وقوله : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣).

وقوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) .

فمن لم يتبع محمداً صلى الله عليه وسلم فهو هالك ضال . يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم رضى الله عنه: « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » ولم لا والله / سبحانه

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الأحزاب .
(٢) من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٤) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

وتعالى / يقول فى محكم كتابه : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً »(١).

ويقول أيضاً : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً (٢).

ويقول الإمام الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » : « ومن الخلاف بين اليهود والنصارى أن اليهود تقول « ليست النصارى على شيء » والنصارى تقول « ليست اليهود على شيء ـ وهم يتلون الكتاب ورســـول الله محمد / صلى الله عليه وسلم / يقول لهم جميعاً : « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » .

وما كان يمكنهم إقامتهما إلا بإقامة القرآن الحكيم ، وبحكم نبى الرحمة رسول آخر الزمان ـ محمد / صلى الله عليه وسلم / فلما أبوا ذلك وكفروا بآيات الله « .. ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباء وبغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله .. » (٣) ، (٤).

والإسلام الذى جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً هو الدين الأوحد الذى له مصادر موثوق بها كل الثقة ، وعلى رأس تلك المصادر

---

(١) الآية ١١٥ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ من سورة النساء .
(٣) من الآية ٦١ من سورة البقرة .
(٤) جـ ١ ص ١٩١ تخريج محمد بن فتح الله بدران .

القرآن الكريم والسنة النبوية المعتمدة عند علماء نقد الروايات - وما لا يعرف من الكتاب العزيز ، والسنة الشريفة صراحة يعرف استنباطاً عن طريق مجتهدى الأمة الإسلامية الذين جعلهم الله جنوداً لدينه يحرسونه ويزودون عن حياضه .

كما أنه لا يوجد الآن أى كتاب دينى فى العالم له سند متصل غير القرآن الكريم ، والحديث الصحيح لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الإسلام الذى بعث به الرسل السابقون قد نسى ، أو حرف ، أو بدل . أو طمست معه معالم الحق فيه واستقر الباطل عند أهله فى عقائدهم ، وعباداتهم ، وسلوكهم لذا فإن الإنسانية إذا أرادت السلامة لنفسها ، وإسلام الوجه لربها فليس أمامها إلا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وليست مختارة فى ذلك لأن الله لا يقبل غيره حيث قال فى محكم كتابه : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »(١) .

وقال سبحانه : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير »(٢) .

والإسلام الخاتم له معان . منها : أنه الإذعان ، والخضوع النفسى والاطمئنان القلبى ، والشعور بالرضى بالنسبة لكل ماجاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، من دين اشتهر بين المسلمين حتى أصبح العلم به كالعلم

---

(١) الاية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٢) الاية ١٩ من سورة المائدة .

الحاصل بالضرورة لايحتاج إلى دليل ، وذلك مثل قدرة الخالق - جل وعلا - فإن أى متدين بالإسلام لايحتاج إلى دليل على أن للخالق قدرة ، وأنها تفوق كل القدرات المخلوقة وليست من جنسها ، والإسلام بهذا المعنى: حالة نفسية وقلبية معاً قمحلة طاهر الإنسان وباطنه . أى هو إقرار من المسلم بلسانه ، وتصديق بقلبه ، وعمل وافق مافى قلبه من تصديق ، وما يقر به لسانه .

من هنا كان من المحتم أن نتعرف على كلمة الإيمان لنتبين الصلة التى بين الإيمان والإسلام .

معنى الإيمان لغة وشرعاً

لفظ الإيمان له فى اللغة معان : منها : التصديق . تقول : آمن به إيماناً أى صدقة . وهو : الثقـــة ، وهو إظهار الخضوع ، وهو أيضاً قبول الشريعة(١) .

والإيمان فى الشرع له معان كذلك : منها : أنه تصديق المؤمن بقلبه بكل ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيما علم مجيئه به من الدين بالضرورة . أى التصديق بكل ما إشتهر بين المسلمين أنه من دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة بحيث يعلمه العامة من غير إحتياج إلى نظر وإستدلال كوجود الله تعالى ، ووحدانيته ، وقدرته ، وإرادته ، وعلمه وملائكته وأنبيائه ، عليهم الصلاة والسلام ، وكتبه المقدسة ، وكاليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وحساب ، وجنة ونار ، وثواب وعقاب ، وكوجوب الصلاة ، والصوم ، وحرمة القتل ، والخمر ، مع النطق بالشهادتين بالنسبة للقادر على النطق بها ، أما العاجز كالأخرس ومن فى حكمه ، أو المكره على عدم النطق بالشهادتين فالتصديق بالقلب جزء من حقيقة الإيمان لايحتمل السقوط أصلا ، والنطق بالشهادتين جزء من الإيمان يحتمل السقوط عند العجز أو الإكراه .

---

(١) القاموس المحيط لفيروز أبادى ج ٤ ص ١٩٧ .

قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »(١) وقال سبحانه : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمن(٢)»(٣) .

وعلى هذا التعريف فالإيمان والإسلام ـ الذى هو : إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح يوافق مافى القلب من تصديق ، وما أقر به اللسان متحدان فى المعنى ، ومتغايران فى اللفظ مثل : الماء العذب ، والنقاخ ـ بضم النون ـ ومثل القمح ، والبر ، ومثل الأسد ، والغضنفر ، ومثل السيف ، والحسام . فالماء العذب والنقاخ معناهما واحد وإن إختلف اللفظ فيها .

وكذا القمح والبر ، والأسد والغضنفر ، والسيف والحسام . وقد ذكر الإســـلام والإيمان فى القرآن الكريم بمعنى واحد فى قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين »(٤) فالذين أخرجوا من المؤمنين هم بأعينهم أهل البيت المسلم ، فالمؤمنون هنا هم المسلمون ، وهذا ما يجعلنا نؤكد أن الإيمان الصادق يلزم منه الإسلام بالمعنى الذى أسلفناه قريباً وقلناه عند تعريف الإسلام ، ولذلك ذهب سلف الأمة الأخيار إلى أن الإيمان :

(١) تصديق بالجنان أى بالعقل .

---

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٢) من الآية ١٠٦ من سورة النحل .
(٣) توضيح العقيدة المفيد للشيخ حسين مكى ص ٥ .
(٤) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة الذاريات .

(٢) وإقرار باللسان .

(٣) وعمل بالأركان .

وقد وجدت تعاريف أخرى لكل من الإسلام والإيمان تجعل بينهما مغايرة . وخلاصتها : أن الإيمان والإسلام إذا ذكرا معاً . كان لكل واحد منهما معنى يخصه ، وإذا ذكر كل منهما وحدة فإنه يراد به ما يشمل معناه ، ومعنى آخر . مثل : الفقير ، والمسكين . فإذا ذكر الفقير وحده ، شمل المسكين أيضاً ، وإذا ذكر المسكين وحده شمل الفقير كذلك . وإذا ذكرا معاً كان لكل واحد منهما معنى يخصه . فإذا أردنا أن تعرف الإسلام والإيمان معاً ، قلنا : الإسلام إقرار اللسان بالوحدانية ، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع العمل بالأركان .

والإيمان : تصديق القلب بما نطق به اللسان وبعمل الأركان التى قامت به الجوارح . وإذا أردنا أن نعرف الإسلام وحده بدون ذكر الإيمان ، أو العكس ، قلنا . هو : إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان فيصدق على الإسلام والإيمان .

ومما تقدم من معنى الإسلام ، والإيمان ، ندرك أن بين الأيمان والإسلام تلازماً - حسب الحقيقة الشرعية المنجية - مقتضى هذا التلازم : أن كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، لأن المصدق للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، التصديق الذى ذكرناه فى تعريف الإسلام والإيمان لابد من أن يكون خاضعاً لما جاء به - عليه الصلاة والسلام - والخاضع هذا الخضوع لا بد من أن يكون مصدقاً به كل التصديق .

« أما من أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر ، فإنه الله لا يقبل منه أى عمل وإن كان يتحتم علينا أن نعامله معاملة المسلمين ونجرى عليه جميع الأحكام التى تجرى على المسلمين — ما دامت أقواله ، وأعماله ، وجميع تصرفاته لا تدل على رفض أحكام الله وعدم الخضوع لها — لأن لنا ظاهره ، أما باطنه فلا يعلمه إلا الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وقد فضح الله أناسا أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر فى قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »(١) أى قالوا : صدقنا بقلوبنا . فأنكر الله عليهم ذلك ، لأنهم قالوا هذا بألسنتهم فقط »(٢) .

ويقول أيضاً الشيخ حسن أيوب فى كتابه (تبسيط العقائد الاسلامية). ص٢٩ «ومن صدق بقلبه ولم يعمل أعمال الاسلام، فهو مسلم على رأى جمهور المسلمين تجرى عليه الأحكام التى تجرى عليهم ، غير أنه يكون مسلماً فاسقاً أو عاصياً ، أو مذنباً ، وتقام عليه حدود الاسلام التى شرعها زجراً وتأديباً لمن ترك فرضا ، أو فعل منكراً ، وأمره فى الآخرة موكول إلى ربه ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه بجريمته . قال تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » اهـ(٣) .

ولقد حذر الشرع الحكيم من الأمور المنافية للإيمان ، وحكم بكفر

---

(١) من الآية ١٤ من سورة الحجرات .

(٢) تبسيط العقائد الإسلامية للشيخ حسن أيوب ص ٢٩ .

(٣) من الآية ٤٨ من سورة النساء .

من إرتكبها ، وذلك مثل السجود للصنم ـ إختياراً ـ أو الاستهانة والتحقير لما عظمه الدين كالقرآن الكريم ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والشريعة الاسلامية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ـ والايمان به، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية كالصلاة ، أو الحج أو التلفظ بكلمة الكفر عمداً . كذلك يكفر من كذب شيئاً من النصوص الشرعية الثابتة يقيناً كآيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول/صلى الله عليه وسلم / المتواترة ، أو إستحل حراما ثبتت حرمته بدليل قطعى كقتل النفس ، والزنا ، والسرقة ، لأن هذا كله مخل بالتصديق الايمانى والانقياد الاسلامى الواجب توافرهما ليكون المرء مؤمناً ومسلما .

وإذا كنا قد أثبتنا أن التعريفات ما يجعل الاسلام والايمان بمعنى واحد ، فيجب على كل مكلف أن يصدق بكل ما جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم وعلم بمجيئه به علما لا يشك فيه إنسان ، وأن يقتنع به إقتناعا لا يجعل له أى مجال للإعتراض عليه ، أو لاختيار غيره حتى يكون مؤمنا بربه ، مسلم الوجه له ، أما لو قال رجل مثلا : أنا أومن بأن الاسلام فرض الصلاة ، والزكاة ، ولكنى غير مقتنع بهما ؛ ولا بالحكم المترتبة عليهما . نقول لمن قال مثل هذا القول : إن إعتراضك هذا قد يجعلك غير مسلم لأن عنصر الخضوع والاذعان غير متكامل عندك ما يجعلنا نشك فى إيمانك ؛ لأنك لو صدقت تصديقا كاملا بالله وبحكمته ، وعلمه ، ورحمته ،لأسلمت له نفسك وارتضيت ما ارتضاه لك .

قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم

لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »(١) .

« ولو عرضنا حال المسلمين اليوم على هذه الآية ، لوجدنا منهم خارجين عن الدين، وغير مؤمنين، لأنهم غير مستسلمين لله /عز وجل/ وغير خاضعين خضوع رضا لأحكام الله تعالى » ا. هـ (٢) .

والدين الاسلامى بنى على أركان هى ركائزه ، وليست هى كل الاسلام فمثلا يوجد حديث متفق عليه رواه ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان »(٣) فهذه أسس الاسلام ، وليست جميع الاسلام ، وإن كان الأساس عادة من جنس البناء فمثلا : لو أن إنسانا بنى بيتا مكونا من خمسة طوابق كل طابق به عشر حجرات وأسس هذا البيت على خمسة عمد . فليست هذه العمد الخمسة هى كل البيت كما أنها تكون مع الطوابق الهيكل العام للبناء . فلو فهم إنسان من الحديث السابق ، أنه لايوجد إلا هذه الدعائم الخمس يكون مخطئا . لأنه لو قرأ القرآن الكريم لوجد فيه من الاسلام غير هذه الأشياء الخمسة . كالعبادات والمعاملات . والأخلاق ، والاقتصاد ، والقضاء ، والاجتماع ، والسياسة والسلم ، والحرب ، والجهاد ، والزواج ، والبيع والشراء وغير ذلك مما هو من صميم الاسلام .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة النساء .

(٢) تبسيط العقائد الاسلامية للشيخ حسن أيوب ص ٣٠ بتصرف .

(٣) هذه الرواية لمسلم صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٧٧ فى باب أركان الإسلام ودعائمه العظام .

كما أننا نجد حديثاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم ذكر أشياء من دين الإسلام غير هذه الأركان الخمسة ، وليست هى أيضاً كل الدين الإسلامى . فقد أخرج مسلم ، والترمذى ، والنسائى عن عمر رضى الله عنه . أنه قال : « بينما نحن جلوس(١) عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه(٢) وقال يا محمد : أخبرنى عن الإســـلام ؟ .

فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن إستطعت إليه سبيلا . قال صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ! فأخبرنى عن الإحسان ؟ .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك : قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ : قال : أن تلد الأمة ربتها(٣) ، وأن ترى الحفاة

---

(١) هذه اللفظة ليست عند مسلم .

(٢) على فخذيه : أى وضع السائل كفيه على فخذى نفسه وقيل عن فخذى الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) أى سيدتها وهذا من فساد وأحوال الناس فى آخر الزمان .

العراة العالة(١) رعاء(٢) الشاء يتطاولون فى البنيان . قال ثم إنطلق . فلبثت ملياً ثم قال لى ياعمر : أتدرى من السائل ؟ . قلت : الله ورسوله أعلم . قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم «(٣) وجملة : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم فى الحديث جعلت بعض المسلمين يفهم أن هذا الحديث قد جمع كل قضايا الدين الإسلامى وليس هذا بصواب . لأن القاعدة الأصولية المستقاه من اللغة العربية تبين أن النكرة فى سياق النفى تعم . أما فى سياق الإثبات فلا تعم

وكلمة « دينكم » فى الحديث نكرة غير أنها فى سياق الإثبات فلا تعم ولو أن جبريل عليه السلام علمنا حكما واحداً من أحكام الدين الإسلامى وقلنا إنه علمنا ديننا لكان ذلك صدقا كمن يقرأ مسألة من مسائل العقيدة فسأله غيره . ماذا تفعل ؟ .

فأجابه : أقرأ العقيدة . فإنه يكون صادقا وإن كان يقرأ مسألة من مسائلها . فكون رسول الله / صلى الله عليه وسلم / قال : « يعلمكم دينكم » لا يعنى هذا أنه يعلمنا الدين كله — كلياته وجزئياته — وإنما تصدق الكلمة ولو علمنا بعض ديننا .

---

(١) العالة جمع عائل وهو الفقير .

(٢) رعاء بكسر الراء وبالمد ويقال رعاة بضم الراء وزيادة الهاء بلا مدهم رعاة الغنم وغيرها وهذا كله كناية عن انقلاب القيم واسناد الأمور الى غير أهلها .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ من صفحة ١٥٧ الى ١٦٠ فى باب تعريف الإسلام والإيمان وأمارات الساعة .

وخلاصة القول فى هذ المقام أن الدين الإسلامى يتألف من :

- أولا : العقيدة وتتمثل فى الشهادتين وأركان الإيمان التى هى : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر . ومن لم يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لم يكن ملتزماً بالإسلام كله لأن الشهادتين أساس لكل الدين الإسلامى . لذا كانت الشهادتان مع أركان الإيمان الستة هى الأساس للعقيدة الإسلامية الصحيحة .

- ثانيا : العبادة . وتتمثل فى الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج وكل عمل أو قول فيه الخير للإسلام وللمسلمين .

- ثالثا : البناء . ولا يكون بناء الإسلام متيناً وصحيحاً إلا إذا قامت كل مناهج الحياة على أساس إسلامى صحيح ورجعت إليـــه فى كل أمورها كالمنهج السياسى ، والاقتصادى ، والعسكرى ، والأخلاقى والاجتماعى ، والتعليمى ، وغير ذلك .

- رابعاً : المؤيدات البشرية التى هى طريق قيام الدين الاسلامى وتتمثل فى الجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . وهذه المؤيدات البشرية غير المؤيدات الربانية التى تكون فى الدنيا متمثلة فى عقوبة الفطرة ، وعقوبة القهر الإلهى ، وفى الآخرة ، وتكون متملة فى الجنة والنار(١) .

من أجل ذلك : كان الإسلام هداية كاملة للإنسانية كلها إن إتبعت

---

(١) يرجع بالنسبة لهذا التقسيم الى كتاب الإسلام للكاتب سعيد حوى ص ١٧ . بتصرف .

طريقه ، ودارت معه حيث دار ، وقد جعله الله — سبحانه وتعالى — عاما وشاملا بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بين حكمها فيه — إباحة ، أو حرمة ، أو فريضة ، أو وجوبا ، أو سنية أو كراهة ، سواء فى ذلك شئون العقيدة أو العبادة ، أو السياسة ، أو الأوضاع الاقتصادية ، أو الحرب ، أو السلم ، أو غير ذلك مما هو كائن ، أو يتخيله الانسان من شئون الحياة .

قال تعالى واصفا كتابه العزيز : « ونزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (١) . وقال عن رسوله محمد — صلى الله عليه وسلم — : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » (٢) .

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة النحل .

(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

هل الإيمان يزيد وينقص ؟

وتتميما للإفادة من هذا الموضوع فإنه يتعين علينا أن نتعرض بإيجاز لمفهوم الإيمان إذ الكلام عن زيادته ونقصانه مبنى على ذلك المفهوم .

لقد تنوعت آراء العلماء فى مفهوم الإيمان ، واختلفوا فى زيادته ونقصانه تبعاً لهذا التنوع وذلك راجع لمعنى كلمة الإيمان فى اللغة والشرع ولورود أحاديث متنوعة عن رسول الله / صلى الله عليه وسلم / بعضها يجعل الإقرار بالشهادتين إيماناً .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله/صلى الله عليه وسلم/: « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول : لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياة شعبة من الإيمان »(١) . ومنها مايجعل التصديق بالقلب إيماناً كحديث سؤال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم - السابق الذكر - ومنها مايجعل عمل الجوارح للطاعات ولما كلف به العبد من العبادات إيماناً .

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »(٢) .

---

(١) رواه مسلم فى باب عدد شعب الإيمان ٥ ، ٦ من الجزء الثانى من صحيح مسلم بشرح الإمام النووى .

(٢) رواه البخارى فى باب تطوع قيام رمضان من الإيمان ص٩٢ من الجزء من فتح البارى .

وعن أبى هريرة أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صام رمضان إيماناً وإحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »(١) .

ويقول الإمام النووى فى هذا المقام : « وأما إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فتفق عليه عند أهل الحق ودلائله فى الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تشهر .

قال الله تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم »(٢) أجمعوا على أن المراد صلاتكم »(٣) .

ونحن سنورد جملة من الآراء التى يعنينا الإتيان بها فى هذا الموضوع وسنختار منها . مايترجح عندنا بأنه الصواب ، بعيدين عن الهوى المغرض ، وملتزمين للحيد الكاملة ، ومقدرين للأمانة العلمية التى شرفنا الله بحملها . فعلماء اللغة عرفوا الإيمان بأنه : مطلق التصديق . وسار على نهجهم بعض من علماء الشريعة . منهم : جمهور المحققين من الأشاعرة والماتريدية قالوا : « إن الإيمان تصديق بالقلب فقط ، أما الإقرار باللسان فهو ركن زائد وليس بأصلى »(٤) ومن حجتهم فى ذلك حديث سؤال جبريل ـ عليه السلام ـ

---

(١) رواه البخارى فى باب صوم رمضان احتسابا من الإيمان نفس المرجع والصفحة .

(٢) من الاية ١٤٣ من سورة البقرة

(٣) صحيح مسلم جـ١ ص ١٤٩ بشرح النووى .

(٤) انظر شرح جوهرة التوحيد المسمى اتحاف المريد بجوهرة التوحيد الشيخ عبد السلام القانى حاشية ص ٤٨ وشرح العقيدة الطحاوية لمؤلفه على بن على بن محمد ابن أبى العز الحنفى ص ٣٧٣ ، وورد عن أبى حنيفة أنه قال بهذا الرأى وبأن الإيمان لايزيد ولا ينقص ينظر ص ٦١ والتى بعدها من الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل لابن حزم .

لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان . الذى أوردناه سابقاً وفيه بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإسلام قول وعمل ، وأن الإيمان تصديق بالقواعد الكلية الست التى هى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

وهذا الرأى مردود عندى لأن جبريل / عليه السلام / لما سأل عن الإسلام وعن الإيمان كان لابد وأن يجيبه الرسول / صلى الله عليه وسلم / عما يتناول الأعمال الظاهرة ، وما بطن من الاعتقاد فظهر أن الإسلام نطق بالشهادتين وعمل بالجوارح ، وأن الإيمان اعتقاد قلبى . والحقيقة أن التصديق والعمل لا بد وأن يتناولا كلا من الإسلام والإيمان إذ منهما يتألف جوهر الدين الخاتم ، وعليهما تقوم أمور العقيدة الإسلامية .

يقول الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم : « وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى الشافعى ـ رحمه الله ـ فى حديث سؤال جبريل / صلى الله عليه وسلم / عن الإيمان والإسلام وجوابه قال : جعل النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام إسماً لما ظهر من الأعمال ، وجعل الإيمان إسماً لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الايمان ، والتصديق بالقلب ليس من الإسلام ، بل ذلك تفصيل لجملة هى كلها شىء واحد ، وجماعها الدين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعا يدل عليه قوله سبحانه وتعالى « إن الدين عند الله الإسلام »(١) « ورضيت لكم الإسلام دينا »(٢) « ومن

---

(١) من الاية ١٩ من سورة آل عمران .
(٢) من الاية الثالثة من سورة المائدة .

يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »(١) .

فأخبر سبحانه وتعالى أن الدين الذى رضيه ويقبله من عباده هو الاسلام ولا يكون الدين فى محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل»(٢)

« وذهب الامام أبو حنيفة رحمه الله وكثير من أتباعه إلى أن الايمان إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب »(٣) ، وهذا الرأى أيضا لاأرتضيه وذلك لأن العبد إذا نطق بالشهادتين ، وأقر لله تعالى بالوحدانية ، ولرسله صلوات الله وسلامه عليهم - أجمعين - بالرسالات وصدق بكل ماجاء به الشرع ولم يعمل بالفرائض لايسمى مؤمنا بالإطلاق بل هو عاص لله ولرسوله ومستحق للوعيد ، وهو وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق إلا أنه غير مستحق لهذا الوصف فى كلام الله تعالى لقوله / عز وجل / : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلوات ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »(٤) فهذا إخبار من الله سبحانه وتعالى على أن المؤمن من كانت هذه صفته فيكون العمل من الايمان وبدونه لا يكون الايمان كاملا .

---

(١) من الاية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٣،٢) ج ١ ص ١٤٥ . شرح العقيدة الصادية ص ٣٧٤ .

(٤) الايات الثانية والثالثة والرابعة من سورة الأنفال .

وذهب الكرامية(١) ، وبعض المرجئة(٢) إلى أن الإيمان : إقرار باللسان فقط دون عقد القلب . فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان ، ولكنهم يقولون : إنهم يستحقون الوعيد الذى أوعدهم الله به . وقولهم ظاهر

---

(١) الكرامية ـ بتشديد الراء المفتوحة ـ هم أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام . وقد كان ممن يثبت الصفات لله تعالى إلا أنه ينتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه ، وذكر الإمام الشهرستانى أنه خرج من ذلك وإنتسب إلى السنة ، وأصحابه طوائف تبلغ إثنتى عشرة فرقة (أنظر الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل لابن حزم جـ ٢ ص ١١) .

(٢) لفظة المرجئة مأخوذة من الإرجاء ، والإرجاء على معنيين : أحدهما التأخير . والثانى إعطاء الرجاء . أما إطلاق إسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد . وأما بالمعنى الثانى فظاهر فإنهم كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم مافى الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار . فعلى هذا : المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان . لأن الوعيدية تقول : بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده فى النار وهى داخلة فى الخوارج . وقيل الإرجاء تأخير على رضى الله تعالى عنه عن الدرجة الأولى إلى الرابعة فعلى هذا المرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان لأن الشيعة يقدمون علياً على الخلفاء الراشدين السابقين له والمرجئة أصناف أربعة ، مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية والمرجئة الخالصة (نفس المرجع والجزء ص ٢٣ ، ص ٨٥ والتى بعدها) .

الفساد »(١) لأن من أقر بلسانه فقط ، ولم يعتقد الإيمان ، ولم يعمل بمقتضاه كان منافقاً . والنفاق إن كان فى العقيدة فهو كفر . يوضح ذلك قول الله / تبارك وتعالى / لرسوله - صلى الله عليه وسلم - فى شأن المنافقين : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون »(٢) .

وإن كان نفاقهم فى العمل كانوا مرائين ، والرياء يتنافى مع الإيمان الصحيح فيكونون بنفاقهم قد ضلوا طريق الإيمان الذى ينجى صاحبه . قال تعالى : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرآءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »(٣) .

وذهب الجهم بن صفوان(٣) .

---

(١) ينظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٣٧٣ ، وصحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة التوبة .

(٣) الآيتان ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .

(٣) الجهم بن صفوان من الجبرية الخالصة وظهرت بدعته بترمذ . ومنها قوله : لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى وتنسب الأعمال إلى المخلوقين مجازاً ، ومنها زعمه بأن علم الله حادث ومنها قوله : إن الجنة والنار تبيدان =

وأبو الحسن الصالحى(١) — أحد رؤساء القدرية إلى أن الايمان هو المعرفة بالقلب ، كما أن الكفر هو الجهل بالرب - سبحانه وتعالى - وهذا القول أظهر فساداً مما قبله »(٢) لأن كفرة قريش كانوا يعرفون صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومع ذلك ما آمنوا به ، وما وحدوا خالقهم — سبحانه — يؤكد هذا قول الله تبارك وتعالى : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »(٣)

= وتفنيان . ومنها ، قوله بحدوث كلام الله تعالى . وكان ظهوره فى أيام ظهور واصل بن عطاء وقتله سلم بن أجون المازنى فى آخر زمان بنى أمية وأتباعه هم الجهمية (ينظر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٦ ، ص ١٩٩ ، ص ٢٠٠) ، والملل على هامش الفصل جـ ١ ص ١٢٧) .

(١) هو صالح بن عمر الصالحى من زعماء القدرية الذين يقولون : إن الله لم يقدر الأشياء أزلا ولم يتقدم علمه بها بل يعلمها سبحانه بعد وقوعها - ومن بدعه : أن من قال إن الله ثالث ثلاثة لا يكفر إلا إن كان كافراً أصلا ، ومنها أنه يصح عقلا أن يؤمن بالله ولا يؤمن برسوله ، وزعم أن الصلاة ليست بعبادة لله تعالى وأنه لا عبادة إلا الايمان به وهو معرفته وهو خصلة واحدة لا يزيد ولا ينقص وكذلك الكفر خصلة واحدة لا يزيد ولا ينقص (أنظر الملل والنحل للشهرستانى ص ٦٥ والتى بعدها من جـ ٢ على هامش الفصل لابن حزم الظاهرى) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ .

(٣) الآية ٣٣ من سورة الأنعام .

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي محمداً - صلى الله عليه وسلم - كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك لم يؤمنوا به . بل كانوا جاحدين للحق الذى جاء به ومعادين له . قال تعالى: « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »(١) .

ويعلق ابن أبى العز الحنفى على هذا القول بما نصه(٢) : « فإن لازمه - أى لازم هذا الرأى - أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام ، ولم يؤمنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون - كما حكى القرآن الكريم - : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً »(٣) .

وقال تعالى : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هـذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين »(٤)

ومذهب الخوارج(٥)

---

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ .

(٣) من الآية ١٠٢ من سورة الإسراء .

(٤) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة النمل .

(٥) الخوارج هم : الذين خرجوا على الامام على - رضى الله عنه - وتركوا نصرته بعد أن كانوا معه فى حرب صفين التى كانت بينه وبين معاوية - رضى الله عنه وفرق الخوارج عشرون . ست منها أصول والباقون فروعهم . والفرق الست الأصول هم : الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والأباضية والثعالبة - ويجمعهم : التبرى من عثمان ، وعلى - رضى الله عنهما - ويقدمون ذلك على كل طاعة ، ويكفرون أصحاب=

وجماعة من المعتزلة(١) أن الإيمان : « هو الطاعات مطلقاً سواء أكانت

=الكبائر ، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً. وتعنى كلمة الخوارج أيضاً : كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه سواء أكان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أم كان بعدهم على التابعين ، أم على الأئمة فى كل زمان (انظر الملل والنحل للشهرستانى ص ٢٣ ج ٢ على هامش الفصل لابن حزم الظاهرى) .

(١) المعتزلة : رأسهم واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى رضى الله عنه ، وكان فى أيام عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك . وفرقهم عشرون فرقة كل فرقة منها تكفر سائرها يضاف إلى تلك الفرق فرقتان ليستا من فرق الإسلام هما الحايطية ، والحمارية . ومما يعم فرقهم من الاعتقاد : أن الله قديم ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلا لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلا لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص وصف ذاته لشاركته فى الأهلية . واتفقوا على أن كلامه ـ تعالى ـ محدث مخلوق فى محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله فى المصاحف ، واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار. واتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق على مايفعله ثواباً وعقاباً فى الدار الآخرة، والرب تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلا . واتفقوا على أن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير . واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكافر . واتفقوا على أن الحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل .
=

فروضاً أم كانت نوافل » (١) ، ومذهب الجبائى(٢) وإبنه وأكثر معتزلة

= (انظر الملل والنحل للشهرستانى من صفحة ٦٥ إلى صفحة ٦٧ جـ ١ على هامش الفصل لابن حزم الظاهرى ، وانظر الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ص ١٨) .

(١) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام بن إبراهيم القعانى هامش ص ٤٨ .

(٢) والجبائى هو : أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، وإبنه أبو هاشم عبد السلام وهما من معتزلة البصرة . إنفردا عن أصحابهما بمسائل ، منها : إثبات إرادات حادثة لله - تعالى - له فى محل يكون البارى تعالى موصوفاً مريداً . وتعظيما لا فى محل إذا أراد أن يعظم ذاته ، وفناء لا فى محل إذا أراد أن يفنى العالم ، وأخص أوصاف هذه الصفات يرجع إليه من حيث إنه تعالى أيضاً لا فى محل ، وإثبات موجودات هى أعراض أو فى حكم الأعراض لا محل لها كإثبات موجودات هى جواهر أو فى حكم الجواهر لا مكان لها ، وذلك قريب من مذهب الفلاسفة حيث أثبتوا عقلا هو جوهر لا فى محل ولا فى مكان ، ومنها: أنهما أثبتا شريعة عقلية وردا الشريعة النبوية إلى مقدرات الأحكام وموقتات الطاعات التى لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدى إليها فكر وبمقتضى العقل والحكمة يجب على الحكيم ثواب المطيع وعقاب العاصى إلا أن التأقيت والتخليد فيه يعرف بالسمع ، ومن الضلالات التى أتى بها الجبائى أنه سمى الله مطيعاً لعبده إذا فعل مراداً لعبد، ومما اختلف فيه الجبائى وإبنه . أن الجبائى أثبت لله صفات لذاته فقال : عالم لذاته ، وحى لذاته . ومعنى لذاته عنده أى لا يقتضى كونه عالماً صفة هى حال علم ، أو حال يوجب كونه عالماً . =

البصرة أن الإيمان : « هو الطاعات المفروضة دون النوافل » (١) . وهذان المذهبان مردودان - عندى - أيضاً ، وذلك : لأن مذهب المرجئة ومن معهم يبين أن الإيمان فعل الطاعات مطلقاً سواء أكانت فروضاً أم كانت نوافل وعلى هذا : لو أن إنساناً فعل نافلة واقتصر عليها ولم يفعل فروضاً أصلا لكان مؤمناً عندهم ، وأيضاً : لو فعل الفروض والنوافل على أنها عادات ولم يعتقدها لكان مؤمناً كذلك وهذا يخالف التصور الصحيح للدين الإسلامى كما يخالف ماعليه جمهور الأمة وإجماعها .

ومذهب الجبائى ومن وافقه يبين أن فعل الفروض فقط هو الإيمان وعلى ذلك لو فعل الفروض « عادة » ولم يعتقدها بقلبه يكون مؤمناً ، وفعل النوافل مع الفروض - على قولهم - لن يفيد فاعلها ثواباً . وكأنهم بذلك يحثون على إهمال السنن التى بين الرسول/ صلى الله عليه وسلم/أن فعل بعضها كقيام رمضان إيماناً واحتساباً يغفر الذنوب .

فعن أبى هريرة / رضى الله عنه / أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

= ومعنى عالم لذاته عند إبنه أنه - سبحانه - ذو حالة هى صفة معلومة وراء كونه ذاتياً موجوداً وإنما يعلم الصفة على الذات لا بانفرادها . فأثبت أحداً لاهى صفات لامعلومة ولا مجهولة أى هى لاتعرف إلا مع الذات .

(انظر الملل والنحل للشهرستانى على الفصل ج ١ من صفحة ١١٥ وانظر الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ص ١٦٧) .

(١) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى هامش ص ٤٨ .

فى الحديث الذى رواه البخارى ـ رضى الله عنه ـ : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه »(١) .

كما أن الإمام الشهرستانى يبين أن الإيمان عند الجبائى وإبنه : « إسم مدح وهو عبارة عن خصال الخير إذا استجمعت سمى المتحلى بها مؤمناً »(٢) وخصال الخير هذه غير محددة فمن فهمها على أنها كف الأذى عن الغير ، والحفاظ على الآخرين فى أمورهم الدنيوية فقط فإنه بذلك يكون مؤمناً ـ عندهما ـ ولو لم يفعل فروضاً ولا سننا ، ولم يعتقد شيئاً منها . وقولهم هذا مخالف أيضاً لما عليه جمهور المسلمين وإجماعهم وسلف الأمة الأخيار .

والأقوال السابقة التى ذكرتها مع أصحابها فى بيان الإيمان ومفهومه . جميعها مردودة عندى لما ذكرته عند كل رأى .

بقى الرأى الذى يقول : « الإيمان : تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان وعمل بالأركان، وقد ذهب إليه مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى وإسحاق ابن راهوية ، وسائر أهل الحديث . وأهل المدينة ـ رحمهم الله ـ وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين »(٣) من المعتزلة(٤) . وهو ما أميل إليه وأرتضيه

---

(١) فتح البارى لابن حجر العسقلانى ج١ص٩٢ باب تطوع قيام رمضان من الإيمان .

(٢) الملل والنحل على هامش الفصل ج١ ص١١٧ ،

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ص ٣٧٣ .

(٤) منهم الحسين بن محمد النجار وهو رئيس الفرق التجارية ، والمشهور منها ثلاث فرق، وهى البرغوثية، والزعفرانية ، والمستدركة من الزعفرانية=

ليقينى بأن سلف الأمة وجمهورها لايجمع على باطل ، وخاصة أننا لو دققنا النظر فى رأى أبى حنيفة لوجدنا أن الاختلاف بينه وبين الأئمة الثلاثة ومن معهم اختلاف صورى ، ونزاع لفظى لايترتب عليه فساد فى الاعتقاد . لأن أبا حنيفة لايتصور أن يوجد إقرار من العبد بلسانه ، وتصديق منه بجنان ، ولا يعمل الطاعات، ولا مافرض عليه من العبادات فالعمل عنده لازم لايمان القلب ، وعندهم جزء من الايمان ، وعلى كلا الرائين فإقرار العبد ، وتصديقه بدون عمل الطاعات لايجعله كامل الايمان بل هو عاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ ومستحق للوعيد ، مع اتفاقهم جميعا على أن مرتكب الكبيرة لايخرج من الايمان بل هو فى مشيئة الله إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . ومن قال

= وهذه الفرق يجمعها فى الإيمان قولهم : بأن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى وبرسله وفرائضه التى أجمع عليها المسلمون ، والخضوع له، والإقرار باللسان فمن جهل شيئاً من ذلك بعد قيام الحجة به عليه ، أو عرفه ولم يقر به فقد كفر وقالوا :كل خصلة من خصال الإيمان طاعة ، وليست بإيمان، ومجموعها إيمان وقد وافقت هذه الفرق الأشاعرة فى أصول منها : أن الله تعالى خالق إكتساب العباد وأنه لايحدث فى العالم إلا مايريده الله تعالى . كما وافقت القدرية فى أصول ، منها : نفى علم الله ـ تعالى ـ وقدرته وحياته وسائر صفاته الأزلية ، ومنها : أن رؤيته ـ سبحانه ـ بالأبصار محالة ، ومنها القول بحدوث كلام الله تعالى وقالت القدرية بكفرهم فيما وافقوا فيه الأشاعرة، وقال الأشاعرة بكفرهم فيما وافقوا فيه القدرية ، وكان النجار يزعم أن كلام الله تعالى عرض إذا قرىء وجسم إذا كتب .

(انظر الفرق بين الفرق للبغدادى صـ ١٩٥ والتى بعدها ، وانظر شرح جوهرة التوحيد للشيخ اللقانى هامش صـ ٤٩) .

بتكفير تارك الصلاة فقد ضم إلى هذا الأصل أدلة أخرى(١)، وإلا فقد نفى النبي -صلى الله عليه وسلم- الايمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر والمنتهب فى الحديث الذى رواه الامام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال - : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن - ولا ينتهب نهبة(٢) ذات شرف (٣)

---

(١) منها : أن من قال بتكفير تارك الصلاة . اعتبر أن الإسلام هو الشهادتان بتوابعهما من الأعمال الظاهرة ، وهذا هو الإسلام الذى بينه النبى صلى الله عليه وسلم — فى الحديث المتفق عليه — حيث قال : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » فمن ترك شيئا من هذا انتفى الإسلام عنه فيكون كافرا ، وهى رواية عن الإمام أحمد وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، وأما الأعمال الأربعة التى هى الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، ففى تكفير تاركها نزاع مشهور . (ينظر كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٢٤٥ ، ص ٢٨٧) .

(٢) ذكر الإمام مسلم أن من قوله — صلى الله عليه وسلم — « ولا ينتهب . الى نهاية الحديث » ليس من كلام الرسول / صلى الله عليه وسلم / بل هو من كلام أبى هريرة ، ولذلك قال : قال عبد الملك ابن أبى بكر بن عبد الرحمن : الى أبا بكر كان يحدثهم هؤلاء عن أبى هريرة ثم يقول : وكان أبو هريرة يلحق معهن : ولا ينتهب الخ الحديث . غير أن الإمام النووى ذكر أن ابن الصلاح جمع فى ذلك كلاما حسنا وذكر أن فى هذا الحديث : « .. والذى نفسى بيده لاينتهب .. الخ الحديث » وهذا مصرح برفعه الى النبى / صلى الله عليه وسلم / (انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٤٤ والتى بعدها) .

(٣) ذات شرف : فى بعض الروايات — عند مسلم — بحذفها — (انظر ج٢ ص ٤٣ من صحيح مسلم بشرح النووى) .

يرفع الناس(١) إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن(٢) ولم يوجب ذلك زوال إسم الإيمان عنهم بالكلية ـ إتفاقاً .

يقول الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم تعليقاً على هذا الحديث وغيره : « إجماع أهل الحق على أن الزانى والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر ـ غير الشرك ـ لا يكفرون بذلك بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم ، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا فى المشيئة فإن شاء الله ـ تعالى ـ عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولا ، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة »(٣) .

كما أن الذى يقوى هذا الرأى عندى ـ أيضاً ـ أنه لا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل « والمراد بالقول : التصديق بالقلب والإقرار باللسان »(٤) وإلا فهم مجمعون على أن الإقرار باللسان والعمل بالجوارح بدون اعتقاد الإيمان وتصديق القلب به . لا يستحق به العبد اسم مؤمن .

وكذلك لا يخفى أن من أقر بلسانه ، وصدق بقلبه وعمل بجوارحه يكون مؤمناً عند جميع المسلمين بخلاف من أقر وصدق ولم يعمل لا يسمى مؤمناً

---

(١) يرفع الناس : فى بعض الروايات : « يرفع إليه المؤمنون أعينهم فيها — صحيح مسلم ج ٢ ص ٤٤ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٤١ والتى بعدها .

(٣) الجزء الثانى ص ٤١ والتى بعدها .

(٤) شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٣٧٥ .

بالإطلاق وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمناً بالتصديق ومن صدق وعمل ولم يقر - لا عن عجز - فهو متهم بنقص الإيمان أو بعدم استحقاقه اسم مؤمن إن جحد بلسانه ماعرف من التوحيد ومن أقر وعمل ولم يصدق فإنه لا يستحق إسم مؤمن .

وبعد أن بينا الآراء فى مفهوم الإيمان وارتضينا منها أنه : إقرار باللسان، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان بقى أن نبين هل الإيمان يزيد وينقص أم لا ؟ .

فعلى القول الذى يقول : بأن الإيمان هو التصـــديق فإنه لايزيد ولا ينقص لأن التصديق ليس شيئاً يتجزأ حتى يتصور كماله مرة ونقصه أخرى . هذا بعد إتمام نعمة الإسلام وإكمال الدين . وإن كان الإمام النووى يرى أن الإيمان بمعنى التصديق فقط يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة فيقول « فالأظهر - والله أعلم - أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر، وتظاهر الأدلة ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لاتعتريهم الشبه ، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض ، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم، فليسوا كذلك فهذا مما لا يمكن إنكاره ولا يتشكك عاقل فى أن نفس تصديق أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - لايساويه تصديق آحاد الناس ولهذا قال البخارى فى صحيحه قال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى / صلى الله عليه وسلم / كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جـــبريل وميكائيل والله أعلم » انتهى كلام النووى(١) فيصبح الإيمان بتظاهر الأدلة

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٨ والتى بعدها .

ووضوحها كأنه مشاهد معاين أنظر إلى خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو من هو فى إيمانه وثباته ويقينه ـ وهو يقول لربه ـ سبحانه ـ كما حكى القرآن الكريم : « رب أرنى كيف تحيى الموتى » فأجابه الله ـ تبارك وتعالى : « أو لم تؤمن »(١) فيقول إبراهيم: «بلى ولكن ليطمئن قلبى »(٢) أى ليزداد يقينى فالناس ـ وإن تساووا فى أصل الإيمان ـ إلا أن هذا التساوى ليس من كل الوجوه . فهم متساوون فى مطلق التصديق فالموحدون جميعاً يقولون : لا إله إلا الله غير أن نورها فى قلوب الموحدين يختلف من شخص لآخر . ودرجاته عندهم متفاوتة .

يقول ابن أبى العز : « التساوى إنما هو فى أصله ـ أى أصل الإيمان ـ ولا يلزم منه التساوى من كل وجه بل تفاوت درجات نور « لا إله إلا الله » فى قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى ، فمن الناس من نور « لا إله إلا الله » فى قلبه كالشمس ، ومنهم من نورها فى قلبه كالكواكب الدرى ، وآخر كالمشعل العظيم ، وآخر كالسراج المضىء وآخر كالسراج الضعيف ، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم(٣) على هذا المقدار بحسب ما فى قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملا » وكلما اشتد نور هـذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث إنه ربما

---

(١) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) شرح صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٨ والتى بعدها .

(٣) يشير إلى الآية الثانية عشرة من سورة الحديد : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنباً إلا أحرقه . وهذا حال الصادق فى توحيده ، فسماء إيمانه قد حرست بالرجوم من كل سارق »(١) ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي / صلى الله عليه وسلم/ : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله »(٢) وقوله :«لا يدخل النار من قال : لا إله إلا الله »(٣) .

ولهذا فليس لقائل أن يجترىء فيقول : مادام الإيمان هو التصديق وكل المؤمنين متساوون فيه فإن إيمانى كإيمان الصفوة من الصحابة أو كإيمان الأنبياء والمرسلين . أو كإيمان الملائكة المقربين . وإلا لكان مغالياً لما بيناه ولما نقوله: من أن الناس المبصرين وإن تساووا فى صفة الإبصار إلا أنهم مختلفون فى قوة البصر وضعفه والعقلاء وإن تساووا فى إطلاق كلمة العقلاء عليهم إلا أن عقولهم متفاوتة وتفكيرهم مختلف .

وعلى قول من يقول : الإيمان قول وعمل . فإنه يزيد وينقص بزيادة الأعمال والأقوال ونقصانها . وهذا الرأى أميل إليه وأرجحه دون بقية الآراء التى تقول : إن الإيمان هو الطاعات فقط أو هو إقرار باللسان دون عقد القلب . أو هو المعرفة القلبية لا غير حتى ولو قالت بزيادته ونقصانه لأنها فاسدة كما أوضحت ذلك سابقاً .

والذى جعلنى أرتضى الرأى الذى يقول بزيادة الإيمان ونقصانه بناء على

---

(١) شرح الطحاوية ص ٣٧٥ والتى بعدها .

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث عتبان بن مالك .

(٣) متفق عليه نحوه م حديث عتبان .

أنه قول وعمل هو أنى ارتضيته فى مفهوم الإيمان ولا يشك أى عاقل سليم الفكر فى أن زيادة الأقوال والأعمال السائرة على نهج الدين تزيد الإيمان وأن نقصها يؤكد نقصانه . كما أن الإمام النووى قال فى ص ١٤٦ من الجزء الأول من شرحه على صحيح مسلم : « والحجة على زيادته ونقصانه ما أورده البخارى من الآيات يعنى قوله / عز وجل / : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »(١).

وقوله تعالى : « وزدناهم هدى »(٢) .

وقوله تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى »(٣) .

وقوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى »(٤) .

وقوله تعالى : « ويزداد الذين آمنوا إيماناً »(٥) .

وقوله تعالى : « أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً » (٦) .

وقوله تعالى : « فاخشوهم فزادهم إيماناً »(٧) .

---

(١) من الآية ٤ من سورة الفتح .
(٢) من الآية ١٣ من سورة الكهف .
(٣) من الآية ٧٦ من سورة مريم .
(٤) من الآية ١٧ من سورة محمد.
(٥) من الآية ٣١ من سورة المدثر .
(٦) من الآية ١٢٤ من سورة التوبة .
(٧) من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .

وقوله تعالى : « وما زادهم إلا إيماناً وتسليما »(١) ا . هـ كلام النووى .

والأحاديث النبوية التى توضح أن الإيمان يزيد وينقص كثيرة منها ماروا‌ه البخارى عن أنس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من إيمان(٢) ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من إيمان ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان »(٣) .

وفى الحديث يكاد يكون صريح الدلالة على زيادة الإيمان لأن النبى صلى الله عليه وسلم كرر الطوائف التى تخرج من النار إذ جعل فى قلب بعض الناس وزن الشعيرة من الإيمان ، وجعل فى قلب بعض آخر وزن البرة من الإيمان . ووزن الشعيرة أزيد من وزن البرة فى بعض البلدان كما جعل فى قلب بعض آخر وزن ذرة من إيمان ، ووزن البرة أزيد من وزن الذرة .

ولو لم يكن فيه تفاوت فى الإيمان لما كرر الرسول صلى الله عليه وسلم الطوائف التى تخرج من النار ،

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأحزاب .

(٢) فى رواية البخارى أيضا « من خير » مكان « من إيمان » فى الحديث كله .

(٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ج١ ص ١٠٣ باب زيادة الإيمان ونقصانه .

ولو قال معترض : إن الحديث ربط بين الطوائف بالواو فى قوله : «يخرج» مرتين والواو لاتفيد الترتيب وعلى ذلك فليس بلازم أن تكون البرة أزيد من الذرة ولا أن تكون الشعيرة أزيد من البرة . قلنا له : إنه لو خفى على البعض زيادة الشعيرة على البرة فإنه لايخفى زيادة البرة على الذرة إذ الذرة كما قيل فى بعض تعاريفها هى الهباء الذى يظهر فى شعاع الشمس مثل رءوس الإبر .

كما أن الرواية التى أتى بها الإمام مسلم من هذا الوجه جاءت بلفظ «ثم» وهى للترتيب .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة . ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه مايزن من الخير مايزن برة . ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن ذرة»(١) فدل ذلك على تفاوت الناس فى إيمانهم الذى فى قلوبهم .

كما يذكر ابن حجر العسقلانى أنه روى بالسند الصحيح أن البخارى قال : «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص»(٢) «ولو لم نقل بزيادة الإيمان ونقصانه لكان إيمان آحاد الناس من هذه الأمة بل لكان

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ٥٩ والتى بعدها فى باب الشفاعة .
(٢) فتح البارى بشرح الإمام البخارى ج ١ ص ٤٧ فى كتاب الإيمان .

إيمان المنهمك فى الفسوق والمعصية مساوياً لإيمان الأنبيـاء والملائكة والصديقين . وهذا مما لاينبغى أن يذهب إليه أحد .

ولما كان المصير إلى اقتران إيمان من ذكرنا من الأنبياء والملائكة وإيمان المنهمك فى ملذاته وشهواته أمراً لامندوحة عنه لزمنا القول بأن الإيمان يزيد وينقص »(١) .

(١) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام بن ابراهيم اللقانى هامش ص ٦٢ .

معنى العقيدة

ولما كانت العقيدة هى أم الأصول التى تقوم عليها شريعة الإسلام عنها تنبثق فروعه ، كان لزاماً أن نتبين معنى كلمة عقيدة ليتعرف المسلم على أهميتها فى حياته كى يقوم بالحفاظ عليها ، والدفاع عنها ، إذ بها تتم إنسانيته ، وعن طريقها يصل إلى الحياة المثلى والسعادة الدائمة والعرب تقول : « عقد الحبل ، والبيع ، والعهد يعقده شده »(١) .

وتعنى بهذا الارتباط الوثيق والالتزام القوى سواء كان هذا فى الحسيات كما فى عقد الحبل ، أو فى المعنويات كما فى عقد البيع والعهد .

وعلى هذا فالعقيدة هى: التصديق بالشىء ، والجزم به دون شك أو ريبة فهى بمعنى الإيمان اللغوى يقال . اعتقد فى كذا أى آمن به والإيمان بمعنى التصديق يقال : آمن بالشىء أى صدق به تصديقاً لا ريب فيه . فهى تعنى الارتباط بين عقل الإنسان وقلبه من ناحية وبين أمر من الأمور ، أو فكرة من الفكر ، أو منهج معين التزمه يقيناً منه بأنه الصواب من ناحية أخرى . وهذا الارتباط يتميز بالقوة والإحكام ويتسم بالثبات والاستمرار .

ومرادنا عند الكلام عن العقيدة أن نعنى بها العقيدة الصحيحة التى جاء بها الإسلام والتى عبر عنها القرآن الكريم بأنها العروة الوثقى .

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادى ج ١ ص ٣١٤ .

قال تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم »(١) .

ويقول / سبحانه/ : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور »(٢) .

ولقد صورت الآيتان الارتباط الصحيح بأنه استمساك بعروة محكمة وأنها بهذه الصورة لا يتصور أن تضعف أو تحل .

---

(١) من الاية ٢٥٦ من سورة البقرة .
(١) الآية ٢٢ من سورة لقمان .

مفهـــوم العقيدة

ولما كانت العقيدة تعنى التصديق بالشيء، والجزم به ، وهو من معانى الإيمان ، كان مفهومها هو مفهوم الإيمان الذى أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه مسلم عندما أجاب / صلى الله عليه وسلم / على سؤال جبريل - عليه السلام - عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »(١) .

فمفهوم(٢) العقيدة يتناول ستة أمور هى :

- ⊙ أولا : المعرفة بالله ، وتعنى المعرفة بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا والمعرفة بدلائل وجوده ، ومظاهر عظمته / سبحانه وتعالى / فى الكون كله والوجود جميعه .
- ⊙ ثانياً : المعرفة بالملائكة التى تمثل قوى الخير فى العالم غير المنظور .
- ⊙ ثالثاً : المعرفة بكتب الله التى أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل والخير والشر ، والحلال والحرام ، والحسن والقبيح .

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن عمر بن الخطاب . صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٥٧ وقد أوردناه قبل ذلك فى ص ٧ من هذه الكراسة .

(٢) يوجد بحث جليل فى مفهوم العقيدة للشيخ سيد سابق فى كتابه « العقائد الإسلامية » ومن أراد مزيداً فليرجع اليه .

◉ رابعاً : المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين إختارهم ليكونوا أعلام الهدى وقادة الخلق إلى الحق .

◉ خامساً : المعرفة باليوم الآخر وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار .

◉ سادساً : المعرفة بالقدر الذى يسير عليه نظام الكون فى الخلق والتدبير وما عدا ذلك من الأمور العقدية إما داخل تحت هذه الأمور الست أو متفرع عنها وبهذا المفهوم للعقيدة نستطيع أن نوقن بأنها واحدة لا تتبدل بتغير الزمان ، أو المكان ، ولا تتغير بتغير الأفراد والأقوام فهى التى أرسل الله بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وجعلها ـ سبحانه ـ عامة للبشر ، وخالدة على الدهر ، لما لها من الأثر البين ، والنفع الظاهر فى حياة الأفراد والجماعات .

فالمعرفة بالله من شأنها أنها تفجر فى الإنسان المشاعر النبيلة وتوقظ حواس الخير، وتربى ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالى الأمور، وأشرافها، وتنأى بالمرء عن محقرات الأعمال ورديئها والمعرفة بالملائكة تدعو إلى التشبه بهم فى مواصلة الطاعة لله ، والتعاون معهم على الحق والخير ، كما تدعو إلى الوعى الكامل ، واليقظة التامة فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن ، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة . والمعرفة بالكتب الإلهية ، إنما هى عرفان بالمنهج الرشيد الذى رسمه الله للإنسان كى يصل بالسير عليه إلى كماله المادى والأدبى . والمعرفة بالرسل إنما يقصد بها ترسم خطاهم ، والتأسى بهم ،

والتخلق بأخلاقهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة ، والحياة النظيفة التى أرادها الله للناس .

والمعرفة باليوم الآخر هى أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر إذ المؤمن بهذا اليوم سيحاسب نفسه قبل أن يحاسب . ليقينه أنه مسئول عن القولة والفعلة ، والهمسة واللمسة .

والمعرفة بالقدر . تزود المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب ، وتصغر دونها الأحداث الجسام .

وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة إنما يقصد بها تهذيب السلوك وتزكية النفوس ، وتوجيهها نحو المثل الأعلى فضلا عن أنها حقائق ثابتة وهى تعد من أعلى المعارف الإنسانية . بل هى أعلاها على الإطلاق .

وتهذيب سلوك الأفراد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو أسلوب من أعظم الأساليب ، ولا يكاد يدانيه فى سلطانه وتأثيره شىء آخر من الوسائل التى إبتكرها العلماء والحكماء ، ورجال التربية .

فغرس العقيدة فى النفوس هو أمثل طريقة لإيجـــاد عناصر صالحة تستطيع أن تقوم بدورها كاملا فى الحياة وتسهم بنصيب كبير فى تزويدها بما هو أنفع وأرشد .

إذ أن هذا اللون من التربية يضفى على الحياة ثوب الجلال والجمال والكمال ، ويظللها بظـــلال المحبة والسلام ، ومتى سادت المحبة إرتفعت الخصومة وإنقطع النزاع ، وصفت القلوب وحل الوفاق محل الشقاق ،

وتقارب الناس وتآلفوا ، وسعى الفرد لخير الجماعة ، وحرصت الجماعة على إصلاح الفرد وإسعاده .

ومن ثم تظهر الحكمة واضحة فى جعل الإيمان عاماً وخالداً ، وفى أن الله ـ سبحانه ـ لم يترك جيلا من الأجيال ولا أمة من الأمم بدون إرسال رسول يدعو إلى هذا الإيمان وإلى تعميق جذور هذه العقيدة . وصدق الله حيث يقول : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »(١) .

إن هذه العقيدة هى الروح لكل فرد ، بها يحيا الحياة الطيبة ، وبفقدها يموت الموت الروحى وإن كان جسده يتحرك تحركاً آلياً . وصدق ربنا حيث يقول : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون »(٢) .

وهى النور الذى يهدى إليه الله من عباده من يعلم عنهم الإستعداد لتقبله، والسير على هداه . قال تعالى : «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا »(٣) ويقول ـ سبحانه ـ : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من إتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »(٤) .

---

(١) من الاية ٢٤ من سورة فاطر .
(٢) الاية ١٢٢ من سورة الأنعام .
(٣) من الاية ٥٢ من سورة الشورى .
(٤) من الآية ١٥ ، والآية ١٦ من سورة المائدة .

وفى المقابل يبعد الله هذا النور عن الذين علم عنهم عدم الإنقياد له وعدم الإلتزام بأوامره . وأطاعوا شياطينهم فأبعدوهم عن نور العقيدة إلى الظلمات الحالكة . قال تعالى : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(١) .

والعقيدة أيضاً . مصدر العواطف النبيلة ، ومغرس المشاعر الطيبة ومنبت الأحاسيس الشريفة ، فما من فضيلة إلا تصدر عنها ، ولا صالحة إلا ترد إليها . لذا نجد القرآن الكريم حينما يتحدث عن الصالحات إنما يذكر العقيدة فى طليعة أعماله البر كأصل تتفرع عنه ، وأساس تقوم عليه .

قال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »(٢) .

وكانت الرسل تعرض على الناس هذه العقيدة عرضاً كله السهولة والبساطة والمنطق فتلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض وتوقظ عقولهم إلى التفكير فى آيات الله ، وتنبه فطرهم إلى ماغرس فيها من شعور بالتدين ، وإحساس بعالم وراء هذا العالم المادى .

وعلى هذا النهج مضى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يغرس هذه

---

(١) الاية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الاية ١٧٧ من سورة البقرة .

العقيدة فى نفوس أمته لافتا الأنظار، وموجها الأفكار، وموقظاً العقول ومنبها الفطر، ومتعهداً هذا الغراس بالتربية والتنمية حتى بلغ الغاية من النجاح، وإستطاع أن ينقل الأمة من الوثنية والشرك إلى عقيدة التوحيد، ويملأ قلوبها بالإيمان واليقين. كما استطاع أن يجعل من أصحابه قادة فى الإصلاح، وأئمة فى الخير، وأن يوجد جيلا يعتز بالإيمان، ويعتصم بالحق فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا، وكالهواء للحياة، وكالعافية للناس.

وقد شهد الله لهذا الجيل بالتفوق والإمتياز فقال: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التورات ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً»(١).

وأثنى الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أجيال من الأمة الإسلامية تمسكت بالعقيدة وعضت عليها بالنواجز فقال فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عن عائشة — رضى الله عنها — قالت: سأل رجل النبى — صلى الله عليه وسلم — أى الناس خير. قال: «القرن الذى أنا فيه، ثم الثانى، ثم الثالث»(٢).

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٨٩.

كما شهد الله / سبحانه وتعالى / للأمة كلها بالخيرية ما دامت محافظة على تلك العقيدة صافية نقية . فقال / سبحانه / : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(١) .

ومنذ قامت دولة التوحيد على خاتم أنبياء الله ورسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعقيدة تستمد قدسيتها من وحى الله ، وتعاليم الحق ـ سبحانه ـ المنزلة من السماء ، وتعتمد أول ما تعتمد على الكتاب والسنــة ، وتتجه فى الدرجة الأولى إلى تربية الملكات ، وتنظيم الغرائز ، وتهذيب السلوك كى ترفع الإنسان إلى السمو اللائق بكرامته وتجعل منه قوة إيجابية فى الحياة .

ثم كانت الخلافات السياسية ، والإتصال بالمذاهب الفكرية والمذاهب الدينية الأخرى ، وتحكيم العقل فيما لا قدرة له عليه كانت هذه الأشياء وغيرها سبباً فى العدول عن منهج الأنبياء . كما كانت سبباً فى تحول قلوب عن بساطة الإيمان وإيجابيته وسموه إلى قضايا فلسفية ، وأقيسة منطقية ، ومناقشات كلامية ، وإبتعد كثير من الناس عن صفاء العقيدة الذى تزكو به النفس ، ويصلح به العمل ، وينهض به الفرد ، وتحيا به الأمة .

ولقد كان من أثر الخلافات السياسية ، والعدول عن نهج الفطرة والتأثر بالمذاهب الفكرية الطارئة ، والتعويل الكلى على العقل . أن انقسم حملة العقيدة إلى مدارس مختلفة كل مدرسة منها تمثل لوناً معيناً من التفكير ، وتدعى أنها قد استأثرت بالحق وحدها دون غيرها . ولم يدخل فى دائرة تعاليمها يعد فى نظرها خارجاً عن الإسلام .

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

وكان من آثار هذا الإنقسام أن جنى المسلمون على أنفسهم جنايات خطيرة، فتزعزعت العقيدة فى النفوس، واهتز الإيمان فى القلوب، ولم يعد للعقيدة السيطرة على سلوك الأفراد، ولم يبق للإيمان السلطان على تصرفاتهم، وتبع ضعف العقيدة الضعف العام فى الفرد وفى الأسرة، وفى المجتمع، وفى الأمـــة حتى أصبح الكيان الإسلامى عاجزاً عن النهوض بتبعاته، والإضطلاع بمسئولياته داخلياً وخارجياً، ولم تبق الأمة كما أرادها الله أن تكون صالحة لقيادة الأمم، وهواية الشعوب.

وإذا كان سبب تخلف الأمة الإسلامية عن غاياتها الكبرى هو ضعف العقيدة، كان من الضرورى ـ ونحن نعمل على إعادة مجد أمتنا ـ أن نسعى جاهدين فى غرس العقيدة فى نفوسنا، وأن نترسم الخطة التى رسمها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن نربى أنفسنا عليها حتى تبلغ الأمة الإسلامية غايتها من القوة، وتصل إلى أرقى مراتب اليقين الذى يدفع من تمسك به إلى مجد الحياة، ويرفعه إلى أسمى درجات العز والشرف وذلك لأن العقيدة الإسلامية حين تذكر فى القرآن الكريم، والسنة الشريفة، فإنما يراد بها العقيدة الحية المؤثرة التى تحدث تغييراً شاملا فى النفس، وفى الفكر، وفى الثقافة، وفى المبادىء والقيم، وفى السلوك والعمل، وفى تحديد الأهداف والغايات.

ولن تكون العقيدة كذلك إلا إذا نشأت عن إعمال الفكر فى آلاء الله للوصول إلى حقائق التوحيد، وعن إقتناع العقل بأنه وحده لا يستطيع أن يصل إلى مدارك الكمال. ومراتب اليقين. وعن إطمئنان النفس إلى أن جميع قضايا العقيدة أمـــور يتحتم التسليم بها لأنها من الله العليم بالنفوس وما يصلحها.

أما عقيدة التقليد والوارثة، والمناخ والبيئة، والتبعية وضياع الشخصية عقيدة الدفاع عن الآخرين بلا إدراك. وإنضواء الضعفاء تحت لواء الأقوياء بدون وعى، عقيدة الذين يقولون «إناء وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»(١) فإنها لا تصلح أن تسمى عقيدة، ولا أن يكون لها إعتبار فى نظر الإسلام، وهى لذلك لا تبنى شخصية، ولا تقوم معوجا، ولا تنير لصاحبها طريقاً ولا تعطيه عطاء جديداً يحدد له الهدف والغاية، ويرسم له السبيل والوسيلة.

إن العقيدة الحية أصحابها أحياء فى مشاعرهم ووجدانهم، فى صدقهم مع ربهم، وفى ثباتهم على مبادىء دينه، فى حبهم لله ولرسوله، وفى خوفهم من غضبة المنتقم القادر، فى ذكرهم لخالقهم وفى إندفاعهم الواعى فى طاعته، فى خشيتهم لمن بيده نواصيهم، وفى نفورهم من معصيته، وهذا معنى العبودية الحقة التى يخرج بها الإنسان من ظلمات الشرك والجور والطغيان والإنحراف إلى نور التوحيد وصفاء الإعتقاد، وكلما عمق العبد معنى: لا إله إلا الله - فى قلبه وفكره فإنه بصدق وإخلاص سوف يزيح عنه ظلام الرياء، وطغيان النفس، وكابوس الضلال. لأن هذه الكلمة هى ركيزة الركائز للعقيدة الصحيحة وهى التى أخبر الله ورسوله أنها كلمة التوحيد. وكلمة العبور من الشرك إلى الإيمان، والخلاص من جميع الآلهة من أجل الإلتجاء إلى إله واحد هو الإله المعبود بحق، هو الله رب العالمين. إذ معناها: لا معبود يستحق العبادة إلا الله. فقائلها يرفض الخضوع لجميع

(١) من الآية ٢٣ من سورة الزخرف.

الآلهة ما عدا إلهاً واحداً هو الله . لأنه الإله الحق فهو يكفر بكل ما قدسه الناس من الأوثان وبكل من عبدوهم من المخلوقات ، يكفر بآلهة الجن والشياطين الذين توهمهم الناس فعظموهم وأحبوهم أشد من حبهم لله . ونذروا لهم النذور وقدموا لهم القرابين وجعلوهم شركاء فى أموالهم وأولادهم وأهليهم . بل وفى ذواتهم مما يثير الإشمئزاز ويخجل العقل البشرى الواعى . يكفر بمبدأ التبعية لأى من المخلوقات لأنه موقن أن التابع والمتبوع فى قبضة الله ولن يقدر متبوعهم أن يدفع عن تابعهم ضراً ولا أن يجلب له نفعاً وفوق ذلك فإنه سيتبرأ منه يوم القيامة .

وصدق الله حيث يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار »(١) يكفر بكل القوانين المضادة والبعيدة عن قانون الله . هكذا تكون العقيدة الحية ، وهكذا يكون معتنقوها .

وإذا إقترب المسلم من أى شىء يخالف العقيدة الصحيحة ليعمل به أو ليرضى عنه . أو ليسير فى فلكه فإن عقيدته تكون خربة ولن تؤدى الدور المنوط بها . لأن صاحبها لم يستسلم لله حقاً ولم يوحده حين ادعى الإيمان بوحدانيته

---

(١) الآيات ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ من سورة البقرة .

وعليه أن يحذر خطورة الموقف بين يدى الله حين يقول لمن أطاعوا أهواءهم وشياطينهم « وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون »(١).

من هنا كان الإعتقاد السليم . قوة واعية تدفع بصاحبها إلى صدق الصلة بالله ، وعمق الفكر فى آلائه ، ولذة المعرفة به . فيمتلىء قلبه بنور الله ويمتزج روحه بفيض رحماته وعندما يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويقول : « الله أكبر » يشعر بعزة المؤمن الذى عرف الطريق إلى ربه الواحد الأحد فيذل له وحده ، ويعبده لا يشرك به شيئاً ، وفى تلك الحالة يجد أبواب السماء مفتحة له ، وملائكة الرحمة محيطة به ، وحملة العرش يستغفرون له ، ويطلبون له ولأمثاله ولآبائهم وأزواجهم وذرياتهم الرحمة والجنة مصداق ذلك .

قول الله تبارك وتعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم »(٢) فيندفع فى حب الله أكثر وأكثر ، ويسهر الليل عابداً

---

(١) من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٢ من سورة يس .

(٢) الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ من سورة غافر .

أو يقضى النهار صائماً ، ويحمل سيفه مجاهداً ، ويضحى بنفسه وماله فى سبيل ربه ، لا يبالى بمشقة أو تعب ، ولا يشكو من بلاء أو نصب ويكون له فى كل خير قدم ثابتة ، وفى كل عبادة منزلة سامية وفى كل فضيلة درجة عالية . وهكذا تكون العقيدة الحية باعثة على الإندفاع المتزن فى العبادة الحقة كما أن العبادة الحقة لا تكون ناشئة إلا عن عقيدة حية .

وإنه ليطيب لى فى هذا المقام أن أقدم بعضاً من نماذج مسلمة كانت إيماناً يتحرك ، وعقيدة تمشى فى صورة بشرية لتكون مشعلا يضىء الطريق أمام الراغبين فى عقيدة نقية ، وإيمان صادق .

حـــاكم مؤمن

وأول هذه النماذج حاكم مؤمن من جملة الحكام الذين يعد ذكرهم دواء، وسيرتهم شفاء هذا الحاكم هو: «سعيد بن عامر».

والقصة بدأت عندما أرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أهل حمص(١) ليكتبوا له أسماء الفقراء لديهم ليعطيهم من مال الصدقة فكتبوا فى أول القائمة إسم حاكمهم «سعيد بن عامر»، وتعجب عمر وسأل عنه الوفد الذى جاءه. فقالوا: إنه فقير لأنه ينفق ما لديه على المساكين، ويقول لهم: ماذا أصنع وقد أصبحتم فى حسابى!!. لقد أضاعنى عمر. فقال عمر: والله ما أضعته ولكنه أجهدنا معه، وكيف هو معكم؟. فقالوا: نعيب عليه أربع خلال(٢). لا يخرج إلينا إلا ضحى — ولا نراه بالليل — ويحتجب يوما فى الشهر — ويصيبه إغماء بين حين وحين.

فعجب عمر وأعطاهم مالا حملوه إليه ليستعين به على حوائجه، فوزعه على فقراء الجيش، ثم أرسل له عمر وسأله عن الأربع خلال. فأجاب قائلا: يا أمير المؤمنين؟ أما خروجى ضحى فليس لى خادم، وزوجى مريضة، فأنا أعمل لها عملها بعد الفجر حتى يضحى النهار، وأما إحتجابى بالليل، فإنى جعلت النهار للناس، والليل لله، وأما اليوم الذى أحتجب

---

(١) حمص مدينة من مدن سوريا بالشام.

(٢) خلال أى خصال مفردها خلة بفتح الخاء المعجمة.

فيه كل شهر فليس لى إلا ثوب واحد أغسله فى هـذا اليوم حتى يجف
فألبسه ، وأما الإغماء . فـكلما تذكرت الشهيد « خبيب بن عـــدى
حين قتل وأنا يومئذ كافر ، وقد شهدت مقتله ندمت أن لم أكن أسلمت
يومئذ حتى أدفع عنه السوء ، فـكان عمر كلما تذكر سعيداً هـذا بكى
بكاء بشدة »(١) .

(١) بتصرف من كتاب قبس الإيمان للشيخ عبد اللطيف المشتهرى ص ٣٧ .

جندى مؤمن

ثانى هذه النماذج جندى مؤمن نحن الآن أحوج ما نكون إلى أمثاله إنه أحد أفراد الجيش الإسلامى - بالقادسية -(١) وهو فقير ليس عنده ما يدخره ، عثر هذا الجندى على صندوق به جواهر غالية فدفعه إلى قائده. فعجب القائد من أمانته مع فقره . وقال له : ما إسمك حتى أذكرك لعمر فيعطيك ويثنى عليك أمام الناس ؟ . فغضب الجندى المؤمن الباسل ، وقال القائد : لو أردت عمر ، مارأيت الصندوق أنت ولا عمر ، ولكننى أردت وجه ربى ، وربك ، ورب عمر ، فدعا له بخير ، وأرسل الجواهر كما هى إلى أمير المؤمنين . فلما وقف على الخبر - رحمه الله قال - : أشكر الله أن جعل فى جيش الإسلام مثل هذا الأمين . فقال له أحد الحاضرين ، يا أمير المؤمنين : « عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا » نعم . فإنه لا إيمان لمن لا أمانة له ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم(٢) .

---

(١) كانت موقعة القادسية فى السنة السادسة عشرة لهجرة ٦٣٦ م والقادسية فكان بالعراق .

(٢) نفس المرجع ص ٥٧ بتصريف .

عـــالم مؤمن

ثالث هذه النماذج عالم مؤمن . والعالم : كل من علم خيراً أو رأى مصلحة لأمته فى شيء لا يصادم الدين فتعلمه وعلمه سواء أكان متخصصاً فى علوم الدين أم غيرها كالطب أو الفلك ، أو الهندسة ، أو غير ذلك من كل ما فيه نفع للإنسانية وأباحته الشريعة الغراء ، وعليه أداء النصح لمن ولى أمره إذ مسئوليته كعالم لا تقل عن مسئولية الحاكم ، وعلى الحاكم قبول التوجيه فى تواضع ورضا وهذا هو التجاوب الكريم المؤدى إلى إصلاح الأمة ، وما أصدق القائل : « صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس ، العلماء والأمراء » والنموذج الذى معنا من العلماء هو — سفيان الثورى — رضى الله عنه ، تقابل مع المنصور فى موسم الحج ، فقال له الخليفة العباسى : إدفع إلينا حاجتك . فقال سفيان : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً ، فخجل المنصور ولكنه إحترم العلم ومضى يعيد السؤال : يا سفيان : إدفع إلينا حاجتك . فقال : إن ملككم هذا وصل إليكم بسيوف المهاجرين والأنصار ، وإن أبناءهم الآن يموتون جوعاً فاتق الله وأوصلهم بحقوقهم ، فطأطأ رأسه ، ثم أعاد السؤال : إدفع إلينا حاجتك . فقال سفيان : إن عمر بن الخطاب حج ثم سأل خادمه : كم أنفقنا فى حجنا ؟ فقال الخادم : بضعة عشر درهما . فقال عمر : يا الله ، لقد أجحفنا ببيت مال المسلمين وإنى أرى أموالا تبعثر ذات اليمين وذات الشمال ، ومع هذه الشدة من سفيان فإن المنصور لم يصنع معه إلا التقدير والإجلال لأنه كان يعلم حسن قصده ، وبراءة ضميره من كل مأرب شخصى أو شهرة ذاتية »(١) .

---

(١) بتصرف من نفس المرجع ص ٧٨ .

مؤمن واحد يتحدى قوى الطغيان مجتمعة

جاء فى صفحة ٢٤٣ من المجلد الأول من النشرات الدينية لوزارة الأوقاف المصرية ماخلاصته: أثبت التاريخ أن الذين تربوا فى مدارس الأنبياء، وأشربوا تعاليم الله هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة الحقة ، واعتدل فى أيديهم ميزان الحق والعدل ، وانكشفت بسبب وجودهم ، ونقاء أخلاقهم أساليب الخيانة ، والقدر ، وانفضح الأدعياء المزيفون .

وتفيق البشرية من غفوتها فى العديد من الأوقات لترى وتسمع نمطاً جديداً من الناس يعطى من نفسه ليسعد غيره ، ويرضى بالهلاك لذاته كى تحيا وتنهض أمته .

من بين هؤلاء مؤمن آل فرعون الذى يذكر القرآن الكريم أنه وقف وحده فى معارضة الباطل ، والظلم ، والفساد ، غير مبال بما يفعل به من قبل المتكبرين ، ومن عاونهم من المتزلفين، ويقف صامداً مع الحق وقت أن أذعن قومه لفرعون لما قال لهم كما حكى القرآن الكريم : « ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد »(١) .

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة غافر .

ويعلن في إيمان وثبات أن الرضا على الجريمة مشاركة للجاني في فعلها ويقول بإيمان صادق لقومه : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب » (١).

ثم ينتقل من موقف الدفاع عن الفرد إلى قضية أمته كلها فيبدي مخاوفه، وينصح لقومه ، ويحذر من العاقبة في أسلوب لين مهذب : « ياقوم لكم الملك اليوم مظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا »(٢).

ولما وجد مشاعرهم قد تحجرت ، وأعمتهم مناصبهم ، وأنساهم آلام الآخرين صلف قاتل مغرور . صارحهم بأمره ، وانحاز عنهم بدينه ، وكان شجاعاً في موقفه ، ثابتاً على مبدئه ، حكيما رشيداً في أسلوب دعوته معتمداً على ربه الذي نجاه في النهاية وأهلك الآخرين :

« وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب وياقوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة غافر .

(٢) من الآية ٢٩ من سورة غافر .

لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسافرين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب »(١)

(١) الآيات من ٣٨ إلى ٤٠ من سورة غافر .

امرأة مؤمنة مجاهدة

وخامس هذه النماذج امرأة مؤمنة . إنها « تماضر بنت عمرو السلمية » الشهيرة بالخنساء ، تعطى المسلمات درساً عملياً فى الجلد والصبر النابع من صدق الإيمان ، وطهر العقيدة .

لقد كانت قبل إسلامها لا تصبر على بلاء ولا ترضى من الله بقضاء، جزعت أشد الجزع على أخويها ـ معاوية وصخر ـ لما قتلا ، ورثتهما رثاء حاراً بزفرات مؤلمة وعبرات منهمرة ، وحفظ التاريخ عنها أشعاراً غاية فى الرصانة والدقة أنشأتها فى أخيها صخر ، وأوشكت أن تقتل نفسها إنتحاراً من عظم وقع المصاب عليها ، أما بعد أن أشرقت شمس الإسلام فى قلبها فقد تحولت إلى طاقة من الجلد والصبر ، والرضا والثبات ، يظهر هـذا جلياً فى موقعة القادسية عندما دعا داعى الجهاد، جمعت أبناءها الأربعة قبل الموقعة تحرضهم على الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن دينه ، وتنهاهم عن الفرار مهما كانت الأسباب والنتائج ، وتقول لهم فى ثبات بالغ ، وتوجيه حكيم : « يا بنى والله إنكم لبنو أب واحد ، وبنو أم واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت أخوالكم وقد أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين فإذا أتيتم الحرب فخوضوا غمارها ، واندفعوا فى أتونها(١) ، وكونوا أول المبارزين ، وخير الثابتين » .

إنه الإيمان فى قلب الأم الرءوم ، وقد أصبحت بفضله كقائد يشعل الحماس فى نفوس جنوده البواسل ، وكان من نتيجة ذلك أن صار هؤلاء

---

(١) الأتون ، بتشديد التاء الفوقية المضمونة : الموقد اى المكان الذى توقد فيه النار .

الأسود الأربعة فوارس الميدان ، وحماة العقيدة ، يحرسهم إيمانهم بالله ، وقد حرصوا على الشهادة حتى جاءتهم كراماً مقبلين غير مدبرين ، واستشهدوا جميعاً ، وجاء النبأ لأمهم ، وقال لها الناعون ياخنساء : استشهد بنوك الأربعة وكان ماضيها يقرر أنها ستموت حتف أنفها عندما تعلم نبأ بنيها ، ولكن الإيمان بالله جعل منها شيئاً آخر إنها تنطق فى فم الزمان بكلمات المجد والبطولة إنها تقول : « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى الإسلام ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته »(١).

ومن هنا لا نعجب إذا رأينا رسول الله / صلى الله عليه وسلم / ينصت لشعرها بعد أن أسلمت ، ويسر به ، ويقول : « هيه ياخناس » ، ويومىء – أى يشير – بيده فيستنشدها ويعجب ، وكانت تزور عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – فتكرمها ، وجاء عمر – رضى الله عنه – فزاد فى إكرامها ، وأجرى عليها أرزاق بنيها الأربعة الذين استشهدوا حتى قبض(٢). وذلك كله راجع إلى الإيمان الذى صنع من أصحابه رجالا كالملائكة يمشون على الأرض مطمئنين .

---

(١) من كتاب قبس من الإيمان الشيخ عبد اللطيف المشتهرى ص ٧٤ بتصرف .
(٢) نفس المرجع والصفحة .

« قضية التوحيد »

ولما كانت العقيدة مبنية على الإقرار بوحدانية الله ، كانت قضية التوحيد هى لب القضايا العقدية ، لأن الإنسان لا يصح إيمانه ، ولا يفلح إعتقاده إلا إذا أخلص العبودية لربه ، وأيقن أنه لا إله إلا الله ، وآمن بأن المعبود الذى يستحق العبادة ، والخضوع ، والمذلة من ركوع وسجود وتقديس هو الله وحده ولا أحد سواه .

ولقد تورط كثير من الناس فى عدم إخلاص التوحيد لله تعالى لأن البشرية فى أطوارها المختلفة كثيراً ما ألغت عقولها ، ونزلت عن المكانة التى اختارها الله لها ، فتوهمت أنها أقل شأناً من أن يكون إتصالها بالله مباشراً ، فاتخذ الناس آلهة غير الله من البشر أو الحجر أو النار أو الشجر ، أو غيرها . يعبدوها وتقربوا إليها كى تقربهم هذه الآلهة بدورها إلى ربهم ، وتقضى لهم حاجاتهم ، وتلبى رغباتهم وقالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى (١) » .

وبهذا سموا مشركين لأنهم أشركوا مع الله غيره فيما هو مختص به تعالى ، ولا يصح أن يكون لغيره وله العبادة والدعاء والنذر والاستغاثة وقت الشدة . وغير ذلك مما هو مختص لله عز وجل . وقد كانوا مع ذلك يعلمون

---

(١) من الآية الثالثة من سورة الزمر :

بأن الله موجود ، وأنه هو خالق الكون ومدبره قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (١) . وإن كان علمهم هذا لا يجعلهم فى مصاف المؤمنين بوجود الخالق الرازق ولو وصلت معرفتهم بربهم إلى حد الجزم والتصديق لوحدوه سبحانه وتعالى فى العبادة فلم يشركوا به شيئاً ، ولم يعبدوا غيره . لكنهم لما أشركوا معه فى العبادة غيره دل ذلك على أنهم لم يصلوا إلى حد الجزم واليقين فى معرفتهم بأن الله هو الخالق ، الرازق المحيى ، المميت إلخ الصفات الكمالية له سبحانه، فالمعرفة وحدها لا تعطيهم صفة الإيمان عند الناس الذين يعتد بهم ولا يكونون بها من الناجين عند الله . يقول الإمام ابن تيمية : « فأما توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام فلا يكفى وحده ، بل هو من الحجة عليهم وهذا معنى ما يروى : « يا ابن آدم » خلقت كل شىء لك وخلقتك لى فبحق عليك أن لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له » (٢) ولو كان مجرد المعرفة بالرب ـ سبحانه ـ يعطى صفة الإيمان لكان إبليس فى مصاف الصفوة من المؤمنين لأنه كان يعرف ربه كثيراً ولم يقل بذلك أحد ممن يعتد بقوله لأنه خرج عن طاعته سبحانه ، وأوامره . وكثير من الكافرين يعرفون ربهم ومع ذلك لم يؤمنوا به كإله واحد يستحق وحده للعبادة .

من هنا أقول : إن التوحيد الذى جاءت به الرسل هو التوحيد العام الذى هو : الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحيى المميت

---

(١) الآية التاسعة من سورة الزخرف .
(٢) مجموع فتاوى تيمية المجلد الأول ص ٢٣ .

النافع الضار المدبر لكل شئون خلقه . والاعتقاد الجازم بأن الصفات التى وصف الله بها نفسه وبأن أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه والاعتقاد الجازم بأن الله هو وحده المستحق للعبادة . فيشمل توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، وتوحيد الصفات والأفعال . .

غير أن القسم الذى عانى منه الأنبياء كثيراً مع أقوالهم : هو توحيد الإلهية لأن الناس لما كانوا يعرفون أن الله هو الخالق الرازق لم يحتج الرسل كثيراً إلى إقامة أدلة لهم على ذلك . أما إشراكهم مع الله غيره فى العبادة ، وكفر بعضهم به أصلا فهو الذى أجهد الرسل وجعلهم يأتون لهم بالدليل تلو الدليل على أن الله سبحانه هو وحده المستحق للعبادة لأنه الخالق الرازق المدبر .. الخ .

وتوحيد الإلهية أيضاً هو الذى لقى المعارضة الشديدة من المشركين وهو الذى وقعت الحروب بسببه بينهم وبين المؤمنين . وهو الذى حاول المشركون القضاء على الدعوة إليه بكل طريقة استطاعوها دفاعا عن أصنامهم ومعبوداتهم . وهو الذى لما تنكر له الناس سموا مشركين وخلد فى النار من مات منهم غير موحد الاعتقاد والعبادة لله رب العالمين لأن إشراك غير الله معه - سبحانه وتعالى - فى العبادة هو الكفر الذى حاربته الأديان ، القائلين به ، وهو الذى حاول الرسل القضاء عليه حتى يخلص التوحيد كله لله - تعالى - بلا شائبة من شرك خفى أو جلى .

والقرآن الكريم به كثير من الآيات التى تعطينا الفكرة الواضحة

عن الخطر الذى سارت فيه هذه القضية قضية توحيد الله فى العبادة . من تلك الآيات قول تعالى :

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »(١) وقوله : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »(٢) . وقوله سبحانه : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون »(٣) وقوله جل شأنه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »(٤) . وقوله تبارك إسمه : « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »(٥) وقوله جل ذكره : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين »(٦) .

ويقول عزجاهه : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله

---

(١) سورة الاخلاص الآيات من ١ : ٤ .
(٢) الآية ١٦٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ٥٩ من سورة الأعراف .
(٦) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة الزمر .

اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً وحداً ونحن له مسلمون(١) » . ويقول جل ثناؤه : وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (٢) .

ويقول عز من قائل : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٣) .

ويقول تعالى شأنه حكاية كفار قريش حين دعاهم رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عبادة الله وحده : .

« اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » (٤) .

ويقول سبحانه :

« إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » (٥)

---

(١) الآيات من ١٣٠ الى ١٣٣ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان : ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٧٣ من سورة المائدة .
(٤) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة ص
(٥) الآية ١٤ من سورة فاطر .

كما يوجد الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة والآثار النافعة المفيدة التى تدل على وحدانية الله تعالى . من هذه الأحاديث مارواه مسلم ـ رضى الله عنه ـ عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله / صلى الله عليه وسلم / أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل الله ندا(١) وهو خلقك » . قال : قلت له : إن ذلك لعظيم . قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قال : قلت ثم أى ؟ قال : « ثم أن تزانى حليلة جارك »(٢) .

ومنها مارواه البخارى عن عبد الله بن عمرو / رضى الله عنهما / قال : جاء أعرابى إلى النبى / صلى الله عليه وسلم/فقال : يارسول الله : ما الكبائر ؟ . قال : « الإشراك بالله » قال : ثم ماذا ؟ قال : « ثم عقوق الوالدين » قال : ثم ماذا ؟ قال : « اليمين الغموس » قلت وما اليمين الغموس ؟ . قال : « الذى يقتطع مال امرىء مسلم هو فيها كاذب »(٣)

ومنها مارواه مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال : إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل ، الحديث(٤) .

---

(١) الند : الشريك .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٢ ص ٨٠ باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ج ١٢ ص ٢٦٤ باب اثم من أشرك بالله .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٩٩ باب الدعاء الى الشهادتين .

وفى الرواية الأخرى عن ابن عباس أن معاذا قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » الحديث(١) .

وروى مسلم أيضاً عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ثم قرأ « إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »(٢) .

وفى ص ٢٣١ والتى بعدها من الجزء الأول من شرح صحيح مسلم للنووى أن الإمام مسلم - رضى الله عنه - ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : « هل تدرى ما حق الله على العباد » ؟ . قال : قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . .

ثم قال له : « هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك » ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : « أن الله لا يعذبهم » .

وروى مسلم كذلك عن أبى ملك عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله

---

(١) نفس المرجع والباب ج ١ ص ١٩٦ والتى بعدها .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢١١ فى فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله »(١) .

ومن الآثار ما رواه ابن هشام فى سيرته قال : « عندما دعا النجاشى جعفر بن أبى طالب ـ وهو ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ليكلمه عن الدين الجديد ـ بعد الهجرة الحبشة ـ قال له : « أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وآداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام .. فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا »(٢) .

والعرب قبل الإسلام كانت عقائدهم متباينة ، ومعتقداتهم متنوعة . يقول عنهم الدكتور / حمودة غرابة فى كتابه (ابن سينا بين الدين والفلسفة) « وإما عقائدهم فقد كانوا على خلاف فيها والقرآن نفسه يجمع فى آية واحدة جميع المذاهب التى كانوا يقتنقونها ، تلك الآية هى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٢١٢ فى فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

(٢) السيرة النبوة لأبى الحسن الندوى ص ١١٥ .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد »(١) .

فالعرب كان فيهم يهود ونصارى ، وكان فيهم صابئة تعبد الكواكب. ومجوس على مذهب الفرس فى القول بأصلين للعالم وبإلهين ، إله الخير وإله الشر ، وأخيراً كان فيهم مشركون وهؤلاء المشركون لم يكونوا على رأى واحد ، فبعضهم أنكر الخالق ، وقال بالطبع المحيى ، والدهر المفنى وهم الذين أخبر عنهم القرآن بقوله : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »(٢) .

وصنف أقر بالخالق وقال بحدوث العالم ، ولكنه مع ذلك أنكر البعث والإعادة ، وعنه يتحدث القرآن بقوله : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم »(٣) .

ومنهم من أقر بالخالق وابتداء الخلق وإعترف بنوع من البعث ، ولكنه أنكر الرسالة وعبد الأصنام على أن تشفع له عند الله ، فقدم إليها القرابين وأصبح يحج إليها وهؤلاء هم الدهماء من العرب ، وأصحاب الأغلبية فيهم ، وإليهم يشـــير القرآن الكريم بقوله : « ألا لله الدين

(١) الاية ١٧ من سورة الحج .
(٢) الاية ٢٤ من سورة الجاثية .
(٣) الاية ٧٩ من سورة يس .

الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار» (١).

وقد كان بجانب هؤلاء من يقوم بعبادة الجن . أو الملائكة (٢).

ويصف الكلبى فى كتابه «الأصنام» كيف دخلت الوثنية على العرب بعد أن كانت الديانة الغالبة فى جزيرة العرب وخاصة فى مكة وما جاورها - ملة إبراهيم الحنيفية السمحاء منذ بنى الكعبة ودعاهم إلى الله واستوطن إسماعيل هذه الديار وأصبح أبا العرب المستعربة .

فيقول : « بعد ذلك أصابهم ما أصاب غيرهم من عدوى الوثنية وكان الذى سلخ (٣) بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن (٤) من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة (٥) بمكة، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً به وصبابة بالحرم، وحباله ، وهم بعد ذلك يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كان عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره .

---

(١) الآية الثالثة من سورة الزمر .
(٢) ص ٢١٣ والتى بعدها ببعض تصرف .
(٣) سلخ بهم أى وصل بهم .
(٤) لايظعن أى لا يخرج .
(٥) صبابة بمكة أى شدة شوق أليها .

فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم . . . وأول من غير دين إسماعيل - عليه السلام هو - عمر بن ربيعة بن لحى - أبو خزاعة - مرض مرضاً شديداً فقيل له : إن البلقاء (١) حمة(٢) إن أتيتها برئت ، فأتاها فاستحم بها فبرىء ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ماهذه ؟ فقالوا : نستقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة »(٣) ا . هـ .

وعلى قول الكلبي تكون عبادة الأوثان قد بدأت بأخذ الخارجين من مكة أحجاراً من الحرم بقصد التعظيم ثم بتقادم العهد عبدوها ويكون أول من أدخلها للجزيرة بقصد العبادة والتقديس هو عمر بن ربيعة .

ولقد تعددت الأوثان والأصنام ببلاد العرب وقبائلهم حتى كان لكل واحد منهم إله فى منزله فى بعض الأحيان ، وكان بعضها من الحجر ، وبعضها من الشجر ، وبعضها من الخشب ، وبعضها من البلح ، وربما كان للقبيلة الواحدة إله أو آلهة متعددة . ولم يمنع ذلك من أن يكون هناك أصنام رئيسية تتمتع بالتقديس والتعظيم من كل القبائل أو معظمها(٤) » .

ولقد ذكرت آيتان متجاورتان من سورة النجم ثلاثة من هذه الأوثان

---

(١) البلقاء : مدينة بالشام .

(٢) الحمة : بفتح الحاء المهملة بعدها ميم مشددة مفتوحة هى : العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى .

(٣) الله فى العقيدة الإسلامية للشيخ حسن البنا ص ٣٠ ببعض تصرف .

(٤) نفس المرجع والصفحة بشىء من التصرف .

هى : اللات ـ والعزى ـ ومناة ـ وكان العرب يعبدونها ويقدسونها على أنها بنات الله .

فرد القرآن على هذه الدعوى الكاذبة بقوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »(١).

وأقدم هذه الثلاثة هو مناة ، وقد يسمون بعبوديته فيقولون . عبد مناة أو زيد مناة ، وكان منصوباً على ساحل البحر الأحمر من ناحية الشمال بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله ويهدون له . وكان من أشدهم تعظيما له . الأوس والخزرج حتى كانوا لا يحلقون رءوسهم بعد الحج ، ولا يحلون من إحرامهم إلا عنده ، ويرون ذلك من تمام الحج .

أما اللات : فهى صخرة مربعة كانت بالطائف وهى أحدث من مناة. وسميت بهذا الإسم لأن يهودياً كان يلت السويق عندها فسميت ـ اللات ـ وكان سدنتها(٢) من ثقيف وهم بنو عتاب بن مالك ، وقد بنوا عليها بناء وكانت قريش والعرب جميعاً تعظمها وتسمى بها فيقولون : ـ زيد اللات ـ و ـ عبد اللات ـ .

وقد بعث إليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا سفيان بن حرب

---

(١) الآيات ١٩ الى ٢٣ من سورة النجم .
(٢) سدنتها أى خدمها .

والمغيرة بن شعبة بعد فتح مكة وإسلام ثقيف بالطائف فهدماها وجعلا مكانها مسجداً بالطائف .

والعزى : هى أحدث من مناة واللات وكان الذى اتخذها ـ ظالم ابن أسعد ـ وكانت بواد من نخلة ـ الشامية يقال له حراض بإزاء الغمر عن يمين المصعد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش يزورونها ويهدون إليها ، ويتقربون عندها بالذبح ، ويسمون بها ، وإليها نسب عبد العزى بن عبد المطلب وهو أبو لهب ، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم يقال له الغبغب وكان سدنتها بنـــو شيبان بن جابر بن مرة من بنى سليم ، واختلفوا فى حقيقتها . فقيل صخرة، وقيل بيت : وقيل ثلاث سمرات ـ أى شجرات ـ متشابكة .

وقد بعث إليها رسول الله / صلى الله عليه وسلم / خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ بعد الفتح أيضاً فأزالها(١) وإنما اقتصرت الآيات على هذه الأصنام الثلاثة ـ مناة ـ و ـ اللات ـ و ـ العزى ـ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأهمها . وإن كان لهم أصنام كثيرة منها : هبل ـ وأساف ـ ونائلة ـ وسعد ـ والشرى ـ والأقيصر ـ وذو الخلصة ـ إلى الأوثان .

ونظرة العرب إلى الأوثان كانت متنوعة ، فتارة يؤمنون بها على أنها

---

(١) بتصرف من كتاب الله فى العقيدة الإسلامية الشيخ حسن البنا ص ٣٣ والتى بعدها .

آلهة ، وأخرى يعتبرونها بنات الله ، وثالثة يقولون : إنها وسطاء وشفعاء بين الله وعباده فأشركوها مع الله فى الألوهية مع اعترافهم باستعلاء الله عليها بالملكية كما يقولون فى تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك(١) ، لبيك لاشريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

وكانوا أحياناً يكفرون بها ويحقرون من شأنها كما ذكر بعض المؤرخين أن امرأ القيس بن حجر حين خرج يطلب بثأر أبيه ضرب الأزلام (٢) عند الصنم المسمى ـ بذى الخلصة ـ فخرج له القدح (٣) الناهى . فغضب وضرب وجه الصنم بالقداح جميعاً وقال له : قبحك الله ، والله لو كان أباك . ـ أى لو كان المقتول أباك ـ ما قعدت عن ثأره(٤) ، وهذا ما دعا كثيراً من عقلائهم إلى التنزه عن عبادتها . ـ كزيد بن نفيل ـ وأمية بن أبى الصلت ـ وقس بن ساعدة ـ وغيرهم من الحنفاء الذين أنفوا من الوثنية وتلمسوا طرق الهداية فى غيرها من المعتقدات .

ومن هؤلاء من أدرك الإسلام ولم يسلم كأمية بن أبى الصلت ، ومنهم من أثنى عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبشر بنجاته وفوزه ـ كورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة(٥) .

---

(١) لبيك اللهم لبيك : أى نحن مقيمون على طاعتك وملازمون لها .

(٢) الأزلام : هى السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها .

(٣) القدح الناهى : بكسر القاف وسكون الدال المهملة ـ أى السهم الذى يقول له : لا تفعل وجمعه : القداح .

(٤) وإن كنت أرى أن مثل هذه الحادثة لا تجعلنا نجزم باحتقارهم لها . لأن امرأ القيس لما جاء يضرب الأزلام كان معتقداً فيها غير محتقر لها . غير أن غضبه أخرجه عن صوابه لما خرج القدح الناهى . وخاصة أنه جاء إلى الأزلام وقد تهيأ للطلب بثأر أبيه المقتول .

(٥) نفس المرجع والصفحة

ولقد كانت الاعتقادات المختلفة مصدر حرب جدلية فيما بينهم لا تقل في حدتها عن الحرب التي كانوا يستعملون فيها الرمح وحد الحسام ويعلق الدكتور حمودة غرابة في كتابه ـ ابن سينا بين الدين والفلسفة ـ على حالتهم تلك فيقول : « وهكذا كان العرب قبل الإسلام . فقر ، واختلاف يزيد من شدته ، وفساد في العقل ، وإمعان في الجهالة ، وضلال في العقيدة ، وانحلال في الأخلاق . بجانب صفات(١) لهم أهلتهم لأن يعلق عليهم الدين الجديد أكبر الآمال في نشر مبادئه في سائر الأنحاء .

جاء الإسلام وعقول العرب مقيدة بما توارثوه من آبائهم فندد بهم وبآرائهم واعتمادهم على ما يقوله هؤلاء الآباء ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون (٢) .

وبذلك هدم الدين قداسة هذه الدعامة ، ووضع جميع ما أخذه العرب عن آبائهم بطريق التقليد موضع الاختبار(٣) ثم هداهم إلى المنهج الصالح في الوصول إلى الحق ، وهو البحث الحر ، والتأمل المطلق في الكون وما فيه من نظام وإبداع ، ثم غذى عقولهم بوساطة الوحي بمعارف لا يستطيع

---

(١) مثل الشجاعة ـ والكرم ، وإكرام الضيف ، ونصرة المظلوم .

(٢) ولقد ذكر ذلك القرآن الكريم في مواضع منها قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » الآية ١٧٠ من سورة البقرة .

(٣) في كل ما يتصل بالأمور العقدية أما غير ذلك فما كان موافقا للشريعة الخاتمة أقره وحث عليه وما كان منافيا لها أبطله وحرمه .

أن يصل العقل وحده إليها كالمعارف المتعلقة بالبعث وغيره ، وقرر لهم عقيدة صالحة أبدلتهم بالأوثان إلهاً واحداً قديراً له ملكوت السموات والأرض وفى يده جميع ما فى الكون »(١).

(١) ص ٢٧ والتى بعدها .

أمور تعكر صفو الإيمان

وقد يتورط بعض من المسلمين فى أفعال وأقوال واعتقادات تتنافى مع توحيد الله سبحانه فى العبادة فتعكر صفو الإيمان بالله فى قلوبهم وكثيراً ما يكون فعل هذه الأشياء عن حسن قصد أو جهالة أو تغرير لذا يتعين أن نذكر بعضاً منها لنتقى كل ما يبعدنا عن الدين الخالص والعقيدة الصادقة .

الريــــاء

« وهو إظهار الجميل ليراه الناس لا لإتباع أمر الله »(١) أى أن المرء يحسن عمله أمام الناس حتى إذا خلا مع نفسه أو مع رفقه بمـا ثلة له أساء العمل وأداه ناقصاً وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون »(٢) . وقال تعالى مبيناً أن الرياء من صفات المنافقين : « إن المنافقين يخدعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا »(٣) .

وقال تعالى محذراً من الرياء وأمثاله من أنواع الشرك : « يا أيها الذين

---

(١) فتح القدير للشوكانى ج ١ ص ٥٢٩ .

(٢) الآيات ٤ إلى ٧ من سورة الماعون .

(٣) الآية ١٤٢ من سورة النساء .

آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر »(١) .

وقال جـل شأنه حاثا عباده على الإخلاص وآمر بطرح كل ألوان الشرك : « فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً »(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه عبد الرازق وأبو يعلى وابن جرير الطبرى : « من أحسن الصلاة حين يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك إستهانة إستهان بها ربه تبارك وتعالى »(٣) .

وفى الحديث الذى رواه البيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صام يرائى فقد أشرك ، ومن صلى يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك »(٤) وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه »(٥)

ويقول الإمام الشوكانى فى فتح القدير :

« وأخرج أحمد بن منيع فى مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة أن قائلا من المسلمين قال : يارسول الله ما النجاة غداً ؟ قال : « لاتخادع الله » قال : وكيف نخادع الله ؟ . قال : « أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره »

---

(١) من الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .
(٢) من الآية ١١٠ من سورة الكهف .
(٣) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ١ ص ٣١ .
(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٥) رياض الصالحين للإمام النووى ص ٥٩٢ .

فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله ، فإن المرائى ينادى يوم القيامة على رءوس الخلائق بأربعة أسماء : يا كافر ، يا فاجر ، يا خاسر ، ياغادر ، ضل عملك وبطل أجر فلا خلاق لك اليوم عند الله فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع وقرأ آيات من القرآن : «فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً »(١) و «إن المنافقين يخدعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا »(٢) .

وأخرج ابن جرير عن ابن وهب قال : سألت ابن زيد عن قوله -تعالى- «يخادعون الله والذين آمنوا » ، قال : هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا إنهم مؤمنون بما أظهروه . وعن قوله : « وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون «أنهم ضروا أنفسهم بما أضمروا من الكفر والنفاق »(٣) .

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف .
(٢) الآية ١٤٢ من سورة النساء .
(٣) ج ١ ص ٤١ .

دعاء غير الله والاستغاثة به

الدعاء هو : طلب من الأدنى للأعلى . والإستغاثة هى : طلب الغوث والعون لإزالة الشدة . كالاستنصار : طلب النصر ، والإستعانة : طلب العون . والفرق بين الإستغاثة والدعاء . أن الاستغاثة لا تكون إلا من مكروب أما الدعاء فيكون من المكروب وغيره ، فلو أو إنسانا وقع فى شدة فقال : يارب فرج كربتى ، يكون بذلك مستغيثاً بالله أى طالباً غوثا ، وهو إزالة الشدة ، ويكون أيضاً داعياً لله ، أما لوكان لاشدة عنده ثم قال: يارب إقبل عملى . يكون بذلك داعياً لله وليس مستغيثاً . فالدعاء أعم من الاستغاثة . وكما بينا يكون بين الدعاء والإستغاثة عموم وخصوص مطلق يجتمعان فى شىء وينفرد الأعم منهما فى شىء آخر . ومعنى ذلك : أنهما يجتمعان وقت الشدة وينفرد الدعاء حيث لاشدة .

وهذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية لأنه شائك وخطير . وقد يكون الفرق بين الجائز منه والممنوع غاية فى الدقة ، ومع دقة الفارق فإن الوقوع فى الممنوع منه قد يكون معناه الوقوع فى الشرك الذى هو كفر يؤدى إلى الخلود فى النار — والعياذ بالله تعالى .

لذا فقد وجب أن نتناوله بالحكمة ، وأن نحكم شرعة الله ونسير عليها عند الإقدام عليه ، مع فكر واع ، وإدراك رشيد .

فالإنسان إذا وقع فى شدة وتوجه إلى الله تبارك وتعالى مستغيثاً به فتلك عبادة كالدعاء ، وعلى الإنسان أن يتوجه كلية فى دعائه ، وإستغاثته إلى الله

وحده . لأنه — سبحانه — القادر على أن يجيب المضطر . وأن يستجيب لمن يدعوه ، وهو — تعالى — الأحق بأن يستغاث به ، والأحق بأن يستعان به ، والأحق بأن يدعى ويطلب منه كل شيء . وقد وجهنا ، سبحانه إلى أن نستغيث به لأنه لا يقدر على إغاثتنا إلا هو فقال : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون »(١) .

ويقول لرسوله محمد — صلى الله عليه وسلم — والخطاب عام لكل أمته : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم »(٢) .

كما أمرنا ـ سبحانه ـ بأن نتوجه إليه وحده بالدعاء والإستغاثة فقال فى محكم كتابه : « وقال ربكم أدعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »(٣) .

وقال — عز شأنه — : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »(٤) .

---

(١) الآية ٦٢ من سورة النمل .

(٢) الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة يونس .

(٣) الآية ٦٠ من سورة غافر .

(٤) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة »(١) ثم قرأ : « وقال ربكم أدعونى أستجب لكم » الآية . وقد مرت منذ قليل .

ويقول الشيخ حسن أيوب فى كتابه : « تبسيط العقائد الإسلامية » :

« وإذا كان هذا شأن الدعاء والإستغاثة فلا يجوز لإنسان أن يستغيث بغير الله تعالى ولا أن يدعوه ، ويسأله قضاء حاجاته وإغاثته من مكروه نزل به إلا إذا كان المستغاث به ، والمدعو قد أذن الشرع بأن نستغيث به وندعوه وذلك فى حالات معينة .

وقد تكون واجبة مثل أن يقع الإنسان فى كارثة ومصيبة يرجو الخلاص منها كأن يقع فى نهر أو بئر فيطلب من أى واحد من المارة أن يغيثه وينقذه وكأن يصطدم بسيارة ، أو تشب فيه نار ، أو يصاب بمرض من الأمراض . وأمثال هذه الأمور التى تعارف الناس عليها وإعتادوا على أن يطلبها الإنسان من الإنسان الحى ، ولم يأت من الشرع ما يمنع ذلك . أما مالم يأذن به الشرع فالدعاء له والإستغاثة به ممنوعان وذلك كالإستغاثة بالأصنام ، والأموات ، والجن ، والملائكة ، وأمثالهم لأن هذا نوع من الشرك ، وبسببه ضل كثير من الناس وإنحرفوا عن الطريق الصحيح »(٢) .

ولقد نزل القرآن الكريم يبكت الذين لجأوا إلى المخلوقات فيما لم يأذن به الشرع . وبين أن يفعل ذلك يكون فى ضلال مبين قال تعالى : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى

---

(١) الحديث رواه أبو داود والترمذى وصححه وهذا لفظه .

(٢) ص ١٦٣ مع تقدم وتأخير وتصرف .

السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعاءهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين »(١) .

ويعلن الله — سبحانه وتعالى — أن المدعوين لن يسمعوا دعاء الداعين وحتى لو سمعوا فإنهم لن يقدوا على إجابتهم ، وسيبرأون منهم يوم القيامة . قال عز شأنه : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما إستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »(٢) وهذا يوضح أن هذا النوع من الإستغاثة شرك بالله تعالى ، وكذلك . ما يماثله من الدعاء ولذا قال تعالى : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين »(٣) .

---

(١) الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١٤ من سورة فاطر .
(٣) الآية ١٠٦ من سورة يونس .

الاستعاذة بغير الله تعالى

والاستعاذة لا تكون إلا بالله / سبحانه وتعالى / وقد عرفها الإمام ابن كثير فى ص ١٥ من الجزء الأول من تفسير القرآن العظيم بقوله الاستعاذة هى الإلتجاء إلى الله ـ تعالى ـ .

والإلتصاق بجنابه من شر كل ذى شر ، والعياذة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب الخير كما قال المتنبى :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
ولا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

أى إنى ألجأ إليك دائما ياربى فى جلب الخير ودفع الضر فأنت وحدك القادر على ذلك . وغيرك عاجز عن شىء من ذلك .

وقد أمرنا ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ بأن نستعيذ به عند قراءة القرآن وعند وسوسة الشيطان لنحصن أنفسنا بقوته سبحانه من كيـــد كل كائد ولنخلص كل أعمالنا وأقوالنا له جل شأنه .

قال تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (١) .

وقال سبحانه « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » (٢) .

---

(١) الآية ٩٨ من سورة النحل .
(٢) الآية ٣٦ من سورة فصلت

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم - كما يقول الإمام ابن كثير : أى أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى دينى أو دنياى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله (١) .

وقد ضل أناس طريق الله ، وانحرفوا عنه ، وساروا فى طريق الضلال . فاستعاذوا بغير الله من الجن والشياطين طالبين منهم العون وراجين منهم دفع الضر . وذلك انحراف عن العقيدة الصحيحة وبعد بالعبودية عن معناها الحقيقى ، وقد بين القرآن الكريم أن الاستعاذة بغير الله والالتجاء إلى سواه لا تفيد المستعيذ شيئاً بل تضره وترهقه . قال تعالى « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » (٢) .

يقول الإمام الشوكانى عند تفسير هذه الآية : « قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه فيبيت فى جواره حتى يصبح فنزلت هذه الآية .

وقال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيفة ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم » (٣)

ومعنى : « فزادوهم رهقاً » أى كلما وجد الجن أن الإنس يعوذون بهم خوفاً منهم زادوهم خوفاً ، وإرهاباً ، وذعراً حتى تبقى المخافة منهم أشد ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ١٥ .
(٢) الآية السادسة من سورة الجن .
(٣) فتح القدير جـ ٥ ص ٣٠٥ .

والتعوذ بهم أكثر (١) ، لذلك فإنه لا يجوز الاستعاذة بالجن ولا بغيره من المخلوقات لأن المخلوق مهما عظمت قوته فهى ضئيلة عاجزة ومهما أوتى من أسباب المتعة فإنه لا يقوى على دفع الضر عنه إن ألم به وبالتالى فهو أكثر ضعفا ، وأشد عجزا عن نفع غيره ، وعن دفع أى مكروه عنه .

وقد ذم ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ الكافرين لما لجأوا إلى الجن واستمتع بعضهم ببعض . وبين ـ سبحانه ـ أن الجن لا يستطيع نفع الإنس ولا ضره بل كل من استعاذ بغير الله كان فى النار هو ومن استعاذ به .

قال تعالى « ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا أستمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم » (٢) .

يقول الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما خلاصته « ويوم يحشرهم جميعاً » يعنى الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً « يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس » أى يامعشر الجن قد استكثرتم من إغوار الإنس وإضلالهم . « وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » أى يقول أولياء الجن من الإنس مجيبين لله تعالى عن هذا : ربنا استمتع بعضنا ببعض . فاستمتاع الإنس بالجنى فى أن يقضى الجنى له حوائجه وأن يمتثل أمره وأن يخبره بشىء من المغيبات عنه .

---

(١) خلاصة ما قاله ابن كثير فى تفسيره ج ٤ ص ٤٢٩ .

(٢) الآية ١٢٨ من سورة الأنعام .

واستمتاع الجنى بالإنسى أن يعظمه الإنسى ، وأن يستعيذ به وأن يخضع له . « وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » أى بلغنا الموت الذى كتبته علينا بانتهاء آجالنا فى الدنيا . « قال النار مثواكم » أى مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم « خالدين فيها » أى ماكثين فيها مكثا مخلدا إلا ما شاء الله »(١).

وفى بعض الكتب الإلهية : إن الله تعالى يقول : « وعزتى وجلالى لأقطعن أمل كل مؤمل غيرى باليأس ، ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس ، ولأخيبنه من قربى ، ولأبعدنه من وصلى ، ولأجعلنه متفكرا حيران . يؤمل غيرى فى الشدائد ، بيدى ، وأنا الحى القيوم ، ويرجو غيرى . ويطرق بالفكر أبواب غيرى ، وبيدى مفاتيح الأبواب ، وهى مغلقة وبابى مفتوح لمن وعانى » (٢) .

وعلى ذلك : فإن الاستعاذة لا تكون إلا بالله وحده . وقد بين لنا ـ سبحانه وتعالى ـ كيفية الاستعاذة وأنها لا تكون الآية وحده وذلك فى سورتين تامتين من كتابه الكريم هما : « قل أعوذ برب الفلق » إلى آخرها ، و « قل أعوذ برب الناس » إلى آخرها .

كما بينها لنا الرسول محمد / صلى الله عليه وسلم / بقوله : « من نزل منزلا (٣) فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرحل من منزله ذلك » (٤) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ١٧٦ بتصرف .
(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٧٥ .
(٣) منزلا أى مسكانا .
(٤) رواه مسلم .

وللفخر الرازى فى هذا المقام بحوث مستفيضة نأخذ منها ما خلاصته :
« أعلم أن الاستعاذة لا تتم إلا بعلم وحال وعمل . أما العلم فهو كون العبد عالما بكونه عاجزاً عن جلب المنافع الدينية والدنيوية وعن دفع جميع المضار الدينية والدنيوية، وإن الله تعالى قادر على إيجاد جميع المنافع الدينية والدنيوية وعلى دفع جميع المضار الدينية والدنيوية قدرة لا يقدر أحد سواه على دفعها عنه . فإذا حصل هذا العلم فى القلب تولد عنه حصول حالة فى القلب أيضاً وهى إنكسار وتواضع .

ويعبر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له، ثم إن حصول تلك الحالة فى القلب يوجب حصول صفة أخرى فى القلب وصفة فى اللسان أما الصفة الحاصلة فى القلب فهى : أن يصير العبد مريداً لأن يصونه الله تعالى عن الآفات ، ويخصه بإفاضة الخيرات والحسنات ، وأما الصفة التى فى اللسان فهى : أن يصير العبد طالبا لهذا المعنى بلسانه من الله ـ تعالى ـ وذلك الطلب هو الاستعاذة وهو قوله « أعوذ بالله . إذا عرفت ما ذكرنا يظهر لك أن الركن الأعظم فى الاستعاذة هو علمه بالله . وعلمه بنفسه أما علمه بالله فهو أن يعلم بأنه ـ سبحانه ـ عالم بجميع المعلومات . لأنه ـ سبحانه ـ لو لم يكن عالما بجميع المعلومات لجاز أن لا يكون الله عالما به ولا بأحواله فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثا ، ولا بد وأن يعلم كونه ـ تعالى ـ قادرا على جميع الممكنات ، وإلا فربما كان عاجزاً عن تحصيل مراد العبد ، ولا بد وأن يعلم أيضاً كونه جواداً مطلقاً، إذ لو كان البخل عليه جائزاً لما كان فى الاستعاذة فائدة ، ولا بد أيضاً وأن يعلم أن لا يقدر أحد سوى الله ـ تعالى ـ على أن يعينه على مقاصده ، إذ لو جاز أن يكون غير الله يعينه على

مقاصده لم تكن الرغبة قوية فى الاستعاذة بالله وذلك لا يتم إلا بالتوحيد المطلق، وأعنى بالتوحيد المطلق أن يعلم أن مدبر العالم واحد، وأن يعلم أيضاً أن العبد غير مستقل بأفعال نفسه، إذ لو كان مستقلا بأفعال نفسه لم يكن فى الاستعاذة بالغير فائدة .

وأما علمه بنفسه . فلابد وأن يعلم عجزه وقصوره عن رعاية مصالحه على سبيل الاستقلال . فثبت . بما ذكرنا أن العبد ما لم يعرف عزة الربوبية وذلة العبودية لا يصح منه أن يقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أما إذا حصلت فى قلب العبد المعرفة بعزة الربوبية ، وذلة العبودية وصار مشاهداً لها متيقناً فيها وجب أن يحصل فى قلبه تلك الحالة المسماة بالإنكسار والخضوع ، وحينئذ يحصل فى قلبه الطلب ، وفى لسانه اللفظ الدال على ذلك الطلب ، وذلك قوله : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

والذى يدل على كون الإنسان عاجزاً عن تحصيل مصالح نفسه فى الدنيا والآخرة أن الصادر عن الإنسان إما العمل ، وإما العلم وهو فى كلا البابين فى الحقيقة فى غاية العجز .

والدليل على عجزة المطلق فى الأمور العلمية ، قوله / تعالى / لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين» (١) فهذه الاستعاذة مطلقة غير مقيدة بحالة مخصوصة فهذا بيان كمال عجز العبد عن تحصيل العقائد والعلوم .

---

(١) الآية ٩٧ من سورة المؤمنون .

والدليل على عجز العبد عن الأعمال الظاهرة التى يجر بها النفع إلى نفسه ويدفع بها الضرر عنها : أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن هذا البدن الإنسانى به حواس ظاهرة وأخرى باطنة و به الشهوة والغضب وغير ذلك وكل هذه الأشياء لهـا أثر خاص فى القلب ، وهذا الأثر يجر القلب من أوج عالم الروحانيات إلى حضيض عالم الجسمانيات . وإذا عرفت هذا ظهر مع كثرة والعوائق والعلائق أنه لاخلاص للقلب من هذه الظلمات إلا بإعانة الله ـ تعالى ـ وإغاثته ، ولمـا ثبت أنه لا نهاية لجهات نقصانات العبد ، ولا نهاية لـكمال رحمة الله وقدرته وحكمته ثبت أن الاستعاذة بالله واجبة فى كل الأوقات والأحوال (١) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٧٢ والتى بعدها .

النذر لغير الله تعالى

النذر فى اللغة الإيجاب يقال : نذر على نفسه ينذر — بكسر الذال المعجمة وينذر — بضمها — نذراً ، ونذوراً — أى أوجب على نفسه شيئاً وقيل النذر : ما كان وعداً على شرط مثل : إن شفى الله مريضى ، أو رد غائبى كذا درهما من المال أو كذا صلاة(١) .

وفى الشرع : النذر هو ما أوجبه المكلف على نفسه من الطاعات لله — سبحانه وتعالى —(٢) من غير تخصيص مثل : لله على نذر صوم يوم أو كذا صلاة تطوعاً أو كذا درهما من المال . أو بتخصيص مثل : على لله نذر إن شفى الله مريضى أو قضى لى حاجتى فعل كذا من الطاعات أو إخراج قدر معلوم من مالى .

« وقال أبو مسلم : النذر كالوعد إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر وإن كان من الله ـ تعالى ـ فهو وعد . وإختص هذا اللفظ فى عرف الشرع بأن يقول لله على كذا وكذا من الصدقة ، أن يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله تعالى مثل أن يقول: إن شفى الله مريضى، أو رد غائبى فعلى كذا كذا، وإختلفوا فيما إذا علق ذلك على ماليس من وجوه البر ـ وكان مباحا ـ مثل أن يقول

---

(١) أنظر القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤٠ . والصحاح للجوهرى ج ٢ ص ٨٢٦ .

(٢) فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٣٤٧ .

قائل : إن دخل فلان الدار فعلى كذا فن الناس من جعله كاليمين ، ومنهم من جعله من باب النذر(١) .

والنذر بإجماع المسلمين نوع من العبادة التى يتقرب بها العبد إلى الله ـ تعالى ـ فإن كان خالصاً له ـ سبحانه ـ فهو نذر صحيح ومشروع ، وإن كان لغير الله فهو حرام وباطل . وقد إعتبر ابن قيم الجوزية النذر لغير الله شركا أصغر حيث قال : « ومن أنواع الشرك الأصغر : النذر لغير الله ، وهو أعظم من الحلف بغير الله ، فإذا كان : « من حلف بغير الله فقد أشرك »(٢) فكيف بمن نذر لغير الله ؟ »(٣) .

وقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخلص لله سبحانه جميع أعماله ، وأقواله ، وحركاته وسكناته ، ونظراته وكلماته ، وكل حياته ، وعند مماته . مع أنها كلها منه خير .

والأمر فى هذا المقام أمر لكل المسلمين الذين يدينون بالدين الذى جاء به صلى الله عليه وسلم بأن يخلصوا كل أعمال الخير لله وحده لا شريك له . قال تعالى : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له . قال تعالى: « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »(٤) .

ويقول صاحب الظلال فى هذا المقام : « إنه التجرد الكامل لله بكل

---

(١) تفسير الفخر الرازى المجلد ١٠ ص ٢٤١ .
(٢) من حديث رواه أبو داود فى سننه فى الجزء الرابع ص ٣٥٧ .
(٣) مدارك السالكين جـ ١ ص ٣٤٥ .
(٤) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

خالجة فى القلب ، وبكل حركة فى الحياة ، بالصلاة ، والإعتكاف ، وبالمحيا والممات ، بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه . إنها تسبيحة التوحيد المطلق ، والعبودية الكاملة تجمع الصلاة ، والنسك والمحيا والممات ، وتخلصها لله وحده ، لله رب العالمين ، القوام المتصرف المربى الحاكم للعالمين فى إسلام كامل لايستبقى فى النفس ولا فى الحياة بقية لايعبدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئاً فى الضمير ولا فى الوقع »(١) .

وفى هاتين الآيتين أيضاً أمر من الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن يشركون مع الله غيره فى العبادة : إن صلاتى بجميع أنواعها وذبيحتى التى أذبحها للتقرب إلى الله تعالى وما أعمله فى حياتى من القربات وما أعمله عند الممات منها . كل ذلك أجعله لله وحده خالصاً من إشراك أحد معه ـ تعالى ـ وبهذا الإخلاص أمرت وأنا أول مسلمى أمتى وأول من علمها ودلها على الله والإخلاص له والصدق معه .

ولقد نعى ربنا على أهل الجاهلية ـ وكل من سار على نهجهم عدم إخلاصهم كل أمورهم لله ـ عز وجل ـ وبين أنهم بذلك قد جانبوا الصواب وأساءوا فى حكمهم فقال سبحانه : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلا الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون »(٢) .

---

(١) الشيخ سيد قطب فى ظلال القرآن المجلد ٣ من ص ١٢٤٠ والتى بعدها .

(٢) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .

ويقول الشيخ حسن أيوب كتابه «تبسيط العقائد الإسلامية» ص ١٦١ ما خلاصته :

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « وأما ما نذر لغير الله كالنذر للأصنام ، والشمس ، والقمر ، والقبور ، ونحو ذلك فهو بمنزلة أن يحلف الإنسان بغير الله من المخلوقات ـ والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات لا وفاء عليه بل عليه أن يستغفر الله من هذا ويقول ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم :

«من حلف وقال فى حلفه واللات فليقل لا إله إلا الله »(٢) وفى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه »(٣) . وزاد

---

(١) فالحالف باللات . أو غيرها ـ لا يلزمه كفارة يمين ، وانما يلزمه الإنابة والاستغفار وفى معناها اذا قال : أنا يهودى أو نصرانى ، أو برىء من الإسلام ان فعلت كذا وكذا . وهو قول مالك والشافعى وأبى عبيد . وقال النخعى وأبو حنيفة وأصحابه : اذا قال : يهودى ان فعل كذا فحنث كان عليه الكفارة . وكذلك قال الأوزاعى وسفيان الثورى . وقول احمد بن حنبل واسحاق بن راهويه نحو ذلك .

« حاشية الصفحة ٣٠٦ من المجلد الرابع من مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى »

(٢) من حديث رواه أبو هريرة ، وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأبو داود .

« ينظر ص ٣٠٦ من المجلد الرابع من مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى »

(٣) مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى المجلد الرابع ص ٣٧٢ . ولم يذكر أبو داود أن مسلما أخرجه . وذكر أن الذى أخرجه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه .

الصحاوى : « وليكفر عن يمينه »(١) .

فيستدل من الحديث أن هناك نذراً بمعصية فلا يجوز تنفيذه ، والنذر لغير الله تعالى هو نذر بمعصية فلا يحل أن ينفذ . وهل فيه كفارة أم لا ؟ خلاف(٢) والمسلمون فى كل آن ومكان فى حاجة ماسة إلى مرضاة ربهم .

---

(١) روى الصحاوى بإسناد صحيح عن عائشة — رضى الله عنها — عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه ، ويكفر عن يمينه »

« مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى حاشية ص ٣٧٤ من المجلد الرابع »

(٢) قال مالك والشافعى : لا كفارة على من نذر أن يعصى الله ، ولم ينفذ نذره واستدلا على ذلك بحديث عائشة السابق الذكر — بالرواية التى أخرجها البخارى لا برواية الطحاوى — فالنذر فى المعصية غير لازم وصاحبه منهى عن الوفاء به ولا تجب عليه كفارة والا لورد ذكرها فى الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة وهو : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

وبالكفارة قال أبو حنيفة وأصحابه ، وأحمد ، واسحاق بن راهوية ، وسفيان الثورى . أى من نذر فى معصية ولم ينفذ نذره فعليه كفارة يمين واستدلوا بأحاديث منها : مارواه عمران بن حصين قال سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول « النذر نذران فما كان من نذر فى طاعة الله فذلك لله وفيه الوفاء ، وما كان من نذر فى معصية الله فلا وفاء فيه ويكفره ما يكفر اليمين » ومنها حديث عائشة السابق الذكر برواية الطحاوى . ومنها مارواه مسلم فى صحيحه من حديث عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كفارة النذر كفارة يمين » وقالوا فى هذا الحديث : أنه يتناول نذر المعصية من وجهين : أحدهما : أنه عام لم يخص منه نذر دون نذر . الثانى : أنه شبهه باليمين ، ومعلوم أنه لو حلف على المعصية وحنث ، لزمه كفارة يمين ، بل وجوب الكفارة فى نذر المعصية أولى منها فى يمين المعصية لأن الحالف عقد يمينه بالله =

وعونه ورعايته . ويوم أن يلتزموا بشريعته ، ويحافظوا على حـــدوده ، ويتأسوا بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلف الأمة الأخيار فتكون كل أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم لله وحده لا شريك له . ـ يوم أن يكونوا كذلك ـ سيحظون بمرضاته سبحانه ، وسيكونون محل رحماته ، وموطن عونه ، وأهلا لرعايته وحمايته . وصدق الله إذ يقول لرسوله ـ آمراً إياه أن يخلص كل شيء من أمر العبادة لله وحده وأن يبتعد عن المعصية وعقابها .

وهذا أمر لكل أمته فيتعين عليهم أن يلتزموا بما أوجبه الله عليهم . لأن من عصى الله ورسوله كان من الخاسرين ومن أطاع كان من الفائزين :

قال تعالى « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصاً له دينى فأعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين

= ملتزما لما حلف عليه ، والنذر عقده لله ملتزما له . وما عقد لله أبلغ وألزم مما عقد به . كما أن ماعقد به ـ سبحانه ـ من الأيمان لا يصير باليمين واجبا فإذا حلف على قربة مستحبة ليفعلها لم تصر واجبة عليه وتجزئه الكفارة ، ولو نذرها وجبت عليه ولم تجزئه الكفارة .

(ينظر مختصر أبى داود للحافظ المنذرى حاشية ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٤ والتى بعدها ص ٣٧٦ من المجلد الرابع) وأنا أميل إلى الرأى القائل بالكفارة لتكون طهرة لنفسه وتزكية لروحه وحتى لا ينذر لغير الله ولا فى معصية . والله الموفق .

خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب »(١) .

(١) الآيات من الآية ١١ حتى الآية ١٨ من سورة الزمر .

الإتباع فى المعصية مع العلم بذلك

إن اتباع الآخرين فى التحليل والتحريم والتشريع بعيداً عن دين الله فيه خطورة لاحد لها على إعتقاد الإنسان .

وقد أفتى العلماء : أن كل من رضى بدين غير دين الإسلام وهو يعلم الإسلام يعتبر مشركاً ـ والعياذ بالله ـ وكذا كل من رضى بأى مبدأ ، أو مذهب من المذاهب الحديثة أو القديمة يناقض المبادىء الإسلامية ويضادها وهو يعلم أن ما ارتضاه هو لا يرتضيه الله ورسوله ، ولا هو من دين الإسلام فى شىء .

كما يدخل فى هذا الشرك والكفر : كل إنسان قدس وعظم أى دين ، أو مبدأ من المبادىء المضادة للإسلام وهو يعلم ذلك ، فما بالك إذا قدمها على الإسلام وأخر الإسلام عنها .

وقد عاب ربنا أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم(١) ورهبانهم(٢) أرباباً من دون الله . وبين سبحانه أنهم وقعوا فى الشرك بسبب إنحرافهم عن الدين الخالص لله وحده .

---

(١) الأحبار جمع حبر بفتح الحاء المهملة وكسرها وهو العالم من اليهود وكان الليث وابن السكيت يقولان . الحبر هو العالم ذميا كان أو مسلما بعد أن كان من أهل الكتاب .

(٢) والرهبان جمع راهب وهو العالم من النصارى والرهبان هم علماء النصارى من أصحاب النصارى .

قال تعالى : «وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون »(١)

وقد وقع هؤلاء المنحرفون فى الشرك بسبب بعدهم عن التوحيد الخالص لله الواحد الأحد مع أنهم جميعاً ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً هو الله رب العالمين ، وألا يتخذوا أحداً غيره رباً يعبد من دون الله ، ولكنهم افتروا على الله وضلوا سواء السبيل فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وزاد النصارى أن عبدوا المسيح واتخذوه رباً . وعبد اليهود أحبارهم كما عبد النصارى رهبانهم ، وعبادة النصارى للمسيح / عليه السلام / كانت تخالف عبادتهم للعلماء والعباد منهم . فهم بالنسبة للمسيح / عليه السلام / تشعبت أقوالهم .

فمنهم من قال : إن الله هو المسيح ابن مريم .

ومنهم الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . هم الآب ، والابن ، والروح القدس .

ومنهم من قال : إن المسيح ابن الله . أما بالنسبة للعباد والعلماء فإنهم لم يقولوا عنهم إنهم آلهة ، ولا أبناء آلهة أو أبناء الإله ولكنهم أشركوهم مع الله تعالى فيما هو من خصوصيات الإله أصلا وحقيقة ـ كما فعل اليهود مع

---

(١) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .

علمائهم – وهو التحليل والتحريم فإن الحكم على الشيء بكونه حلالا أو حراماً هو تشريع من الله وحده ، ولا يحق لبشر أن يفعله إلا بإذن من الله تعالى ، وفى الحدود المرسومة كما أذن الله – سبحانه – للرســـل فى ذلك باعتبارهم معصومين ومبلغين عنه تعالى ، وكما أذن للعلماء أن يجتهدوا فيما لا نص فيه .

لذلك ذم ربنا – سبحانه وتعالى – اليهود والنصارى الذين أطاعوا أحبارهم ورهبانهم فى معصية الله وأذعنوا لكل ما أحلوه لهم بأنه هو الحلال وإن كان الله قد حرمه عليهم ولكل ما حرموه عليهم بأنه هو الحرام وإن كان الله قد أحله لهم . مع أنهم ما أمروا إلا ليطيعوا الله الواحد الأحد فى كل الأمور فيحلون ما أحله الله ويحرمون ما حرمه – سبحانه وتعالى : « قال عدى بن حاتم: أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفى عنقى صليب من ذهب(٢) وهو يقرأ سورة براءة فقال ياعدى اطرح هذا الوثن فطرحته . فلما انتهى

---

(١) هو عدى بن حاتم الطائى العربى المشهور بالكرم . وقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم – رضى الله عنه – أنه لما بلغته دعوة رسول – صلى الله عليه وسلم – فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية / على دين يسمى الركوسية يتبعه فريق من النصارى / فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله / صلى الله عليه وسلم / فتقدم عدى إلى المدينة وكان رئيسا فى قومه طيء – ومما قاله رسول الله / صلى الله عليه وسلم / له : « ياعدى . ماتقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ . فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ . مايضرك أيضرك : أن يقال : لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله ؟ . ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم (تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٤٨)

(٢) وفى رواية : أن الصليب كان من فضة ،

إلى قوله تعالى: « إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» قلت يارسول الله لم يكونوا يعبدونهم . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أليس يحرمون ماأحل الله فتحرمونه ، ويحلون ماحرم الله فتستحلونه ؟. فقلت : بلى قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك عبادتهم »(١).

ويلخص الشيخ حسن أيوب فى ص ١٦٢ من كتابه « تبسيط العقائد الإسلامية » رأى ابن تيمية فى آية « اتخذوا أحبارهم » فقال : « وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى معنى هذه الآية : هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ماحرم الله ، وتحريم ماأحل الله يكونون على وجهين :

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على هذا التبديل فيعتقدوا تحليل ماحرم الله ، أو تحريم ما أحل الله إتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل . فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ، ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك المخالف دون ما قاله الله ورسوله ـ كان ـ مشركاً مثل هؤلاء .

الثانى : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً لكنهم أطاعوا علماءهم فى معصية الله كما يفعل المسلم مايفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاص ـ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » .

---

(١) تفسير أبى السعود ج٤ ص٦٠ .

ثم ذلك المحرم للحلال ، والمحلل للحرام . إن كان مجتهداً قصده اتبـــاع الرسول لـكن خفي عليه الحق فى نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه .

ولـكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول / صلى الله عليه وسلم / ثم اتبعه على خطئه ، وعدل عن قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فهذا له نصيب من الشرك الذى ذمه الله، ولا سيما إن اتبـع فى ذلك هواه ، ونصره باليد واللسان مع علمه أنه مخالف للرسل فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه . ا هـ . كلام ابن تيمية ،

وقد توعد ربنا ـ سبحانه ـ كل من يفترى على الله الـكذب فيحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله بمجرد رأيه وتشهيه(١) . وكذا كل مبتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى . توعده ـ عز جاهه ـ بالخزان وعدم الفلاح فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فهو فى غضبة الله وما عنده من متاع فهو قليل زائل ، وأما فى الآخرة فهو فى عذاب أليم كله شدة وغلظة .

يقول ـ جل ذكره ـ : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتـكم الـكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الـكذب إن الذين يفترون على الله الـكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم »(٢) .

---

(١) أى شهوة من عند نفسه لا اتباعا لما جاء به الرسول /صلى الله عليه وسلم/

(٢) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .

واتفق العلماء على أن الإنسان إذا عرف الحق لايجوز له تقليد أحد في خلافه .

وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه ، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين غير المسلمين ، فإن فعل مايقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه . فيكون كالنجاشي وغيره . فالنجاشي كان بين النصارى ثم لما تيقن من أن الدين الذي جاء به محمد / صلى الله عليه وسلم هو الدين الصحيح اتبعه . فهذا يثاب على الذي قدر على فعله ، ولا يؤاخذ بما عجز عنه، وكذا كل من كان على شاكلته .

وأما إن كان المقلد المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل مايقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد . فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة . فلو أن إنساناً كان عاجزاً عن معرفة القبلة معرفة يقينية فقلد غيره من المجتهدين في معرفتها ، وفعل ما يقدر عليه مثله . فهذا لايؤاخذ إن أخطأ في معرفة القبلة والمعرفة الصحيحة .

وأما من قلد شخصاً بعينه بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان المتبوع مصيباً لم يكن عمل التابع صالحاً ، وإن كان المتبوع مخطئاً كان التابع آثماً ،

مثال ذلك . من قال في القرآن برأيه وقلده غيره في هذا الرأي لهوى في نفسه مع عدم علمه بأن الحق معه فإن أصاب الذي قال في القرآن برأيه، فقد أخطأ الذي قلده في تقليده لأنه أصلا قلده لهوى في نفسه وهو غير عالم بأنه

على حق فيما يراه، وإن أخطأ الذى قال فى القرآن برأيه . فليتبوأ ـ الذى قلده ـ مقعده معه من النار .

فهل آن لنا نحن المسلمين أن نتمسك بقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله محمد / صلى الله عليه وسلم /: « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »(١) أسأل الله ذلك .

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

إتيان الكهان والعرافين بجميع أنواعهم

بعض الناس الذين انصرفوا عن مراقبة الله وطاعته ، وعبدوا الشيطان وكانوا من حزبه . وتفننوا فى الشر وفعله . هؤلاء يزعمون أنهم يعرفون المغيبات من أمور الناس فيضحكون عليهم ويسخرون بهم ويأكلون أموالهم بالباطل .

وإذا كان هذا دأبهم فلا يليق بمسلم أن يأتى إليهم ولا يحل له أن يصدقهم ، ويجب عليه محاربتهم بلسانه بإظهار خبثهم للناس حتى لا يقعوا فريسة فى أيديهم وكشف أمرهم للمجتمع ، وبزجرهم عن فعال الشر وبتبليغ الحاكم والمسئولين عنهم إن لم يرتدعوا ويقلعوا عن مفاسدهم وسوء فعالهم. كما يتعين على كل مسلم أن يعلم أن إتيان الكاهن والعراف والمنجم ومن على شاكلتهم وتصديق أى منهم يعد كفرا بما جاء به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»(١) .

وروى مسلم نافع عن صفية عن بعض أزواج النبى صلى عليه وسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»(٢) قال الإمام النووى عند شرحه لهذا الحديث :

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن على بن حجر العسقلانى المجلد العاشر ص ٢١٧ باب الكهانة .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٤ ص ٢٢٧ باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان .

«وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة فى سقوط الفرض عنه ولايحتاج معها إلى إعادة. ونظير هذه الصلاة فى الأرض المغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء ولكن لا ثواب فيها. كذا قاله جمهور أصحابنا قالوا: فصلاة الفرض وغيرها من الواجبات إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيئان: سقوط الفرض عنه، وحصول الثواب. فإذا أداها فى أرض مغصوبة حصل الأول دون الثانى، ولا بد من هذا التأويل فى هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة فوجب تأويله والله أعلم» (١).

والكهانة - بفتح الكاف ويجوز كسرها - إدعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه: استراق الجنى السمع من كلام الملائكة فيلقيه فى أذن الكاهن والكاهن: لفظ يطلق على العراف، والذى يضرب بالحصى والمنجم وقال الخطابى: الكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور، ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه. وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية خصوصا فى العرب لانقطاع النبوة فيهم وهى على أصناف: منها: ما يتلقونه من الجن فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن فيزيد فيه فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين. وأرسلت عليهم

---

(١) نفس المرجع والجزء والباب والصفحة.

الشهب فيبقى من استراقهم ما يخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » (١) وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدا وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك ، حتى كاد يضمحل .

ثانيها : ما يخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد .

ثالثها : ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

رابعها : ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ، ومن هذا القسم الأخير مايضاهى السحر . وقد يعتضد (٢) بعضهم فى ذلك بالزجر (٣) ، والطرق (٤) والنجوم (٥) وكل ذلك مذموم شرعا . وحكى عن عوف الأعرابى : ـ قال : « العيافة : زجر الطير : والطرق : الخط يخط فى الأرض، والعراف : بفتح المهملة، وتشديد الراء : هو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها . (٦) وهو أيضاً

---

(١) الآية العاشرة من سورة الصافات .

(٢) يعتضد أى يستعين .

(٣) الزجر . العيافة وهو ضرب من التكهن .

(٤) الطرق الضرب بالحصى وهو ضرب من التكهن أيضا .

(٥) النجوم جمع نجم وهو الكوكب . والمقصود النظر فيها للسحر أو غيره من أنواع الكهانة والمنجم من ينظر فى النجوم بحسب مواقيتها .

(٦) فتح البارى شرح صحيح البخارى المجلد العاشر ص ٢١٦ والتى بعدها ، صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٤ ص ٢٢٣ .

ضرب من الكهانة وقد نهى الشرع عن تصديق العراف ومن على شاكلته ، لأن أحاديثهم لو وجد بها كلمة صادقة فإن بقية كلامهم كذب يؤكد هذا ما رواه مسلم عن عائشة :

قالت: قلت يا رسول الله : إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء فنجده حقاً ، قال : « تلك الكلمة يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه ويزيد فيها مائة كذبة(١) كما نهى أيضاً عن إتيانه ، روى مسلم عن معاوية بن الحكم السلمى قال . قلت يا رسول الله : أموراً كنا نصنعها فى الجاهلية كنا نأتى الكهان ، قال : « فلا تأتوا الكهان » قال : قلت : كنا نتطير(٢) » قال : ذاك شيء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم(٣) » ويعلق الإمام النووى على هذا الحديث بقوله : « معناه أن كراهة ذلك تقع فى نفوسكم فى العادة ولكن لا تلتفتوا إليه ولا ترجعوا عما كنتم عزمتم عليه قبل هذا وقد صح عن عروة بن عامر

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان جـ ١٤ ص ٢٢٤ .

(٢) والتطير : التشاؤم وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئى وكانوا فى الجاهلية يتطيرون بالسانح - وهى ريح مباركة - والبارح - وهى ريح شؤم عندهم - فينفرون الظباء والطيور فإن أخذت ذات اليمين تبركوا بذلك ومضوا فى سفرهم وحوائجهم ، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا بها ، فكانت تصدهم فى كثير من الأوقات عن مصالحهم فنفى الشرع ذلك وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير بنفع ولا ضر (شرح صحيح مسلم للإمام النووى جـ ١٤ ص ٢١٨ والتى بعدها)

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٤ص٢٢٣ باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان .

الصحابي ـ رضى الله عنه ـ قال : ذكرت الطيرة(١) عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحسنها الفأل(٢) ولا يرد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك ، رواه أبو داود بإسناد صحيح(٣) .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم حريصين كل الحرص على اللجوء إلى الله وحده فى السراء والضراء ، وكانوا ملتزمين بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وإطاعته فى كل شئونهم لأنهم كانوا موقنين بأن إتيان الكهان ومن على

---

(١) الطيرة : بكسر الطاء وفتح المثناة التحتية على وزن العنبة وهذا هو الصحيح المعروف فى رواية حديث : « لا طيرة وخيرها الفأل » وفى كتب اللغة والغريب وحكى القاضى وابن الأثير أن منهم من سكن المثناة التحتية ، والمشهور الأول ، قالوا : وهى : مصدر تطير طيرة ، قالوا : ولم يجىء فى المصادر على هذا الوزن إلا تطير طيرة وتخير خيرة بالخاء المعجمة ، والطيرة نوع من السحر ، وقيل : يشبه السحر وقال الأصمعى : هو ما تتحبب به المرأة إلى زوجها .

(شرح صحيح مسلم للإمام النووى جـ ١٤ ص ٢١٨ ببعض تصرف)

(٢) الفأل مهموز ويجوز ترك همزة وجمعه فؤول كفلس وفلوس ، وقد فسره النبى صلى الله عليه وسلم بالكلمة الصالحة ، والحسنه ، والطيبة ، قال العلماء يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء والغالب فى السرور ، والطيرة لا يكون إلا فيما يسوء . (شرح صحيح مسلم للنووى جـ ١٤ ص ٢١٩)

(٣) شرح صحيح مسلم للإمام النووى جـ ١٤ ص ٢٢٣ والتى بعدها) .

شاكلتهم وبأن النظير وما ماثله . وبأن تعليق التمائم وما شابهها ، كل ذلك فيه بعد عن الدين الإسلامى الحنيف . وفيه شرك بالله تبارك وتعالى إن اعتقد المسلم بأن أى شىء من هذه الأشياء له تأثير بنفع أو ضر كما أنهم كانوا يعلمون أن الإقدام على شىء منها هو من الجاهلية العمياء وجهل وضلالة . إذ لا مانع إلا الله. ولا دافع للآفات والعاهات غيره - تعالى - وما أكثر الآثار الدالة على تمسك الصحابة بعقيدتهم وبعدهم عن كل ما فيه شبهة بعد عن الله أو اعتقاد ضر أو نفع من غيره : من تلك الآثار . ما جاء به الشيخ على محفوظ فى كتابه الإبداع قال « عن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبد الله بن حكيم وبه حمرة فقلت : ألا تعلق تميمة . فقال : نعوذ بالله من ذلك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من علق شىء وكل إليه » رواه أبو داود والترمذى إلا أنه قال : فقلنا : ألا تعلق شيئاً . فقال : الموت أقرب من ذلك . وعن ابن مسعود أنه دخل على امرأته وفى عنقها شىء معقود فجذبه فقطعه ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرقى(١)

---

(١) الرقى جمع رقية وهى المرة من الكلمات التى يرقى بها المصاب والاسم الرقيا . فإن كانت الرقية بلسان عربى ووافقت ماجاءت به الشريعة فهى جائزة. وإن كانت بلسان عربى ولم توافق ما جاءت به الشريعة من أقوال جاهلية فهى منهى عنها . وإن كانت بلسان غير عربى فهى منهى عنها أيضاً لأنه لا يدرى ما هى ولعلها قد دخلها سحر أو كفر . وإن فهم معناها - وهى بلسان غير عربى - ولم يكن فيها شىء من أمر الجاهلية . وكان فيها ذكر لله سبحانه وتعالى فانها مستحبة . والله أعلم .

والتمائم (١) والتولة (٢) شرك ، قالوا يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة ؟ قال : شيء تصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الأسناد ، (٣) وفى رواية أبى داود عن ابن أخى زينب امرأة عبد الله ـ عن زينب ـ امرأة عبد الله ـ وهو ابن مسعود ـ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » .

قالت : قلت : لما تقول هذا ؟ والله لقد كانت عينى تقذف وكنت أختلف (٤) إلى فلان اليهودى ، يرقينى ، فإذا رقانى سكنت .

فقال عبد الله : إنما ذاك عمل الشيطان ، ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما » (٥) فهذه الآثار وتلك الأحاديث ونحوها صريحة فى النهى عن تعليق الخرز والودع والخيوط المعقودة وغير ذلك من كل ما يشوب التوحيد أو يبعده عن أن يكون خالصاً لله تعالى .

---

(١) التمائم : جمع تميمة . وهى خرزة كان أهل الجاهلية يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات كما كانت لهم خيوط معقدة يربطونها على نحو الذراع حرزاً لهم من العاهات واعتقاد هذا جهل وضلالة أبطله الشارع الحكيم ونهى عنه .

(٢) التولة : بكسر المثناة الفوقية وفتح الواو شيء شبيه بالسحر أو من أنواعه تفعله المرأة ليحببها الى زوجها . وقد نهى الشارع عن ذلك وأبطله .

(٣) من ص ٤٢٤ والتى بعدها .

(٤) اختلف الى فلان اليهودى . أى أتردد عليه .

(٥) مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى ج ٥ ص ٣٦٢ والتى بعدها .

وأن الصحابة ومن سـار على نهجهم - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتحاشون عن ذلك ويحاربون مثل هذه الأوهام التى لا قيمة لها فضلا عن مساسها بالعقيدة .

والواقع أن هذه الأمور من أعمال الجاهلية وسائر الشعوب الهمجية التى استحوذت عليها الخرافات والأوهام التى أبطلها الشارع الحكيم وأنكرها الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، وسيجعل الله فى الأمة الإسلامية من ينكرها إلى يوم الدين .

الطب بالرقى

وتتميماً للفائدة فى هذا المقام نتكلم عن الطب بالرقى والاستشفاء من الآلام بالعزائم ، والتحصن بها من العين . فنقول :

كل ما كان من الرقى والعزائم بلفظ عربى وكان مشتملا على ذكر الله سبحانه وتعالى من القرآن الكريم أو من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن به أى شىء يخالف الشريعة الإسلامية فذلك مأذون فيه من صاحب الشرع الشريف وهو مستحب .

أما إن كانت الرقى والعزائم بغير اللفظ العربى الذى لا يدرى ما هو ويجــــوز أن يدل على سحر أو كفر فهى حرام شرعا كما صرح به الخطابى والبيهق وغيرهما .

واستدل له الشيخ ابن عبد السلام بأنهم لما سألوه صلى الله عليه وسلم عن ذلك قال : « اعرضوا على رقاكم »(١) .

وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : أمرنى النبى صلى الله عليه

---

(١) ببعض تصرف من كتاب الإبداع فى مضار الإبتداع للشيخ على محفوظ ص ٤٢٥ ، ونص الحديث عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : « كنا نرق فى الجاهلية ، فقلنا يا رسول الله ، كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : اعرضوا على رقاكم ، لا بأس بالرقى ، ما لم تكن شركا » (مختصر أبى داود للحافظ المنذرى جـ ٥ ص ٣٦٤) .

وسلم ، أو أمر أن يسترقى من العين(١) .

وروى مسلم عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت : كان إذا اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقاه جبريل قال : « باسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد إذا حسد وشر كل ذى عين »(٢) .

فهذه الأحاديث صريحة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بأن يسترقى

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن حجر العسقلانى المجلد العاشر ص ١٩٩ باب رقية العين .

والعين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر .

وقد أشكل ذلك على بعض الناس فقال : كيف تعمل العين من بعد حتى يحصل الضرر للمعيون ؟ والجواب : أن طبائع الناس تختلف . فقد يكون ذلك من سم يصل من عين العائن فى الهواء إلى بدن المعيون . وقد يكون من جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون وتتخلل مسام جسده فيحدث الضرر - والذى عند أهل السنة - وهو ما أرجحه أن العين إنما تضر بفعل الله عند نظر العائن بعادة أجراها الله تعالى أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص لآخر . وهذا إذا أراد الله ضر المعيون . وإذا لم يرد ضره فلن يصاب المعيون بأى أذى فالضر ليس ضرورة ولا طبيعة .

(ينظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ج ١٠ ص ٢٠٠) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٤ ص ١٦٨ وما بعدها باب الطب والمرض والرقى .

من العين . كما أنها تبين أن جبريل عليه السلام كان يرقى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا اشتكى ، وليس ذلك من العين وحدها .

فقد روى البخارى من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة(١) ومن كل عين لامة(٢) ويقول : إن أباكما(٣) كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق » وأخرجه ابن السنى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كان يعوذ الحسن والحسين يقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول : هكذا كان أبى إبراهيم يعوذ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام » وكذا أخرجه الترمذى وأبو داود(٤) .

وعن طارق بن مخاش عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أتى النبى صلى الله عليه وسلم بلديغ لدغته عقرب ، قال: فقال: لو قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يلدغ ، أو لم يضره »(٥) .

وروى مسلم عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل : باسم الله ثلاثاً

---

(١) الهامة : كل ذات سم يقتل جمعها هوام وقد تطلق على ما يدب من الحيوان وإن لم يقتل كالقمل .

(٢) العين اللامة : التى تصيب بسوء .

(٣) إن أباكما : هو ابراهيم عليه السلام وقد أكدت ذلك الرواية التى بعدها

(٤) الإبداع فى مضار الابتداع للشيخ على محفوظ ص ٤٢٦ .

(٥) مختصر سنن أبى داود للمنذرى ج ٥ ص ٣٦٨ باب كيف الرقيا .

وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر »(١) .

وروى مسلم أيضاً عن عائشة قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال : أذهب الباس رب الناس واشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما »(٢) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٤ ص ١٨٩ باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٨٠ باب استحباب رقية المريض .

أنواع العين

وكما تكون عين الإنسى الخبيث الطبع سبباً فى الضر - إذا شاءه الله - فكذلك عين الجنى تكون سبباً فى إصابة المعيون من البشر بأى ضر - يريده الله - وتسمى نظرة .

يقول الإمام ابن القيم فى هذا المقام : « والعين: عينان. عين إنسية، وعين جنية ، فقد صح عن أم سلمة أن النبى / صلى الله عليه وسلم / رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة(١) . فقال : استرقوا لها . فإن بها النظرة »(٢) .

قال الحسين بن مسعود الفراء . وقوله : « سفعة » أى نظرة ، يعنى من الجن يقول : بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح .

وعن أبى سعيد « أن النبى / صلى الله عليه وسلم / كان يتعوذ من الجان ومن عين الإنسان»(٣) .

---

(١) السفعة : بفتح السين - ويجوز ضمها - وسكون الفاء . سواء فى الوجه ومنه سفعة الفرس : سواد ناصيته ، وعن الأصمعى : حمرة يعلوها سواد ، وقيل : صفرة ، وقيل : سواد مع لون آخر ، وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه ، وكلها متقاربة .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ج١٠ ص١٩٩ باب رقية العين .

(٣) أخرجه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وحسنه الترمذى وتمامه : « فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ماسوى ذلك . (هامش ص ١٦٥ ج ٤ من زاد الميعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية) .

ويذكر عن جابر يرفعه(١) : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر(٢) انتهى كلام ابن القيم(٣) . وليس معنى ذلك أن العين لابد وأن تصيب لا ؟ بل إذا أراد الله الضر للمعيون كانت العين سبباً فى الضر ، وإن لم يرد فلن يكون هنا ضر أبداً ، وعلى المسلم أن يفوض أمره لله ، ويأخذ بالأسباب التى جاء الشرع بها ويتعوذ ـ فى يقظته ـ بكلمات الله التامات من شر ماخلق ، وعند نومه يفعل ما كان يفعله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنه مارواه البخارى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « كان رسول الله / صلى الله عليه وسلم / إذا أوى إلى فراشه نفث فى كفيه بقل هو الله أحد وبالمعوذتين جميعاً ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده .

---

(١) يرفعه أى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » ٩٠/٧ وابن عدى والخطيب فى تاريخه ٢٤٤/٩ من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : « العين تدخل الرجل القبر ، وتدخل الجمل القدر » وقد تفرد به شعيب بن أيوب عن معاوية عن هشام .

قال الصابونى : وبلغنى أنه قيل له : ينبغى أن تمسك عن هذه الرواية ففعل وقال الذهبى فى « الميزان » فى ترجمة شعيب بن أيوب : وله حديث منكر ذكره الخطيب فى « تاريخه » يريد هذا الحديث (هامش صـ ١٦٥ جـ ٤ من زاد الميعاد) .

(٣) زاد الميعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية صـ١٦٤ والتى بعدها مع بعض تقديم وتأخير .

قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به » (١).

ومما يؤكد أن العين لن تكون سبباً فى أى ضر إلا إذا شاءه الله .

مارواه مسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى / صلى الله عليه وسلم / قال : « العين حق ولو كان شىء سابق القدر سبقته العين »(٢) والمعنى لو فرض أن شيئاً له قوة بحيث يسبق القدر كان العين لكنها لا تسبق فكيف غيرها : وذلك لأن الأشياء كلها بقدر الله تعالى ولا تقع إلا على حسب ماقدرها الله سبحانه وسبق بها علمه فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشر إلا بقدر الله تعالى .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى جـ ١٠ صـ ٢٠٩ باب النفث فى الرقية .

(٢) من حديث فى صحيح مسلم بشرح الإمام النووى جـ ١٤ صـ ١٧١ باب الطب والمرض والرقى ، وبقية الحديث « وإذا استغسلتم فاغسلوا » وبهذا احتج من أوجب على العائن الوضوء للمعين .

إنكار العين

وأنكرت طوائف من المبتدعة أمر العين والضرر بسببها، ويدلل الإمام النووى على فساد رأيهم بقوله : « إن كل معنى ليس مخالفاً فى نفسه ولا يؤدى إلى قلب حقيقة ، ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقل إذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ، ولا يجوز تكذيبه ، وهل من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة »(١).

وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه « العين حق ، ونهى عن الوشم »(٢).

ويعلق الإمام ابن القيم على آراء من أبطل أمر العين بقوله : « فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس ، وصفاتها ، وأفعالها وتأثيراتها ، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ، ولا تنكره ، وإن اختلفوا فى سببه وجهة تأثير العين »(٣).

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووى جـ ١٤ صـ ١٧١ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى جـ ١٠ ص ٢٠٣ باب العين حق .

(٣) زاد الميعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية جـ ٤ صـ ١٦٥ .

الأخذ بالرقى وتركها

وردت أحاديث صحيحة ـ ذكرنا بعضها هنا ـ تؤكد جواز الرقى والحث عليها ـ مادامت موافقة للشريعة الغراء ـ غير أنه وجدت أحاديث غيرها ، وهى صحيحة أيضاً ، تمتدح ترك الرقى .

منها : الحديث الذى رواه البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج علينا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً فقال : « عرضت على الأمم ، فجعل يمر النبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي معه الرهط والنبي ليس معه أحد ، ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق ، فرجوت أن تكون أمتى ، فقيل : هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى : انظر ، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق . فقيل لى : أنظر هكذا وهكذا ، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق . فقيل : هؤلاء أمتك ، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فتفرق الناس ولم يبين لهم ، فتذاكر أصحاب النبي /صلى الله عليه وسلم/ فقالوا أما نحن فولدنا فى الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله ، ولكن هؤلاء هم أبناؤها فبلغ النبي / صلى الله عليه وسلم / فقيل : هم الذين لا يتطيرون ، ولا يكتوون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون .

فقام عكاشة بن محصن فقال : أمنهم أنا يارسول الله ؟ . قال : نعم . فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : سبقك بها عكاشة » (١).

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى جـ١٠ صـ٢١١ باب من لم يرق .

وقد يظن أن هذا الحديث مخالف للأحاديث التى قالت بالرقى ، ورغبت فيها .

يقول الإمام النووى فى هذا المقام : « ولا مخالفة بل المدح فى ترك الرقى المراد بها الرقى التى هى من كلام الكفار ، والرقى المجهولة ، والتى بغير العربية وما لا يعرف معناها .

فهذه مذمومة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه ، أو مكروه وأما الرقى بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهى فيه بل هو سنة .

ومنهم من قال فى الجمع بين الأحاديث – أن المدح فى ترك الرقى للأفضلية وبيان التوكل ، والذى فعل الرقى ، وأذن فيها لبيان الجواز مع أن تركها أفضل وبهذا قال ابن عبد البر . وحكاه عمن حكاه ، والمختار الأول وقد نقلوا الإجماع على جواز الرقى بالآيات ، وأذكار الله تعالى .

قال المازرى : جمع الرقى جائزة إذا كانت بكتاب الله أو بذكر ، ومنهى عنها إذا كانت باللغة العجمية أو بما لا يدرى معناه لجواز أن يكون فيه كفر . قال : واختلفوا فى رقية أهل الكتاب . فجوزها أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – وكرهها مالك خوفاً أن يكون مما بدلوه .

ومن جوزها قال : الظاهر أنهم لم يبدلوا الرقى فإنهم لهم غرض فى ذلك بخلاف غيرها مما بدلوه » انتهى كلام النووى(١) .

والرقى المشروعة سبب فى البرء من الداء – إذا أراد الله ذلك – ولا يتنافى

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووى ج ١٤ ص ١٦٩

الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله ـ سبحانه ـ لأن « من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب إتباعاً لسنته ـ سبحانه ـ وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم ـ فى الحرب بين در عين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشعب وخندق حول المدينة، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وإدخر لأهله ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال للذى سأله : أعقل نافتى أو أدعها ؟ فقال : « إعقلها وتوكل » فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل ، والله أعلم(١) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ج ١٠ ص ٢١٢ .

أهمية علم الحقيقة

بعد هذه الجولة السريعة فى رياض العقيدة والتوحيد ، وبعد بيان بعض من الأمور التى تعكر صفو الإيمان النقى تبين لنا جلياً أهمية علم العقيدة ، وأنه من أهم العلوم على الإطلاق بالنسبة للفرد المسلم، لأنه علم العقيدة الإسلامية والعقيدة فى الإسلام هى الأصل الذى يبنى عليه فروعه ، والأساس الذى يقوم عليه بنيانه والحصن الذى لا بد من حمايته لحماية المسلم من أخطار الشك وأعاصير التضليل والتزييف ، وأباطيل الشرك والإنحراف ويكفى لإدراك الأهمية الكبرى لهذا العلم أن قضاياه كلها هى القضايا الفاصلة فى الحكم على الإنسان بالإيمان ، أو الكفر ، والفسوق وبالنجاة ، أو الهلاك ، وبالسعادة أو الشقاء .

وقد يقول قائل : كان الأجدر أن يقدم الحديث عن علم العقيدة فى أول الكتاب . غير أنى فضلت أن يتأخر الحديث عنه إلى ما بعد السير مع بعض القضايا العقدية التى تؤكد أهمية هذا العلم ليدرك القارىء فعلا أهمية هذا العلم فى حياة كل مسلم يرجو لنفسه السعادة والنجاة .

تعريفه

ولما كانت هذه مكانة علم العقيدة فقد إعتنى به العلماء ، وعرفوه بتعاريف . منها : أنه العلم الذى يبحث فيه عن الموضوعات والمسائل التى تتعلق بذات الله تعالى ، وصفاته ، من حيث إثبات وجوده / جل شأنه / وإثبات صفات الكمال له / تعالى / ومن حيث إثبات وحدانيته - تعالى - وتوحيده بالعبادة ، ومن حيث أفعاله من الخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، وغيرها .

كما يبحث عن الرسل - عليهم السلام - من حيث إثبات رسالاتهم وإثبات صفاتهم ، وما يجوز فى حقهم .

ويبحث فى الكتب السماوية ، وبيان أنها من عند الله تعالى ، ويبحث فى الملائكة ، ويبين أنهم أجسام نورانية ، ولا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، ولا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتناسلون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ويبين أن كل مايقع للإنسان فهو قضاء الله وقدره .

ويبحث فى المعاد ، والبعث . والثواب ، والعقاب . وكيفية هذا الثواب ، والعقاب .

ويبحث كذلك فى الإيمان ، والإسلام ، والكبيرة ، وحكم من يرتكبها

هل هو مؤمن عاص ؟ أو كافر خارج عن الدين، أو غير ذلك. إلى غير تلك الأمور من مسائل العقيدة وما يتصل بها .

أسماء هذا العلم

ولأهمية هذا العلم أيضاً فقد تنوعت أسماؤه . ومما أطلق العلماء عليه من الأسماء ، علم العقيدة ، وعلم التوحيد ، وعلم الكلام ، وعلم أصول الدين .

شبهة وردها

ولما كان علم الكلام قديماً قد اختلط بكلام اليونان والآراء المختلفة مما جعله يخوض فى مسائل لاثمرة من ورائها إلاالسفسطة والجدل، والبعد عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد ذمه البعض من العلماء الأجلاء، ومنهم من اعتبر أن تعلمه أو تعليمه- بهذه الكيفية - مذموم، وأن التعمق فيه زندقة .

فعن أبى يوسف - صاحب أبى حنيفـــة - رحمهما الله - أنه قال لبشر المريسى: (١)العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً فى الكلام قيل : زنديق . أو رمى بالزندقة ، وأراد بقوله : والجهل بالكلام هو العلم، أى اعتقاد عدم صحته هوالعلم النافع أوالإعراض عنه ، وترك الإلتفات إليه هو العلم ، لأن البعد عنه يصون علم الرجل وعقله فيكون البعد عنه علماً بهذا الاعتبار ، والله أعلم(٢) .

وعنه أيضاً أنه قال : من طلب العلم بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيميا أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب ،(٣) .

---

(١) هو بشر بن غياث المريسى أبو عبد الرحمن فقيه معتزلى ، يرمى بالزندقة . أخذ الفقه عن أبى يوسف وهو رأس الطائفه المريسية قال عنه فى « اللسان» مبتدع ضال لا ينبغى أن يروى عنه ولا كرامة .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ص ٧٢ ، ببعض تصرف .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

وقال الإمام الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ : حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام » (١) .

ومن قال بحرمة الاشتغال به ـ على تلك الحالة ـ مالك ، والشافعى ، وأحمد ابن حنبل ، وسفيان الثورى وجميع أئمة الحديث من السلف »(٢) .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه الإحيـــاء تفصيلا لذلك حيث قال ماخلاصته : « فإن قلت فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم ، أو هو مباح أو مندوب إليه ؟ فاعلم أن للناس فى هذا غلواً وإسرافاً فى أطراف فمن قائل : إنه بدعة وحرام ، وأن العبد أن يلقى الله بكل ذنب ـ سوى الشرك ـ خير له من أن يلقاه بالكلام .

ومن قائل : إنه فرض ، إما على الكفاية ، وإما على الأعيان ، وإنه أفضل الأعمال ، وأعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ، ونضال عن دين الله ، ثم أجاب عن المختار عنده من هذه الآراء بقوله : « فيه منفعة ، وفيه مضرة ، فهو فى وقت الإنتفاع حلال ، أو مندوب ، أو واجب ، كان يقتضيه الحال وهو ـ باعتبار مضرته ـ فى وقت الاستضرار ومحله حرام » (٣) .

والإشتغال به يجعل أمر المشتغل به يؤول إلى الحيرة ، والضلال والشك لذلك رجع عن الاشتغال به كثير من العلماء منهم الإمام أبو حامد الغزالى .

---

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٢٢ والتى بعدها .

يقول عنه ابن أبي العز الحنفي : « إنتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمات - وصحيح البخارى على صدره »(١) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى . قال : « لقـــد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا . ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات : « الرحمن على العرش استوى »(٢) و « إليه يصعد الكلام الطيب »(٣) . وأقرأ في النفى : « ليس كمثله شيء »(٤) و « ولا يحيطون به علماً » (٥) ثم قال:ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » (٦).

وكل هذا بالنسبة لعلم الكلام المبنى على الجـــدل اللفظى ، والكلام اليونانى والفلسفة الكلامية . بعيداً عن الدين وقواعده ، والشريعة وأصولها أمام علم الكلام الذى هو علم التوحيد والعقيدة الذى يعالج القضايا العقدية وما اتصل بها على ضوء الكتاب الكريم والسنة الشريفة فهو علم ممدوح تعلمه وقد يكون مفروضاً فرض عين إذا لم تقم الحجة إلا به . ولا أظن أن أحداً من العلماء يقول : بترك تعلم مثل هذا العلم المبنى على قواعد الدين وأصول العقيدة، والذى يعالج القضايا العقدية بما فى كتاب الله وسنة رسوله وما اتصل بها . ولا أظن أيضاً أن أى عالم يهاجمه أو يتجرأ عليه .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٧ .
(٢) الآية الخامسة من سورة طه .
(٣) الآية العاشرة من سورة فاطر .
(٤) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٥) الآية ١١٠ من سورة طه .
(٦) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٢٢٧ والتى بعدها .

فائدة دراسته

ولدراسة هذا العلم فوائد عديدة . منها :

أولا : بالنسبة للمتعلم الذى يقوم بدراسة هذا العلم أنه ينتقل فى عقيدته من حال التقليد لما كان عليه الآباء وغيرهم إلى حال اليقين والإذعان والتصديق التام القائم على دليل وحجة وبرهان .

ثانياً : بالنسبة للعلم ذاته، ففى تعلمه الحفاظ عليه، والمحافظة على قواعده ومسائله فى نفوس المسلمين فلا تذهب بها الأهواء ، ولا تنسى بمضى الزمان والدهور ، ولا تضعف بسبب شبه الضالين والمغرضين .

ثالثاً : فوق هذا ، فعلم العقيدة يقف أمام التيارات الإلحادية يصدها ، ويبطلها بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، ويرد على المنكرين ، والمعاندين ، ويهدى الضالين ، والمنحرفين ، ويساعد المتعلم المثقف الفاهم على إرشاد المسترشدين من غير المثقفين .

رابعاً : من فوائد دراسة هذا العلم أيضاً . الفوز بسعادة الدارين . ذلك أن الإنسان الذى يعرف ربه معرفة حقيقية . يخشاه ، ويخاف عقـــابه ، فيدفعه ذلك إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، والجد فى عمل الطاعات والبعد عن السيئات ، والمنهيات ، فيفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد يقال : إن هذا العلم مستحدث ، ولم يكن فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا صحابته ، ولا فى أيام التابعين . ولو كان له هذا الشرف ، وتلك المنزلة لما أهملوه ، ولبحثوا فيه ؟ .

ونجيب على هذا التساؤل . بأن الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم ـ لم يكونوا فى حاجة إلى دراسة هذا العلم ، وتدوين مسائله ، لصفاء عقيدتهم باتباعهم للرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ماجاء به ، وبركة صحبتهم له ، وقرب عهد التابعين به ، ولقلة الإختلاف فى أمور الدين فى عصره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعدم الإحتكاك بغيرهم من أرباب الديانات الأخرى .

واستمر الحال على ذلك إلى أن اختلط المسلمون بغيرهم من أرباب الديانات الأخرى من المسيحين، واليهود، والمجوس، وظهر اختلاف المسلمين فى بعض المسائل ، وكثرت الأحزاب السياسية فيما بينهم ، وظهرت الفرق السياسية ، ومال بعض المسلمين إلى أهل البدع والأهواء يأخذون عنهم ويتأثرون بهم ، وأخذ البعض يفسر آيات القرآن الكريم على حسب هواه تأييداً لمعتقدهم ومذهبهم ، فكثر الجدل والخلاف بين المسلمين فمست الحاجة إلى وضع علم يصون العقيدة الإسلامية ويدافع عنها ، ويرد بالدليل والحجة على كل المخالفين والمضللين ، وليبطل أدلة الخصوم وحججهم التى يحاولون بها تشويه عقيدة المسلمين ، فنشأ ما سمى بعلم العقيدة أو علم التوحيد (١) .

لذلك قال علماء الإسلام : إن هذا العلم بحالته هذه مفروض تعلمه وتعليمه على الرجل والمرأة .

---

(١) من كتاب فى العقيدة الإسلامية والأخلاق لطلبة السنة التأهيلية بالكليات العملية بالأزهر ص ٢٦ لنخبة من أساتذة الجامعة الأزهرية .

وواجب على كل مسئول من والد ، ووالدة ، ومعلم ، وولى ، ووصى ومرب ، وأمثالهم أن يهتموا بتنشئة الأطفال على مبادىء هذا العلم على أن يأخذ كل واحد منه بحسب قدرته العقلية ، والنفسية ، فيتدرج فى تعلمه كما يتدرج فى تعلم أى علم ذى أهمية وشأن .

التربيـــة أولا

وقبل تعلم هذا العلم يتعين على كل داع أن يربى رعيته على عقيدة الإسلام والإيمان بالله فالتربية لا بد أن تسبق التعلم وإلا فهو علم لا ينفع ، والقلوب معه لن تخشع ، وإن ما تعانيه المجتمعات اليوم من فساد فى الأخلاق ، ولا سيما بين الكثرة من ناشئة الطلبة والتلاميذ أصله أننا علمناهم قبل أن نربيهم فحرمناهم من صمام الأمن .

ولقد قال عبد الرحمن بن مسعود رضى الله عنه : « أوتينا الإيمان قبل القرآن »(١) أى تربينا على عقيدة الإيمان بالله قبل أن نتعلم كتاب الله .

ويقول ابن عمر رضى الله عنه : « لقد عشنا برهة من الدهر، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها وزواجرها ، وما ينبغى أن يقف عنده منها ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره ، وما زاجره ، وما ينبغى أن يقف عنده . ينثره نثر الدقل »(٢) .

---

(١) نفس المرجع ص ٣٦ .

(٢) نفس المرجع والصفحة . «الدقل بفتح القاف : أردأ التمر ، أى أن قارىء القرآن لا يعى ما يقرأ فهو ينطقه بلسانه وقلبه لا يعى منه شيئا .

نـــداء

فيا أيها المسلمون عامة، ويامن تقومون على شأن التربية الإسلامية خاصة: لا تغفلوا عن أهم جانب فى التربية. إنه الإيمان بالله وهو المقدمة الفطرية لكتابه الكريم: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى» (١).

وقد صلح به أول هذه الأمة، ولن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها: «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»(٢).

وبعد أن تأكد لكل ذى لب سليم، ومزاج مستقيم أنه لابديل عن الدين فى تنظيم حياة الفرد والأمة، وأن العقيدة هى جوهر هذا الدين، وأن أساس العقيدة هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبعده يأتى الإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

لذا فإننا سنتحدث عن معنى الإيمان لنتعرف عليه سبحانه وتعالى. إذ معرفة الله هى المرتكز الذى يرتكز عليه الإسلام كله، وبدون هذه المعرفة يكون كل عمل فى الإسلام، أو للإسلام غير ذى قيمة حقيقية، وفى هذه الحالة يكون الإسلام فاقداً روحه، ولا قيمة لعمل لاروح فيه.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

(٢) من الآية ٣٧ من سورة ق.

معنى الإيمان بالله

الإيمان بالله معناه . أن يعلم العبد ويعتقد إعتقاداً جازماً بأن الله وحده هو المستحق للعبادة . وبأنه ـ سبحانه ـ وحده الخالق الرازق المحيي المميت ، وبأنه رب كل شيء ومليكه ، وبأنه ـ جل وعز ـ المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه وجاء على لسان الشرع وصفه / تعالى / بها ، وأنه المنزه عن كل عيب ونقص ويستحيل عليه أضداد صفات الكمال . وبأن الله ـ جلت قدرته ـ يجوز في حقه فعل كل ممكن أو تركه ، وبيان ذلك :

أولا : أن يعتقد العبد إعتقاداً جازماً بأنه لا يوجد في الوجود إله إلا الله الواحد الأحد . الفرد الصمد . وأنه ـ سبحانه ـ مستحق وحده للعبادة .

ثانياً : أن يعتقد إعتقاداً لا يتطرق إليه الشك في أن الخالق لكل المخلوقات والرازق لها . والمحيي لكل حي . والمميت لكل المخلوقات ـ عند انتهاء آجالها هو الله وحده لا شريك له في شيء من ذلك .

ثالثاً : أن يعتقد إعتقاداً جازماً بأن الله ـ وحده ـ هو رب كل شيء ومالك كل شيء يتصرف فيه بحكمته وإرادته وعلمه وقدرته .

رابعاً : أن يعتقد إعتقاداً جازماً لا شك فيه أن يجب لله تعالى كل صفة كمال تليق بجلاله ، ووصف بها نفسه .

خامساً : أن يعتقد إعتقاداً جازماً أنه يستحيل على الله كل صفة نقص لا تليق بجلاله ـ سبحانه وتعالى .

سادساً: أن يعتقد إعتقاداً جازماً لاشك فيه أنه يجوز فى حقه تعالى فعل كل ممكن ، أو تركه كالخلق ، والإماتة مثلا .

وهذا إعتقاد إجمالى لابد من توفره عند كل مؤمن ، وعليه مع ذلك أن يعتقد تفصيلا بوجود ثلاث عشر صفة كمالية لله تعالى ، عليها مدار الإلهية ، وعظمة الربوبية ، ويستحيل عليه ـ سبحانه ضدها .

وليس ذلك من باب الحصر ، ولكن هذه الصفات هى التى دار حولها الجدل الكثير ، وما عداها من الصفات إما أن يكون متفرعاً منها ، أو داخلا فيها أو تابعاً لها ، وبإثبات هذه الصفات مع باقى الصفات الكمالية ، والأسماء تتجلى الذات العلية متصفة بالكمالات منزهة عن النقائص .

أقسام الصفات

وهذه الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام(١) :

◉ أولها صفة نفسية ، وهى الوجود فقط .

◉ ثانيها . صفات سلبية ، وهى خمس صفات : صفة البقاء ، وصفة القدم، وصفة المخالفة للحوادث ، وصفة القيام بالنفس، وصفة الوحدانية .

◉ ثالثها . صفات ثبوتية ، وتسمى أيضاً: صفات معان، وهى سبع صفات صفة العلم ، وصفة الإرادة، وصفة القدرة، وصفة الحياة، وصفة السمع وصفة البصر ، وصفة الكلام .

ويستحيل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ضد هذه الصفات . وهذه على الترتيب السابق :

◉ أولا : ١ـ الوجود	وضده	العدم
◉ ثانياً : ٢ـ البقاء	«	الفناء
٣ـ القدم	«	الحدوث
٤ـ المخالفة للحوادث	«	المشابهة للحوادث

---

(١) يرى بعض علماء الكلام أن صفات الله ـ تتنوع الى أربعة أنواع ، هذه الثلاثة والرابع : صفات معنوية ، وهى : سبع ، كونه ـ سبحانه ـ عالما، وكونه مريداً وكونه قادراً ، وكونه حيا ، وكونه سميعا ، وكونه بصيراً ، وكونه متكلما ، وفى هذه السبع خلاف

٥– القياس بالنفس	وضـــده	الاحتياج إلى الغير
٦– الوحدانية	«	التعـــدد
⊙ ثالثاً : ٧– العلم	«	الجهل
٨– الإرادة	«	الإكراه
٩– القدرة	«	العجز
١٠– الحياة	«	الموت
١١– السمع	«	الصمم
١٢– البصر	«	العمى
١٣– الكلام	«	البكم

وسوف نتناول / بعون الله/ كل صفة من هذه الصفات بالبحث والتحليل لأنها الصفات التي كان لها أوفر نصيب من جدال المعاندين وإنكار المكابرين وإذا ثبتت تلك الصفات لله ـ سبحانه ـ فقد انتفى عن كل واحدة ضـــدها ، وأصبح من اليسير أن يقتنع الإنسان ببقية الصفات غير التي ذكرناها من كل صفة كمال وصف الله بها نفسه .

غير أنه قبل البحث في هذه يتعين علينا أن نبين الطريق السليم إلى معرفة الله سبحانه ، وأن نلقي الضوء على عناصر العقيدة في الله ـ كما جاء بها الإسلام ـ ليكون كل مسلم على بينة من أمر إعتقاده في خالقه ، وعلى بصيرة من الإيمان به .

كما أن وضوح الطريق السليم إلى معرفة الله ، ووضوح عناصر الاعتقاد فيه ـ سبحانه ـ سييسر البحث ، والاقتناع بوجود إله واحد لاشريك له وهو على كل شيء قدير .

أولا : الطريق السليم إلى معرفة الله

إن الطريق السليم إلى معرفة الله ـ سبحانه ـ هي :

(ا) آياته التي تدل عليه سبحانه سواء أكانت آياته المقروءة وهي القرآن الكريم . أم آياته الموجودة في العالم بأسره ، وهي لا تحصى ولا تعد .

وصدق الله حيث يقول : « ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » (١) .

(ب) العقل السليم .

(ج) الفكر المستقيم .

(د) العلم .

وقد قيل : إن الطريق الوحيد إلى معرفة الله هي آياته فقط . والعقل ، والفكر ، والعلم شروط أساسية لسالك هذا الطريق إذ بدون عقل لن تعرف الآيات ، وبدون فكر لن يعرف صاحبها وبدون علم لن توجد معرفة للآيات ولا لصاحبها .

غير أني أقول : إن المتأمل في آيات القرآن الكريم يرى أنها كثيراً ما تلفت النظر بشكل واضح ، وواسع للعقل ، والفكر ، والعلم وهذا ما جعل البعض من العلماء يعتبر العقل ، والفكر ، والعلم وسائل أساسية لمعرفة الله كآياته ،

---

(١) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

وليست شروطاً مساعدة لتلك الآيات وصدق الله حيث يقول : « قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين »(١) .

أى هل هناك ذرة علم تشهد أن غير الله هو الخالق، فإذا ما أنكر الناس ربهم فليس ذلك دليلا على العلم ، بل هو دليل على الجهل كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٢) .

ولكنه ليس الجهل المطلق المجرد من أية معرفة . بل هو جهل خاص ذكره الله / تعالى / بقوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »(٣) .

وقوله تعالى : « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم ترد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى »(٤) .

فلو أن إنساناً بلغ فى العلوم الدنيوية مبلغاً عظيما ، ولا يعرف طريق ربه فهو جاهل، لأنه عطل نعمة العقل من النظر ، والتفكر والتأمل وتعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالإنسان إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان .

---

(١) الآية الرابعة من سورة الأحقاف .

(٢) الآية الثامنة من سورة الحج .

(٣) الآية السابعة من سورة الروم .

(٤) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة النجم .

وتعطيل نعمة العقل عما خلقها الله له من التفكير والنظر والتأمل هو الذى حال بين الأقدمين الضالين، وبين النفوذ إلى الحقائق فى الأنفس وفى الآفاق.

يقول الله سبحانه: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (١).

والآيات التى ورد بها ذكر العقل والفكر والعلم أكثر من أن نحصيها هنا. نأخذ منها على سبيل المثال قوله تعالى: «إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» (٢).

وقوله: «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا» (٣).

وقوله: «إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون» (٤).

ومن ثم فإن المتأمل للقرآن الكريم يدرك أن الإسلام يفرض عن المسلم أن يفكر، ويفرض عليه أن يتعلم، وأن العلم والفكر جزآن من شخصية المسلم، فى الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها، أو باب معاش يرتزق منه، أو هواية عند بعض الأفراد.

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية الرابعة من سورة الرعد.
(٣) من الآية ٤٦ من سورة سبأ.
(٤) الآية ٥٢ من سورة النمل.

وإذ يفرض الإسلام العلم، فلأن بالعلم يعرف أن الإسلام حق كما يوضح ذلك ربنا بقوله : « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد »(١) .

---

(١) الآية السادسة من سورة سبأ .

أمراض لا بد من زوالها

ولما كان الله - سبحانه وتعالى - غنى عن العالمين ، وكان الخلق كلهم محتاجين إليه، وإلى الإيمان به من أجل أنفسهم كان الواجب على كل المسلمين كى يعرفوا ربهم معرفة صادقة ، ويكونوا أهلا لرؤية آياته أن يجردوا أنفسهم من الأمور الآتية :

(١) من الكذب : لأن الكذاب إذا إتخذ الكذب ديدنا له ، وسجية يسير عليها فإن الله لا يهديه إلى آياته أبداً مادام هذا شأنه . قال تعالى : « إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار »(١) .

(٢) من الظلم : لأن الذى لا يجرد نفسه من الظلم لا ينير الله قلبه ولا يرشده إلى آياته مادام ظالماً وصدق الله حيث يقول : « والله لا يهدى القوم الظالمين »(٢) .

(٣) من الكبر : لأن الله يحرم قلب المتكبر من رؤية آياته مصداق ذلك قوله - عز شأنه - : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (٣) .

---

(١) الآية الثالثة من سورة الزمر .

(٢) الآية السابعة من سورة الصف .

(٣) الآية ١٤٦ من سورة الأعراف .

(٤) من الغفلة: قال تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم »(١).

(٥) من التردد فى قبول الحق إذا أبصروه صريحاً قال سبحانه : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون »(٢).

(٦) من الإجرام فى حق أنفسهم ودينهم ومجتمعهم قال تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين »(٣).

(٧) من الإفساد فى الأرض ، ونقض العهد ، وتقطيع أواصر ماينبغى أن يوصل قال عز جاهه : « وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون »(٤).

---

(١) الآيات من ١ : ٣ من سورة الأنبياء
(٢) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .
(٣) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة الحجر .
(٤) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة البقرة

متى تنكشف آيات الله ؟

وآيات الله لا تنكشف للقلب إلا إذا اجتمع لصاحبه فكر مع ذكر أى يكون العبد دائم الصلة بخالقه لا تمر لحظة إلا إذا كان قلبه ولسانه، وفكره مع الله . يدل على ذلك قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »(١) .

وساعة أن يحرر المسلمون أنفسهم من الأوبئة الخلقية التى ذكرنا بعضها ويخلصون لله أعمالهم . فإن آيات الله من الإشراق بحيث تعمر كل جوانب قلوبهم بعد أن تكون قد هيئت تلك القلوب لتلقى الأنوار الإلهية .

---

(١) الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران

فهم سقيم

ولقد تنكب الطريق الصحيح أناس فى القديم، وفى الحديث، وأنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم، متصورين أن حواسهم هى الطريق إليه سبحانه، ورموا المؤمنين به بأنهم واهمون، وخرافيون إلى آخر السلسلة الطويلة من السب والسخرية والازدراء التى يوجهها الكافرون بالله إلى المؤمنين، لأنهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس.

غير أن الواهمين حقاً هم هؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم وهم الضالون، لأن واقعهم المادى الذى يعيشونه يكذبهم فهم مثلا يؤمنون بالجاذبية، وقوانينها. مع أنهم لم يشاهدوا الجاذبية، بل رأوا آثارها. ويؤمنون بالعقل، ولم يروه بل رأوا آثاره، ويؤمنون بالمغناطيسية وقد شاهدوا فقط إنجذاب شىء إلى آخر دون رؤية الجاذب. ويؤمنون بوجود الالكترون، والنيترون ولم يشاهدوا شيئاً منهما.

فواقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ولكن آثارها هى التى دلتهم عليها، وهم فيها على يقين لم يخالطه شك.

وهذا يعنى بوضوح أن كثيراً من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لإحساسهم آثارها دون إحساسهم بها ذاتها. فهل كان هؤلاء على صواب عندما حصروا المعرفة كلها فى الحواس؟

وهل كانوا منطقيين مع أنفسهم عندما رفضوا الإيمان بالله لأنه لم تدركه حواسهم مع أنهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الأشياء التى لم يشاهدوها والتى تشكل أكبر الحقائق التى عرفها الإنسان.

إن هذا التصور الخاطىء لطريق معرفة الله — قديماً وحديثاً — من أكبر العوامل التى أبعدت كثيراً من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله مع أن مثل هذا التصور خاطىء بداهة . وإنه مامن أمة من الأمم المنحرفة ، أو أى من الكافرين إلا عندهم هذه الشبهة حول التصور الحسى للطريق إلى معرفة الذات الإلهية فلقد سمعنا فى عصرنا هذا أفراداً يجعلون عدم رؤيتهم لله سبحانه سبباً للإلحاد، وسمعنا كذلك مجتمعات ودولا غير إسلامية تصرح بهذا على مرأى ومسمع من العالم كله .

الفطرة تجيب

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه ماوقع فى إحدى دور العلم ببلد غير إسلامى. حيث وقف المعلم يقول لطلاب السنة النهائية: أترونى؟ قالوا : نعم . قال : فإذن أنا موجود . أترون اللوح ـ أى السبورة التى تكتب عليها ؟ ـ قالوا: نعم. قال : فاللوح إذن موجود . أترون الطاولة ـ أى المكتب ـ؟ قالوا . نعم . قال : فالطاولة إذن موجودة . ثم قال : أترون الله ؟ ؟ ؟. قالوا : لا . قال : فالله إذن غير موجود . فوقف أحد الطلاب الأذكياء وقال لزملائه أترون عقل الأستاذ ؟ . قالوا : لا . قال . فعقل الأستاذ إذن غير موجود « فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (١) .

---

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

الكفر كله ملة واحدة

ويحدثنا القرآن الكريم أن الكافرين فى كل عصر كانوا يشترطون للإيمان بالله أن يحسوا به عن طريق السمع أو الرؤية .

وكانت علل هذا الاشتراط هى ذاتها الأمراض التى ينتج عنها هـذا التصور الفاسد ، وهى : الجهل والكبر والإنحراف والظلم والكذب والغفلة .

قال تعـالى : « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو يأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون »(١) .

وقال — سبحانه — : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتو عتواً كبيراً »(٢) .

وقال — عز شأنه — : « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب »(٣) .

---

(١) الآية ١١٨ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر .

وقال — عز من قائل — « يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » (١) .

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة النساء .

ما يجب على المسلم

ولئن سار على هذا الدرب الملتوى كثير من الناس . فليس للمسلم وهو صاحب القلب العامر بالإيمان أن يقتضى أثر هؤلاء الضالين .

فيقع فيما حذره الله منه فى قوله تعالى : « أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل »(١) بل عليه أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه ويبتعد عن كل ما نهى الشرع الحكيم عنه . ويقتضى أثر المسلمين الصادقين ليحقق الهدف الذى من أجله وجد وليكون عبد الله لا لأطماعه ونزواته . ويوم أن يكون كذلك . سيصبح محلا لرحمات الله . وأهلا لبركاته .

ثانيا : عناصر العقيدة فى الله :

وهذه العناصر تكلم عنها صاحب كتاب « الله فى العقيدة الإسلامية » فقال ما خلاصته: وتتكون العقيدة فى ـ الله ـ فى الإسلام من هذه العناصر .

(١) الاعتقاد بوجود الله الواجب الوجود لذاته غير المستمد من سواه ووصفه ـ جل وعلا ـ بصفات الكمال كلها نتيجة للنظر فى هذا الكون فالله / تبارك وتعالى / موجود موصوف بالعلم، والقدرة ، والحياة . والسمع ، والبصر ، والكمال والحكمة ، والإرادة .. إلخ وذلك واضح معلوم علم اليقين لكل من نظر فى هذا الكون البديع الصنع .

---

(١) الآية ١٠٨ من سورة البقرة .

فالخالق حكيم لوضوح أسرار هذه الحكمة فى المخلوقات وقادر وعالم بأجمع معانى العلم ، والقدرة ، وأسماها ، لأن هذا الكون البديع لا يكون إلا من علم واسع ، وقدرة محيطة .

والقرآن الكريم يعدد هذه الصفات فى كثير من المناسبات ، ومن أجمع آياته فى ذلك : خواتيم سورة الحشر .

قال تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (١) .

(٢) نفى صفات المشابهة ، والنقص عن الخالق ـ سبحانه ـ فالتجسيم منفى عنه ، لأن المادة تتحول ، والخالق بعيد عن وصف التحول . والتعدد منفى عنه لأنه تركيب ، والإله لابد وأن يكون واحداً والأبوة ، والبنوة بعيدان عن صفاته لأنهما تجزئة وانفصال والخالق لا يتجزأ وهكذا .

والقرآن الكريم يقرر هذا فى وضوح ، ويحاول عنه فى منطق دقيق وحجة بالغة . فيقول فى نفى المشابهة « فاطر السموات والأرض وجعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (٢) .

---

(١) الآيات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ سورة الحشر .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى

ويقول سبحانه - وتعالى - فى نفى المشابهة ، ونفى الأبوة والنبوة أيضاً : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (١) .

ويقول فى نفى التعدد : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (٢) .

وفى نفى النبوة ، والتعدد معاً يقول / سبحانه / : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (٣) .

وترى ذلك واضحاً فى كثير من الآيات التى ناقش بها القرآن الكريم عقائد الأمم السابقة فنفى كل معانى النقص والمشابهة والقصور عن الخالق سبحانه وتعالى :

(٣) عدم البحث عن حقيقة ذات الله . وحقيقة صفاته مع كمال اليقين بأنه توجد مخالفة تامة بين حقيقة ذات الله ، وحقيقة صفاته ، وبين ذوات المخلوقات وصفاتهم . يقول القرآن الكريم فى سورة الأنعام : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . (٤)

وفى الحديث الذى ورد بألفاظ متنوعة تتفق فى معناها : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » (٥) .

---

(١) سورة الاخلاص

(٢) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٩١ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٥) مما قاله الحافظ العراقى فى الإحياء عن هذا الحديث : رواه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف . ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه .

ومن البدهى أن هذا الموقف لا يؤخذ على الإسلام فى شىء ولا يقال إنه حجر على العقول ، وإنقاص من حرية الفكر ، وإن العقل البشرى - وهو عماد العقيدة فى الإسلام إذ لا تكليف إلا به - هذا العقل يقف إلى الآن موقف العجز المطلق أمام حقائق الأشياء جميعاً ، وكل الذى وصل إليه إنما هو بعض الخواص ، وبعض الصفات والآثار .

أما الحقائق المجردة فلم يصل إلى حقيقتها بعد . وما كان الإسلام ليكلف الناس ما لا تستطيع أن تدركه العقول والأفهام .

(٤) رسم الطريق إلى معرفة « صفات الخالق » وإدراك كمالات الإلهية ومميزاتها وآثارها والوصول إلى ذلك عن طريق النظر فى الكون نظراً صحيحاً ، وتحرير العقول والأفكار من الموروثات، والأهواء . والأغراض حتى تصل إلى الحكم الصائب .

والقرآن الكريم يحث دائما على النظر فى الكون ،والتأمل فى المخلوقات ويرفع من قيمة العقل ، ويعلى من قدر الفكر حتى لقد ذكر العقل فى أكثر من أربعين موضعاً مقروناً بالتبجيل ، والتكريم: والحث على الجد إلى إدراك الحقائق ، وكشف مستورات الوجود مثل قول الله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيهامن كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماءوالأرض لآيات لقوم يعقلون » (١)

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة البقرة .

وقوله تبارك وتعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .(١) .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور (٢) .

وهو فى هذا المقام يحض على اكتشاف غرائب النبات ، والحيوان ، والجماد ثم يرتب على ذلك الخشية من الله ، وإشارة إلى ما بين معرفة الكون والعلم به ، ومعرفة مكونه والعلم به كذلك من صلة .

(٥) تقوية الصلة بين الوجدان الإنسانى والخالق - جل وعلا - حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الروحية هو أعذب وأصدق أنواع المعرفة جميعاً ، وذلك أن الوجدان الإنسانى أقدر على كشف المستورات غير المادية من الفكر المحدود بقيود المادة ، ونتائج الأقيسة الحسية . فالإسلام كثيراً ما يخاطب الوجدان ، ويستثير الحواس النفسية الكامنة فى الإنسان لتسمو إلى حظائر الملأ الأعلى ، ولتستشعر لذة معرفة الله تبارك وتعالى .

قال - جل شأنه - : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله

---

(١) الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة فاطر .

تطمئن القلوب »(١). وأوضح ماتكون هذه الصلة الخفية بين الضمير الإنسانى وبين الخالق ـ سبحانه ـ عند الشدائد التى تنقطع فيها الآمال إلا من الله وحده .

ويصور القرآن الكريم هذا المعنى فى مثل قوله تعالى . « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » (٢) .

وقوله تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » (٣) .

(٦) مطالبة المؤمنين بأن تظهر فى أقوالهم وأفعالهم آثار هذه العناصر العقدية . فالمؤمن متى اعتقد أن خالقه قادر كانت النتيجة العملية لهذه العقيدة أن يتوكل عليه ، وأن يلجأ إليه وإن اعتقد أنه عالم راقبه ، واستولت عليه خشيته . وإن اعتقد أنه واحد لم يدع سواه ، ولم يسأل غيره ، ولم يصرف وجهه إلا إليه . وهكذا .

والآيات فى ذلك كثيرة من مثل قول الله سبحانه وتعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الاسراء .

(٣) الآية ٢٢ من سورة يونس .

إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (١) .

وبهذا التلخيص والتصوير جمع الإسلام كل ما يتصل بالعقيدة فى الله تبارك وتعالى ـ ووضع حداً مانعاً من التخبط ، والتحريف ، والتفلسف بالباطل ، والجدل التافه فى أقدس العقائد وأمسها بحياة الناس فى الأولى والآخرة » (٢) .

وبعد هذه المقدمة التى كان لابد من الآتيان بها لأنها بمثابة الأساس للبناء فإننا نستعين الله ، ونشرع فى الحديث عن كل صفة على حدة بادئين بصفة الوجود . وهى الصفة النفسية الوحيدة . إذ بثبوتها يسهل ثبوت بقية الصفات .

---

(١) الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الأنفال .

(٢) الله فى العقيدة الإسلامية الشيخ حسن البنا ص ٦٧ والتى بعدها .

الوجود الذاتى[1]

أولا : الصفة النفسية :

والوجود بالنسبة لله سبحانه : صفة ثبوتية قديمة يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى يضاف إلى الذات .

وهى بهذا التعريف تخرج بقية الصفات . لأن قولنا : ثبوتية . تخرج الصفات السلبية ، وقولنا : دون معنى يضاف إلى الذات . يخرج صفات المعانى لأن كل صفة من صفات المعانى تدل على معنى زائد على الذات فمثلا صفة العلم تدل على الذات الموصوفة بالعلم . فالعلم شىء زائد على الذات ، وهكذا بقية صفات المعانى .

ويطالعنا فى بداية الحديث عن هذه الصفة سؤال هو :

وهل لهذا الكون من إله ؟ ؟

وهذا السؤال تتطلع العقول إليه ، وتتوق إلى معرفة الإجابة عليه .

يوجهه الطفل الصغير إلى أبيه . ويضطرب به قلب الشاب الحائر فيؤرق نومه . وقد لا يجد من يقدم له الجواب الشافى . ويجول أحياناً فى عقول ضعفاء الإيمان فيستعيذون بالله من وسوسة الشيطان .

---

(١) بمعنى أنه وحد لذاته لا لعلة ، فلا يقبل العدم لا أزلا‌ً ولا أبداً الوجوب لافتقار العالم وكل جزء من أجزائه اليه تعالى . وكل من وجب لافتقار العالم اليه لا يكون وجوده الا واجبا ، لا جائزاً ، وإلا لزم الدور والتسلسل . وهما باطلان .

ويشغل بال كل إنسان خصوصاً فى فترات الضعف والمرض والحرمان .

وقديماً سأل الناس هذا السؤال ، وانقسموا حوله شيعاً وأحزاباً تبعاً لما هداهم إليه تفكيرهم ، فمنهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الشمس ، والقمر ، والكواكب والكون ، ومنهم من أنكر الإله أصلا وألحد . ومنهم من عبد الله الواحد القهار .

ومع ما لهذا السؤال من أهمية ، فإن كثيراً من الناس لا يصلون فيه إلى إجابة شافية ، لأن الطفل إذا توجه به إلى أبيه رده عن التفكير فيه رداً رقيقاً - إذا كان مهذباً معه ، وقد يرده بالزجر والامتهان ، أو هو قد يلهيه بجواب لا نفع فيه معتمداً فى ذلك على سهولة إقناعه ، وإذا توجه به الشاب إلى صديقه أو أستاذه . فمن القليل أن يجد عند أى منهما ما يشفى صدره ، ويرضى عقله المتفتح ، وإذا توجه به إلى بعض رجال الدين ، أو إلى علمائه فقد يخاطبونه بآيات من الكتب الإلهية ، وأشياء من كلام الرسل ، ويدورون به فى حلقة مفرغة ، مقللين من قيمة ما تكشفت عنه العلوم ، أو ينكرون عليه استخدام الأساليب العلمية ، متناسين أن الحقائق لا يصطدم بعضها ببعض .

فالحقائق العلمية الثابتة لا تعارض بينها وبين ما جاءت به الكتب الإلهية السليمة ، والدين الربانى الصحيح .

من هنا يزداد السائل حيرة من أمره ، وينصرف على مضض عن التفكير فى هذا الموضوع ، لأن الفرد المثقف فى القرن العشرين عندما يسأل عن « خالق الكون » يكون متمشياً مع أساليب ونتائج العلوم التى توصلت

إلى أسرار الذرة وغزت الفضـــاء ، وكشفت من سنن الكون وأسراره وظواهره ما يحير العقول ، ولا تزال تكشف ، لذا فهو يريد جواباً يقوم على استخدام المنطق السليم ، ويدعوه إلى الإيمان بربه إيماناً يقوم على الإقناع لا على مجرد التسليم .

لذا : فإننا ـ بعون الله ـ سنقدم الإجابة على هذا السؤال من خلال الآيات القرآنية الكريمة ، وأقوال العلماء الإسلاميين وغيرهم من أصحاب النظريات العلمية الباحثة فى الكون ، لتكون الإجابة عنه شافية تطرح الشكوك ، وتطمئن القلوب ، وتهدى الحيارى ، وتثبت الإيمان فى النفوس القلقة وتفحم المكابرين ممن ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وإننا فى هذا المقام نجدنا مضطرين إلى أن نقول : إن العقل البشرى قد أقحم نفسه فى كل شىء حتى فيما لا يقدر أن يدركه من الغيبيات ظناً منه أنه استطاع أن يسخر الأرض ويجوب الفضاء، ويطوع الكثير مما فى الكون لإرادته ويجعلها تحت تصرفه مما جعل أحد الكتاب الملحدين وهو « جوليان هكسلى » يقول فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » : لقد تعلم الإنسان وأصبح مسيطراً على البيئة ولم يعد جاهلا بالكون ، ولا عاجزاً عن السيطرة على طاقاته كما كان من قبل ، ومن ثم فقد آن للإنسان أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل ـ فى عصر الجهل والعجز ـ على عاتق الله ويصبح هو الله »(١) .

---

(١) هامش ص ٥٢ والتى بعدها من كتاب « علم التوحيد » للشيخ محمد قطب .

وكان من نتيجة جرأة العقل البشرى أن أقحم نفسه فى البحث عن الذات الإلهية ، وأراد معرفة حقيقتها ، ولن يكون له ذلك ، لأن حقيقة الذات الإلهية لا تحيط بها الفكرة ، والإنسان لم يعط إدراكها بعد ، لذلك فإنه لا يمكن للعقل معرفتها ، ولا يستطيع إدراك كنهها .

وياليت هذا العقل البشرى حصر نفسه فى دائرة المحسوسات وفكر فى نشأتها وإيجادها ودقة صنعها ، ولو فعل ذلك لوصل ـ ومن أخصر الطرق ـ إلى معرفة الله عن طريق آثاره ، ولتعمق إيمانه به .

يقول الشيخ السيد سابق فى كتابه « العقائد الإسلامية » ما خلاصته : « إن العقل البشرى مهما كان مبلغه من الذكاء ، وقوة الإدراك قاصر غاية القصور ، وعاجز غاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء فهو عاجز عن معرفة النفس البشرية ، ومعرفة النفس لا تزال من أعقد مسائل العلم والفلسفة(١) ، وهو عاجز عن معرفة الضوء ، والضوء من أظهر الأشياء

---

(١) يؤكد هذا (ألكسيس كاريل) وهو طبيب وعالم فرنسى ألف مجموعة من الكتب فى شتى الأبحاث العلمية والاجتماعية ، من أهمها كتاب بعنوان « الإنسان ذلك المجهول » نص فيه على أن الحضارة الغربية تضع مناهج سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وتعليمية للإنسان وهى تجهل طبيعة ذلك الإنسان الذى تضع له هذه المناهج ومن ثم تكون النتيجة هى الخطأ الدائم والاضطراب ، وهذا هو السبب فى أننا نزيد تأخراً وهمجية كلما ازدادنا تقدماً فى الظاهر ، وقال : إن عجز الإنسان عن معرفة طبيعة =

وأوضحها ، وعاجز عن معرفة حقيقة المادة ، وحقيقة الذرات التى تتألف منها ، والمادة ألصق شىء بالإنسان ولا يزال العلم يقف عاجزاً أمام كثير من حقائق الكون والطبيعة ولا يستطيع أن يقول فيها الكلمة الأخيرة .

يقول العالم الفلكى المشهور ـ كاميل فلامريون ـ فى كتابه : « القوى الطبيعية المجهولة » : نرانا نفكر ، ولكن ما هو الفكر ؟ لا يستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال ، ونرانا نمشى ولكن ما هو العمل العضلى ؟ لا يعرف أحد ذلك ، أرى أن إرادتى قوة غير مادية وأن جميع خصائص نفسى غير مادية أيضاً ، ومع ذلك فتى أردت أن أرفع ذراعى أرى أن إرادتى تحرك مادتى ، فكيف يحدث ذلك ؟ وما هو الوسيط الذى يتوسط القوى العقلية فى إنتاج نتيجة مادية ؟ ؟

لا يوجد من يستطيع أن يجيبنى على هذا السؤال أيضاً ، بل قل لى : كيف ينقل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل ؟ وقل لى : كيف يدرك العقل هذا ؟ وأين مستقره وما هى طبيعة العمل المخى ؟

قولوا لى أيها السادة ـ يريد الملحدين ـ ولكن : كفى كفى فإنى أستطيع أن أسألكم عشر سنين ، ولا يستطيع أكبر رأس فيكم أن يجيب على أحقر أسئلتى .

فإذا كان موقف العقل هكذا حيال النفس ، والضوء ، والمادة ، وما فى

= نفسه هو عجز أصلى لا سبيل إلى التغلب عليه وأنه لامناص لنا من الرجوع إلى حكمة الخالق ، لأن حكمتنا الذاتية قاصرة ومضللة (هامش ص ٢٥ من كتاب علم التوحيد للشيخ محمد قطب) .

الكون المنظور ، وغير المنظور من أشياء فكيف يتطلع إلى معرفة ذات الباري ـ جل شأنه ـ ويحاول إدراك كنهه . إن ذات الله أكبر من أن تدركها العقول ، أو تحيط بها الأفكار ، وما أصدق قول الله سبحانه : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(١) .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

العجز عن معرفة حقيقة الأشياء لا ينفى وجودها

وقصور العقل وعجزه عن إدراك حقيقة الأشياء لا ينفى وجودها فعجزه عن إدراك حقيقة النفس لا ينفى أنها موجودة ، وعجزه عن إدراك حقيقة الضوء لا ينفى وجود ضوء يعم الآفاق ، وعجزه عن إدراك كنه الذرة لا ينفى أن ثمة ذرات تتكون منها المادة ، وهكذا سائر الأشياء التى يقصر العقل عن إدراك حقيقتها ، ويعجز عن معرفة كنهها .

ومثل ذلك ، الذات الإلهية ، إذا عجز الإنسان عن إدراك حقيقتها فليس معنى ذلك أنها غير موجودة ، بل هى موجودة كأقوى ما يكون الوجود .

إن وجوده / سبحانه / فى حكم البدهيات الأولية ، والمسلمات العقلية ومن كان كذلك فلا يطالب بإقامة الدليل عليه إلا المكابر . كالأعمى الذى يطلب إقامة الدليل على وجود الشمس أثناء النهار .

فما من إنسان إلا وعنده شعور ذاتى أقوى من الشعور بالجوع والعطش بأنه مخلوق ، وأن له خالقاً ، وأن للعالم الذى يعيش فيه ، ويتمتع به موجداً ، حكيما ، رحيما ، قوياً ، قادراً على كل شىء .

ومع ذلك فنحن نسوق من الأدلة ما يهدى إلى الحق ، ويكشف عن وجه الصواب .

الدليل على وجود الله من القرآن الكريم

إن القرآن الكريم به الكثير من الآيات الدامغة ، والعلامات الساطعة على وجود الله ـ سبحانه ـ ولما كان المقام هنا لا يتسع لإحصاء جميع الايات ، ولا لاستنباط دقائق العجائب الإلهية منها ، فإننا سنأتى بجملة من الآيات القرآنية الكريمة جمعت آيات كونية كثيرة شملت النبات ، والأفلاك والإنسان : والأشجار ، والثمار وغيرها . وفيها صورة للحياة فى بدئها : ثم فى نموها وإزدهارها وصورة الجمال الذى يشمل الكون كله ، أرضه وسماءه على السواء وصورة للإنسان السيد على هذا الكوكب الأرضى وقد أضيئت له الأرض بمصابيح السماء ، وأينعت له الثمار فى أنواع الأشجار ونظمت له حركة الشمس مع الأرض ليجد لراحته الليل لباساً ، ويجد لدأبه الحياة معاشاً ، ويجد لزرعة العام فصولا ، ويشعر بأن رحمة خالقه وسعت كل شىء ، ومنحت كل مخلوق قوام حياته ، وأسباب تطوره ، ومادة بقائه أو فنائه .

قال تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء

فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١) .

ويعلن القرآن الكريم فى الآيات الآتية أن كل من فى السموات والأرض وما بينهما يسبح له سبحانه بكيفية يعلمها هو وحده ، فهو مالك الملك كله ، وإليه المرجع ، وأمامه الحساب ، ويصور القرآن فى أسلوب بديع أن الله يسوق السحاب بقدرته أول نشأته من ضعف ثم يجمعه بعد تفرقه ويجعله متراكماً يركب بعضه بعضاً ثم يخرج المطر من ثناياه . وينزل سبحانه من السماء جبالا من برد لتكون نقمة على من نزلت عليه من الظالمين لشدة طغيانهم . ويصرفها بقدرته عن غيرهم من عبادة . وهذا البرد له برق يكاد ضوؤه لشدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

ويعظ ربنا أرباب الفكر السديد بآية عظمى . هى تقلب الليل والنهار بقدرته وحده يتصرف فيهما فيذهب هذا ليحل محله الآخر ، ويأخذ من

---

(١) الآية ٩٥ : ١٠٣ من سورة الأنعام .

طول أحدهما فى قصر الثانى . كل ذلك بأمره ، وقهره ، وعزته ، وعلمه
ويذكر القرآن قدرة الله التامة ، وسلطانه العظيم فى خلقه أنواع المخلوقات
على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ومع
ذلك فبعضها يمشى على بطنه كالحيـــة وماشاكلها ، وبعضها يمشى على
رجلين كالإنسان والطير، وبعضها يمشى على أربع كالأنعام وسائر الحيوانات
الشبيهة بها . سبحانك ربى إنك على كل شىء قدير .

قال تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير
صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات
والأرض وإلى الله المصير ألم تر ان الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله
ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد
فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار
يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار والله خلق كل دابة
من ماء فنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى
على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » (١) .

وفى الآيات الآتية يأمر ربنا رسول محمداً صلى الله عليه وسلم (٢) بأن
يحمد الله دائماً . فنعمه على عباده لا تعد ولا تنفد، وأمره بأن يسلم على
عبادة الذين اصطفاهم من خلقه سواء أكانوا رسله أم غيرهم من صحابته
الأخيار. ثم يذكر القرآن استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم وإشراكهم
مع الله آلهة أخرى .

---

(١) الآيات من ٤١ : ٤٥ سورة النور .
(٢) وكل المؤمنين به صلى الله عليه وسلم مأمورون بهذا الأمر تبعا له .

وقد بين بعده أن المتفرد بالخلق والرزق والتدبير هو الله وحده لاشريك له قال تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءالله خير أما يشركون أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر إذ دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون » (١) .

ويبدأ القرآن الكريم فى الآيات الآتية بذكر تسبيح الله تعالى لذاته المقدسة ليكون ذلك إرشاداً لعباده إلى تسبيحه وتقديسه وتحميده فى الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه . عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه ، وفى العشاء وهو شدة الظلام ، وفى الإظهار ـ أى وقت الظهر ـ وهو قوة الضياء .

وتجىء الآيات بجملة إعتراضية مناسبة للتسبيح هى قوله تعالى : « وله الحمد فى السموات والأرض » أى هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض من الأمور المتقابلة ، وغيرها مما هو موضح بتلك الآيات .

---

(١) الآيات من ٥٩ : ٥ من سورة النمل .

قال تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من فى السموات والأرض كل له قانتون وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (١) .

وبعد هذا العرض القرآنى للكون وما فيه من إنسان وغيره من مخلوقات الله . نستخلص الآتى :

أولا : أن هذا العلم بكل ما فيه ، ومن فيه محدث ، ومحدثه هو الله سبحانه وتعالى .

ثانياً : أن هذا العالم قائم ، ومتحرك ، ومتطور حسب سنن وقوانين ثابتة كلها من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

---

(١) الآيات ١٧ ، ٢٧ من سورة الروم.

ثالثاً : القرآن الكريم آيات مقروءة تدلنا على ما فى الكون من آيات محسوسة ذات دلالات علمية لا تحصى ، فواجب المسلمين اليوم أن ينهضوا نهضة علمية تتفق مع ما توجبه الآيات القرآنية من مدلولات علمية غفل عنها المسلمون طويلا .

الدليل على وجود الله

من أقوال العلماء والفلاسفة

يسوق الإمام ابن كثير فى تفسيره (١) جملة من الأدلة على وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند تفسير قول الله ـ جل ذكره ـ «يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فرشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلاتجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون» (٢). نأخذ منها ما يلى :

«إن من تأمل هذه الموجودات السفلية ، والعلوية ، واختلاف أشكالها ، وألوانها ، وطباعها ، ومنافعها ، ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة . علم قدرة خالقها ، وحكمته ، وعلمه ، وإتقانه وعظيم سلطانه . كما قال بعض الأعراب وقد سئل : ما الدليل على وجود الرب / تعالى / ؟ . فقال : ياسبحان الله ، إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدم ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟» .

وحكى الرازى عن الإمام مالك ـ رضى الله عنهما ـ أن الرشيد سأله عن ذلك . فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات .

كما حكى عن أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ أن بعض الزنادقة سألوه عن

---

(١) جـ ١ ص ٥٨ والتى بعدها .

(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة البقرة .

وجود البارى / تعالى / ؟ فقال لهم : دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ذكر وإلى أن سفينة فى البحر موقرة (١) فيها أنواع من المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شىء لا يقوله عاقل . فقال : ويحكم . هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ، فبهت القوم ، ورجعوا إلى الحق ، وأسلموا على يديه (٢) .

ويحكى الرازى أيضاً عن الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنه سئل عن وجود الصانع . فقال : ورق التوت طعمه واحد . تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم (٣) ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاة ، والبقر ،

---

(١) موقرة بكسر القاف وفتحها أى كثير حملها .

(٢) ونقول هنا : لا يعترض على هذا النص وأمثاله بالمخترعات الحديثة . من صواريخ تنطلق تصيب هدفها ، ثم تعود إلى قواعدها . أو طائرات استطلاعية ليس بها من البشر من يقودها أو يوجهها فتتوجه وحدها إلى أماكن لتصورها من ارتفاع شاهق ثم تعود إلى مطاراتها ، أو أقمار صناعية ترسل إلى مدارات مختلفة فى مهام علمية ثم تعود ادراجها وليس بها إنسان يحكم أمرها ، أو غير ذلك من المخترعات الحديثة الموجودة أو التى ستوجد مما يوهم أنها تنطلق ، وتقوم بمهام دقيقة وتعود إلى مطاراتها سالمة . أقول : لا يعترض بهذه الأشياء لأنها إن قامت بهذه المهام بدون أن يوجد بها أحد من البشر إلا أنها محكومة بأجهزة علمية . صنعها عالم ماهر فكأنه هو الذى يقودها ، ويحركها ، وينظم أجهزتها ، وبدون تلك الأجهزة لا يمكن لهذه المخترعات أن يؤدى وظيفتها . لذا فإن الإمام أباحنيفة أراد أن يقول للزنادقة المنكرين للخالق : إنه توجد سفينة تقود نفسها بلا إنسان ولا جهاز فأنكروا عليه ذلك ، فألجمهم الحجة ، وعادوا إلى صوابهم وشرح الله صدورهم للإسلام فأسلموا فهل يتدبر الماديون ، والملحدون ليتهم يفعلون .

(٣) الإبريسم : بكسر الهمزة والراء وفتح السين هو الحرير .

والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً ، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك ، والتوت شيء واحد .

وحكى عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ أنه سئل عن ذلك ـ أى عن وجود الله ـ فقال ـ وقد أمسك بيضة دجاجة ـ هذه البيضة ، حصن حصين أملس . ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينا هو كذلك إذا تصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن ، وصوت مليح .

وسئل أحد الشعراء (١) عن ذلك فأنشد :

تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من اللجين (٢) شاخصات
وأزهار كما الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يعصى الإلـه أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء لـه آية تـدل على أنه الواحد

---

(١) قيل انه أبو نواس .
(٢) من لجين : أى من فضة .

وقال آخرون :

« من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها، ومافيها من الكواكب الكبار ، والصغار النيرة ، من السيارة ، ومن الثوابت ، وشاهدها كيف تدور مع الفلك المظيم فى كل يوم وليلة دورة ، ولها فى أنفسها سير يخصها ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب ، والجبال الموضوعة فى الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى « ومن الجبال جدد(١) بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب (٢) سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء »(٣)

وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع ، وما ذرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة ، والنبات المختلف الطعوم والأرابيج والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء .

ومن تأمل كل هذا ، وغيره استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ، ولطفه بهم وإحسانه إليهم و بره بهم لا إله غيره ولا رب سواه ، عليه التوكل ، وإليه الإنابة .

ويقول صاحب كتاب : « قبس من الإيمان » الشيخ كمال عون فى ص ٣٢ « وهذا مثل ساقه بعض الحكماء فقال : قدر فى ذهنك بيتاً منسق البنيان ، فاخر الأثاث والرياش(٤) ، قائماً على جبل مرتفع ، تكتنفه

---

(١) الجدد : الطرائق تخالف لون الجبل ، واحدها الجدة بالضم وهى الطرايقة
(٢) الغرابيب : جمع غربيب بوزن قنديل ، وأسود غربيب : شديد السواد
(٣) من الآيتين ٢٧ ، ٢٨ من سورة فاطر .
(٤) الرياش : هو اللباس الفاخر .

غابة كثيفة ، وقدر أن رجلا جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله دياراً ولا نافخ نار ، فحدثته نفسه أن تكون صخور هذا الجبل قد تناثر بعضها ثم تجمع ماتناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع بما فيه من مخادع ، ومقاصير وأبهاء ومرافق وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً وتركبت أبوابا وسوراً ، ومقاعد ، ومناضد ، ثم أخذ كل منها مكانه فيه .

وأن تكون خيوط النبات ، وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة(١) ثم تقطعت طنافس(٢) ، ووسائد وزرابى(٣) فانبثت فى حجراته ، واستقرت على أرائكه(٤) ، وأن المصابيح جعلت تهوى إليه نفسها من كل مكان فنشبت(٥) فى سقفه زرافات(٦) ووحداناً ألست تحكم بأن هذا حلم نائم ، أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه باختلاط ؟

فما ظنك بقصر السماء سقفه ، والأرض قراره ، والجبال أعمدته ، والنبات زينته ، والشمس والقمر والنجـــوم مصابيحه أيكون فى حكم العقل أهون شأناً من ذلك البيت الصغير ؟ أولا يكون أحق بلفت النظر إلى بارىء مصور حى قيوم ، خلق فسوى وقدر فهدى ، وصدق الله القائل « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »(٧) .

---

(١) موشاة : أى مزينة بخيوط تخالف الأنسج: .
(٢) الطنافس : جمع طنفسة بكسر الطاء المهملة وفتحها وهى البسط
(٣) الزرابى : قيل هى الوسائد
(٤) أرائك : جمع أريكة وهى سرير منجد مزين .
(٥) نشبت فى سقفه : بكسر الشين المعجمة أى علقت فيه
(٦) زرافات : أى جماعات
(٧) الآية ١٠١ من سورة يونس

ويقول الشيخ حسين الجسر فى كتابه « الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الإسلامية » موجهاً حديثه للماديين :

« إنكم لما لم تهدوا إلى العلم بوجود من أوجد المادة . اعتقدتم قدمها ثم رأيتم تنوعاتها ، وتطوراتها ، فاحتجتم إلى البحث عن موجب نشأت عنه تلك التنوعات . إذ العقل لا يقتنع بكونها حدثت عن المادة لمجردها ، لأن كل حادث لابد له من سبب صالح لحدوثه فقلتم إن أجزاء المادة الفردة المختلفة الأشكال متحركة حركة أزلية ، وبسبب تلك الحركة أخذت تتجمع تلك الأجزاء على كيفيات وأوضاع شتى فنتجت تلك التنوعات مع أنكم لم تروا تلك الأجزاء لا بالعين ، ولا بالمكبرات ، ولم تعرفوا حتى الآن : ما هى المادة ، وما حقيقتها ، فما قولكم هذا إلا من باب التقدير والاستدلال .

وهكذا عدلتم عن قاعدتكم التى طالما تمسكتم بها ، وهى أنكم لا تسلمون إلا بالذى يؤديكم إليه الإحساس والمشاهدة ، والتجأتم إلى الاستدلال بالدليل النظرى والعقلى بدون إحساس ، ولا مشاهدة ، ومادمتم رجعتم إلى الاستدلال بالعقل ، أسألكم : هل الأهون على العقل السليم أن بأن يصدق كل هذا العالم بما فيه من نظام وإبداع وإحكام . هو أثر من آثار اجتماع المادة العمياء ؟ أم الأهون على العقل ، والأقرب إليه أن يكون كل ذلك قد تم بخلق إله عالم قادر مريد حكيم ؟ .

إننا إذا نظرنا إلى الأشياء ، وإلى مافيها من خواص ، ونواميس . وتأملنا فى حقيقتها . فهل نجد تلك المادة بطبيعتها مقتضية لوجود تلك الخواص

والنواميس؟ وهل النظر العقلي يوجب الإعتقاد باقتضاء وجود هذه الخواص، والنواميس؟ واقتضاء ظهور ما يظهر عنها من الآثار؟ . كلا . فالنظر العقلى يرينا ببداهة وجه اقتضاء الجسم المتحيز ، ووجه اقتضاء عدم تحيز الجسمين فى حيز واحد . ولكن هذا النظر العقلى لا يرينا وجه اقتضاء أن تكون الحرارة مذيبة للثلج . والبرودة مكونة له . إذ يمكننا أن نقول : لم لم يكن أثر الحرارة والبرودة بعكس ما هو عليه؟ ولم لم تكن الحرارة مكونة للثلج والبرودة مذيبة له؟ فلا بد لكم فى النهاية أن تقولوا : إن وضع هذه الخواص على هذه الصورة كان بتخصيص مخصص . وهذا المخصص هو الله الفاعل المختار ، المريد القادر . العالم الحكيم ولا يمكن أن يكون هذا التخصيص من طبع المادة نفسها . ومن مقتضياتها بذاتها .

وإذا نظرتم إلى عالم الكواكب ، وما وصف به فى كتب علم الهيئة التى ألفتموها أنتم ، وجدتم أن منها الصغير ، ومنها الكبير التى لا تكون أرضنا بالنسبة إليه إلا كحبة رمل فى فلاة . ووجدتم منها القريب إلينا ، ومنها البعيد عنا بملايين من الأميال ، ومنها البطىء السير ، ومنها السريع ، ومنها ما نوره أحمر ، أو أصفر ، أو أبيض ، ومنها ما نوره أصلى ، ومنها ما نوره مكتسب ، ومنها الثوابت ، ومنها السيارات ، ومنها ما يصل نوره إلينا فى دقائق ومنها ما لا يصل إلا بعد مئات من السنين ، وهى قائمة فى الفضاء بناموس الجاذبية ، أو بناموس آخر أوجده الله فيها غاية الضبط والإحكام بحركات مختلفة ، ودورات متنوعة لا يدرك أحدها الآخر .

فهل يقال إن الذى خص كلا منها بما اختص به ، ورتبها على نظامها العجيب المحكم ، هو مجرد حركة أجزاء المادة العمياء؟ أم الأقرب إلى

العقل أن يكون موجد هذا النظام والإحكام هو الخالق العليم القادر المريد الحكيم ؟

ثم إذا نظرتم إلى الجو وما فيه من هواء هو حياة النبات ، والحيوان وإلى تصريف حركة الرياح وما فيها من خصائص ومنافع . وكيف اختلفت ما بين شرقى وغربى ، وشمالى وجنوبى ، ورطب ويابس ، وحار وبارد وشديد وضعيف ، وكيف تسوق السحاب إلى مواقع المطر وتلطف الحرارة وتسوق السفن . وتلقح الأثمار(١) ، وتنشر بذور النبات .

ونظرتم إلى السحاب ، وما عليه من الصنع العجيب . والتكوين الغريب ، وما يصحبه من الرعد ، والبرق ، وما فيهما من فوائد . وإلى الثلج ، وتراكمه على الجبال ليرشح إلى بواطنها وأجوافها . ثم ينفجر عيوناً تجرى غدراناً وأنهاراً .

ونظرتم إلى النور وما يشتمل عليه من النواميس العجيبة . والمنافع التى لا تعد ولا تحصى . وتذكرتم ما لآرائكم وأبحاثكم فى حقيقة أمر النور من الاضطراب إذ كنتم تقولون : إنه ذرات صغيرة تنتشر على الجسم المنير ثم جئتم تقولون أخيراً : إنه اهتزاز أجزاء الأثير .

ونظرتم إلى الأرض وبحارها . وما فى هذه البحار من أغوار وأنجاد . وجبال ، ووديان ، وتلال وهضاب ، وبطاح ، وآجام ونباتات . وحيوانات تكل عن عدها العقول ، وتحار فى تنوعها الأحلام ، وتتيه فى أسرارها .

---

(١) الثمرة : واحدة الثمر — بفتح الثاء المثلثة والميم — والثمرات . وجمع الثمر : الثمار كالجبل والجبال ، وجمع الثمار : الثمر — بضم الثاء المثلثة والميم — مثل الكتاب والكتب . وجمع الثمر : الأثمار كالعنق والأعناق . فالأثمار : جمع جمع الجمع .

الأفهام . وما يقع فى البحر من مد، وجزر ، وتيارات ، وما هو عليه ماء البحر من ملاحة تقيه الفساد .

ونظرتم إلى اليابسة . وما فيها من جبال ، ووديان ، جعلت مخازن للمياه ومأوى للوحوش والطيور ، ومنابت للغابات ، وحواجز للرياح ، وكيف اختلفت فمنها الأجرد القاحل ، ومنها المنبت الآهل ، ومنها ما تنفجر منه العيون الغدران وإلى السهول ، وما فيها من خصائص الخصب ، وإلى ما فى باطنها وظاهرها من معادن مختلفة الأنواع ، والأصناف ، والخواص ، وما فيها من منافع للناس ولا سيما حجر المغناطيس ، وما فيه من القوى الغريبة ، والأسرار العجيبة التى عجز العلم عن كشف حقائقها ، وأصولها ، وأسبابها .

وإذا نظرتم إلى عالم النبات ، وما اشتمل عليه من عجائب ، وغرائب ، وأسرار وحكم تدهش العقول . وتأملتم فيه ، كيف يضرب فى بطن الأرض بجذوره ويمتص الغذاء ، كيف يرسل أغصانه فى الجو يتلقى النور والهواء . ومافيه من أزهار مختلفة الأشكال ، والألوان ، والأقدار ، والأحجام ، والروائح والطعوم ، وتذكرتم أن منها مايشبه الفراش . ومنها ما يشبه الرتيلاء .

ومنها مايشبه صورة طير أصفر برأس وعينين ، ومنقار وعنق ، وصدر وجناحين . وفى أسفل بطنه صورة نحلة ذات عينين ، وظهر ، منقوش وجناحين . . وهى الزهرة المعروفة بزهرة النحلة أو زهرة الطير .

ونظرتم إلى أنواع النبات الحساس كالسنط ، وأنواعه المفترسة كالتى تفترس الذباب ، وأنواعه المتحركة أوراقها بنفسها حركة دائمة ، ومنها ما تتحرك وريقاته ستين حركة فى الدقيقة كأنه ساعة حية ، ومنها ما يتحرك

مع حركة الشمس ، ونظرتم إلى ما فى هذه الأنواع من النباتات الكثيرة الغريبة العجيبة ، وكيف أن منها ما يبلغ منتهى العظم ، والارتفاع حتى يستطيع الفارس أن يدخل فى جوف جذعها وهو على صهوة جواده ، ومنها ما يبلغ محيط جزعه تسعين قدماً ويبلغ ارتفاعه ثلثمائة ، أو أربعمائة قدم ، ويبلغ عمر بعضها ستة آلاف سنة ، ونظرتم من جهة أخرى إلى النباتات التى تبلغ من الصغر حداً لا ترى معه إلا بالمكبرات كالطحالب التى تعلو وجه الماء ، والعفونات التى تلتصق ببعض الجدران ، ونظرتم إلى ما فى النبات من اختلاف فى الأشكال ، والطعوم ، والألوان ، والروائح والمنافع ، والمضار ، فنها ما أصله نافع ، وثمره ضار ، أو يكون النفع ، أو الضرر فى زهره ، أو ورقه، وتذكرتم أن كل هذه الأنواع والأشكال تنبت فى تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ، ونظرتم إلى طريقة تغذيتها وتناسلها ، واستعرضتم بالنظر الشامل ما كتبه علماء النبات منكم، وألقوه عن النبات وأسراره من مجلدات فهل يصح لكم بعد هذا أن تقولوا : إن الذى كون هذه العوالم وأبدعها على هذا النظام ، والإحكام هو حركة ذرات المادة العمياء ؟ ؟ . .

وإذا نظرتم إلى عالم الحيوان ، وما اشتمل عليه من غرائب وعجائب وأسرار ، وأصناف ، وأنواع ، وأشكال ، وكيف أن منها الكبير كالفيل ، ومنها ما لا يرى إلا بالمكبرات «كالنفاعيات» الفوسفودية التى يجتمع منها خلق كثير لا يحصى ولا يعد على وجه البحر فتلمع ، وتتوقد كسيل من نار لاتنام قط . ولا تسكن، وهى من الصغر بحيث إن مائة وستين مليوناً من صغارها لا تبلغ ثقل قمحة واحدة. وكيف أن فى قطرة واحدة من الماء مايزيد عدده على كل أهل الأرض ، ولها مع هذا الصغر المتناهى أعضا ، وعندها

معرفة فى طلب معاشها ، وميل إلى ما يلائمها ، ونفور مما يضرها ، ونباهة تتقى بها الأخطار .

وتذكرتم أن من الحيوانات ما يعيش طويلا ، ومنها ما لا يعمر إلا أمداً قصيراً ، وأن طول العمر وقصره ليستا تابعين لسبب معين ، فالنسر يعيش أكثر مما يعيش الفيل ، وإن منها ما يعيش فى الهواء ، ومنها ما يعيش فى الماء ، ومنها ما يعيش على سطح الغبراء ، ومنها ما تكون حياته على الجانبين ومنها ما يمشى على اثنين ، ومنها ما يمشى على أربع ، ومنها ماله عدة أرجل ومنها ما يزحف على بطنه ، ومنها ما يتناول غذاءه بيديه ، ومنها ما يتناوله بفمه أو بمنقاره ، أو بخرطومه ، أو بلسانه كالحرباء التى تمد لسانها المبتل فتخطف به الذباب .

ومنها ما تنقف بيوضه عن جنين ثم يولد ، ومنها ما تخرج بيوضه منه ثم تنقف ، ومنها ما تتلقى بيوضه اللقاح وهى فى جوفه ، ومنها ما تتلقى بيوضه اللقاح فى الخارج ، ومنها ما يرضع صغاره ، ومنها ما يزقها ، ومنها لها ويرشدها إلى القوت ؛ ومنها ما يتعاون الأبوان على تربيته ؛ ومنها ما تستقل الأم بتربيته ؛ ومنها ما يبنى الأعشاش لصغاره ؛ ومنها ما يحمل صغاره على ظهره أو فى جراب عند بطنه ومنها ما يلد الواحد ؛ [illegible]نها ما يلد الكثير ؛ وتذكرتم كيف كسيت الطيور بالريش وكيف أحكم [illegible] تكوين الجناحين ؛ فجعلت أوائل الريش ثخينة مفرغة لتخف عند الطيران ؛ وجعلت من مادة تجمع الصلابة ، واللدونة لتتحمل الرياح ولا تنقصف ؛ وتذكرتم أن من الطيور ما يطير بغير جناحين ؛ وهو الخفاش الذى له أسنان ؛ وله خواص الحيوانات اللبونة فى توالده ؛ وإرضاعه .

وتذكرتم أن من الحيوانات ما هو مكسو بالشعر، أو بالصوف . أو بالوبر أو بالعظم . أو بالقشور الغضروفية . ومنها ما ليس عليه إلا الجلد والبشرة ومنها الطويل اليدين ، القصير الرجلين كالزرافة ، ومنها القصير اليدين الطويل الرجلين كالأرنب ، ومنها ذوالعينين ، ومنها ذوالعيون كبعض العناكب ، ومنها ذو الذنب ، ومنها ذو الألية ومنها ذو الحافر ، وذوالظلف وذو الخف ، وذو القدم ، وذو البراثن ، ومنها ماله كرش لخزن مقدار كاف من النبات ، ومنها ذو المعدة ومنها ذو الأسنان الصالحة لتمزيق اللحم ، ومنها ذو الأسنان الصالحة لقضم النبات ، ومنها ما سلاحه المخالب ومنها ما سلاحه أنيابه ، أو قرونه ، أو خراطيمه ، ومنها ما جعل سلاحه السم الناقع ، ومنها ما يصطاد رزقه بشبكة ينسجها من جسده كالعنكبوت ، ومنها ما يخطف رزقه من الهواء ، ومنها ما يغور على رزقه فى بطن الأرض ومنها ما يقتات بالحبوب . أوبالأوراق ، أو بالأشجار ومنها مايقتات بلحوم الحشرات ، ومنها ما يدخر قوته للشتاء كالنمل ، فإذا أصاب ذخيرته شيء من رطوبة الأرض أخرجها إلى نور الشمس حتى تجف وخرق الحبوب المدخرة حتى لا تصلح للنبات إذا أثرت فيها الرطوبة ، وقد يخرق بعضها أكثر من خرق واحد ، لأن الخرق الواحد لا يمنع نباتها.

وإذا نظرتم إلى اختلاف الحيوانات فى ألوانها وأشكالها ونقوشها وما عليه بعضها من الجمال ، وعليه البعض الآخر من القبح ، وأن منها ماصوته عذب يطرب ، ومنها ماصوته منكر مزعج ، ونظرتم إلى طرائقها فى معيشتها واجتماعها . وأن فيها من يسعى لرزقه منفرداً . ومنها ما يسعى

إليه مجتمعاً ومنها ما يكون اجتماعه على أنظمة خاصة ويكون له رؤساء وحراس وخدم ورواد . وأن منها الجرىء . ومنها الجرىء . ومنها الجبان ومنها القوى . ومنها الضعيف ومنها ما لو نخس بإبرة فى نخاعه الشوكى مات للحال ، ومنها ما لو قطع إرباً إرباً لم يمت ، وعاد بعد أيام ، وقد نبت لرأسه المقطوع ذنب ، ووسط ولوسطه المقطوع رأس ، وذنب ، فرجع حيواناً كاملا .

وإذا نظرتم إلى كل هذا ، فهل تجدون أن العقل يصدق كل هذا الإبداع والتنظيم . والإحكام نتيجة إجتماع أجزاء المادة العمياء ؟ ؟

ثم يلتفت الشيخ الجسر إلى الإنسان ، فيرى فيه عجائب كثيرة وغرائب لا تعد وتحصى فيقول عنه :

هذا الإنسان العجيب الذى يبدأ حياته من نطفة مثل كل حيوان أعجم ثم يصبح فيلسوفاً ، يعلم الأسماء كلها ، فتتسع جمجمته لإدراك كل ما فى هذا الكون من وجود ومادة وقوة ونظام وحق وخير وجمال وتناسق وتناغم فيصوغ منها علماً وفناً وأدباً وشعراً ونغماً وحكمة وفلسفة وتصوفاً يكشف بأضوائها ـ وهو لا يدرى ـ عما فيه من سر الألوهية الدفين . ثم تبهره هذه الأضواء فيتخبط فى ديجور(١) من الشك والإلحاد فيرجع حيواناً سافكاً للدماء .

وهذا الإنسان العجيب : هل كان خلقه أثراً من آثار المصادفة والفوضى والعماء ؟

---

(١) الديجور : الظلام

ما هذا الإنسان ؟ وعن أى عجائبه أحدثك ؟ أترانى أنسخ لك كتابا من كتب التشريح ، أو أصنع لك رسالة فى علم الحياة ؟

كيف يتطور فى بطن أمه من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، إلى إنسان كامل ؟

كيف يتغذى فى بطن أمه بتلك الطريقة العجيبة ؟ كيف يتنفس ، كيف يأكل ، كيف يمضغ ، كيف يبلع كيف يهضم ، كيف يمتص غذائه ، كيف يدفىء جوفه ، كيف يستمد وقوده ، كيف يحرق وقوده ، كيف يكنس جوفه . كيف يحرق كناسته ، كيف يقايض على كناسته بوقود جديد ، كيف يحول غذائه فى مصنع كبده ، كيف يدفعه فى جداول بدنه ليسقى حقوله الواسعة بتلك المضخة الهائلة ذات البيوت العجيبة ، والصمامات الدقيقة التى تعمل زماناً طويلا بدون أن تتوقف ثانية واحدة فى دورة دموية مدهشة تروح فيها الجداول الحمراء تحمل الدم النظيف إلى أقصى أطراف الجسد . وترجع الجداول الزرقاء به مملوء بالسواقط والنفايات وأشلاء العمال الموتى إلى مصفاة . بل محرقة هائلة تنقيه وتطهره . وتحمله الوقود الجديد ليرجع إلى المضخة لتدفعه ثانية من الجسد . بينما تكون مصفاة الكليتين تتمم تنقيته من العضلات التى تعجز الرئتان عن حرقها ؟ ؟

ما هذه الغدد العجيبة ذات الإفرازات الكيمائية الداخلية التى تتحكم فى الأعصاب والعقل والقلب ، والشرايين ، والعظام والتغذية ؟ ؟

ما هذه الخلايا التى لا ترى بالعين المجردة التى يبلغ عددها فى جسم الانسان التريليونات (أى بلايين البلايين) مع أن هناك أحياء مكونة من خلية واحدة فقط .

كيف تنتظم هذه الخلايا فى جماعات من تلقاء نفسها ليكون كل منها جانباً من الجسم كأنها النمل أو النحل تعرف الدور الذى كتب عليها أن تقوم به فى رواية الحياة ؟

ما هذا التنسيق الآلى الكيماوى العصبى العجيب الذى يبدو منه أن كل عضو ، وكل غدة . بل كل خلية تتجاوب ، وتتعاون لإيجاد توازن ثابت دقيق فى دم الجسم ومائه ، وحرارته ، وأمصاله ، وعصارته وأحماضه وقلوياته وسكرياته ، والقيام بإصلاح كل فساد ، وترميم كل خراب ، وتعويض كل نقص ، وسد كل عجز ، وتعديل كل إفراط ، أو نقص ، ورتق كل فتق ، ورفع كل خرق ، وجبر كل كسر . وتوقيف كل نزيف . وتعبئة كل قوة ، وشحذ كل سلاح ، وصنع كل سم ومصل لرد كل عدوان ، وتحطيم كل عدو .

ما هذا الجهاز العصبى الذى نسيطر عليه ، ويسيطر علينا من حيث ندرى ، ومن حيث لا ندرى فنتحكم بجانب منه على بعض أعضائنا بإرادتنا ويتحكم هو بجانب آخر من خيوطه على أعضائنا الرئيسية بإرادته المستقلة بدون علم منا . كأنما فى هذا الجهاز عقلان مستقلان ، وإرادتان مستقلتان العقل الواعى ، والعقل غير الواعى ، مع أن العقل غير الواعى هذا أحق بأن يوصف بالواعى لأن ذلك الواعى يخطىء ، وهو لا يخطىء ، ولأن الواعى لا يعى أعمال زميله ، أما غير الواعى فيشعر بكل أعمال الواعى . ويتدخل سراً بتنسيقها ، ولأنه إذا سكن الواعى ، أو تعطل توقفت عضلاتنا عن الحركة ، وتوقف دماغنا عن التفكير الصحيح ، فيصبح حكمنا حكم النائم ،

وأما إذا تعطل غير الواعى اختل القلب ، والمعدة ، والكبد ، والسمع ، والبصر ، وغيرها ، وكان مصيرنا الموت ؟

ماهذه المادة المخية المخبوءة على أكثر من اثنى عشر مليون خلية تتصل إحداها بالأخرى بليف عصبي ذى فروع لا تحصى ولا تعد وتتصل ببعضها إتصالا مستمرا فتعمل بدقة عجيبة كما لو كانت خلية واحدة ؟

ما هذا السحاء الدماغى الذى كأنه رقعة شطرنج فى كل بيت من بيوته ضابط، هذا يضبط الإدراك ، وهذا يضبط الحركات وهذا يضبط الكلام وهذا يتلقى من الخارج ألوف الرسائل الواردة عن طريق الحواس ، فيقرأ هذه ويؤخر هذه ، ويطرح تلك فى الأعماق ، ويكون مما شاء منها إدراكا عقلياً عجيباً ، ويخرج به عن حيوانيته الأصلية ، ويسمو به أحياناً إلى عتبة الألوهية ؟

فكيف يصاغ هذا الإدراك العقلى العجيب بهذه القطعة الصغيرة من اللحم التى تجعلنا فوق الملائكة . أفكل هذا الايداع فى الخلق أثر من آثار المصادفة ؟ ؟

وهذا قليل من كثير من عجائب هذا الإنسان فى خلقه ، وتكوينه عرضناه عرضاً خاطفاً هنا ، فتأملوا به ، وبغيره مما لم يذكر . وقولوا لنا : هل لعقل عاقل أن يصدق بأن كل هذا الإبداع ، والتنظيم ، والإتزان والاتقان والإحسان هو أثر من آثار المصادفة العمياء ؟ لا . إنه صنع الله ، المدبر الحكيم وصدق ربنا حيث يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن

تقويم »(١) .

ويقول الشيخ سيد سابق فى كتابه « العقائد الإسلامية » تحت عنوان الطبيعة تؤكد وجود الخالق . ما خلاصته : « إن وجود الله حقيقة لا شك فى أمرها ، ولا مجال لإنكارها ، فهو ـ سبحانه ـ ظاهر ، وكل ما فى الكون شاهد على هذا الوجود الإلهى ، ومواد الطبيعة وعناصر تؤكد أن لها خالقاً ومدبراً ، فالعالم العلوى وما فيه من شموس ، وأقمار ، ونجوم ، وكواكب والعالم الأرضى ، وما فيه من إنسان ، وحيوان ، ونبات وجماد . والترابط الوثيق ، والتوازن الدقيق الذى يؤلف بين هذه العوالم ، ويحكم أمرها ما هو إلا آية وجود الله ، ومظهر تفرده بالخلق . ولا يتصور العقل أن توجد هذه الأشياء بدون موجد ، كما لا يتصور أن توجد الصنعة بدون صانع ، فإذا كان العقل يقول باستحالة أن تطير طائرة فى الهواء أو تغوص غواصة فى الماء دون أن يكون فيه صانع للطائرة ، ولا منشىء للغواصة ، فإنه يجزم جزماً قاطعاً باستحالة وجود هذا الكون البديع ، وهذه الطبيعة الجميلة من غير خالق خلقها ، ومدبر دبر أمرها .

ولئن قال قائل : إن العالم وجد من عدم بدون موجد ، فإننا نقول ببطلان هذا الرأى من أساسه ، لأن المسببات مرتبطة بأسبابها والنتائج مرهونة بمقدماتها ، ولا يتصور العقل أن يوجد معلول بدون علة ، ولا مسبب دون أن يسبق بسبب ، ولا نتيجة من غير أن يكون لها مقدمات .

---

(١) الآية الرابعة من سورة التين .

فصدور الكون من العدم معناه وجود المعلول بدون علة ، والمسبب بدون سببه ،والنتيجة دون مقدماتها ،أى أن الكون وجد من نفسه وصدر منقطعاً عن سببه .

ووجود الأشياء من نفسها منقطة عن أسبابها محال عقلا ، وواقعا . لأن وجود الأشياء من نفسها مع انقطاعها عن أسبابها ترجيح لجانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح ، وترجيح جانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح محال .

إننا إذاقلنا : إن الكون وجد من نفسه منقطعا عن سببه كان ذلك مساويا لقولنا: إن العدم سبب الوجود ، وهذا غاية فى البطلان ، لأن العدم لايتصور أن يكون مصدراً للوجود ففاقد الشيء لا يعطيه ، وهذا هو ما أشارت إليه الآيتان الكريمتان :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » . (١)

أى هل وجدوا من غير خالق . أم خلقوا أنفسهم ، فلا يحتاجون إلى أحد يخلقهم ؟ وكل هذا مستحيل .

ولو قال ذلك القائل : إن العالم وجد صدفة كان هذا القول أعظم تهافتا من الأول ، لأن الصدفة لا يمكن أن ينبثق عنها هذا النظام ، ولا أن يصدر

---

(١) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة الطور .

عنها هذا الإحكام ، فهل الصدفة هي التي خلقت الذكر والأنثى ؟ وألفت بينهما هذا التأليف الجميل .؟ وهل هي التي خلقت الأرض وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد ؟ وهل الصدفة هي التي علقت الأرض في الهواء ، وسيرتها في مدارها الدائم تنحرف عنه قيد شعرة منذ ملايين السنين . وهل الصدفة هي التي سيرت الكواكب ، والنجوم مع ضخامتها ، وكثرتها بهذه السرعة المذهلة دون أن تتصادم ؟ وهل الصدفة هي التي أوجدت العناصر التي يتألف منها الكون ، وهي التي تنسقها تنسيقاً دقيقاً صالحاً للاستمرار ، والدوام إلى المدى الذي أراده الله . ؟ .

إن الذرة ـ وهي صغيرة جداً يحار العقل والعلم في تركيبها المحكم وتناسقها العجيب ، وتآلف أجزائها بعضها مع بعض . فهل هذا التركيب والتناسق صدفة لنستمع إلى كلمة العلم في الذرة .

« تتألف المـــادة من ذرات لا يمكن رؤيتها إلا بأقوى المجاهر (الميكروسكوبات) ولكي نتصور حجم الذرة علينا أن نتصور أننا لورصصنا (١) مائة مليون ذرة جنبا إلى جنب لبلغ طولها بوصة تقريبا ومن ناحية أخرى يوجد في قطرة من مياه البحر خمسون مليون ذرة من الذهب.

وتتألف الذرة من نواة تدور حولها كهارب سلبية (الكترونات) في أفلاك مستديرة ، وبين الإثنين . فراغ يشبه الفراغ الذي بين الكواكب والشمس من حيث النسبة بين الحجم والأبعاد .

---

(١) رص الشيء : ألصق بعضه على بعض ، وبابه رد ، ومنه « نبيان مرصوص »

ويبلغ وزن أخف نواة خمسين وثمانمائة ضعف وزن الالكترون . ولو رصت عشرون ألف نواة جنبا إلى جنب لبلغ طول قطرها قطر الذرة ، أو بعبارة أخرى نسبة النواة إلى الذرة كرأس الدبوس بالنسبة إلى منزل متوسط الحجم .

وتدور الالكترونات حول النواة فى أفلاك كأفلاك الكواكب إذ تدور حول الشمس ، ولكن هذه الأفلاك أكثر حساسية ، وأقل تحديداً من أفلاك الكواكب ، ولو أن المادة المؤلفة من النوى الذرى مكدسة مع بعضها ، أى بدون الفراغ الموجود بين النوة ، والالكترون لبلغ وزن قطعة نقدية فى حجم القرشين حوالى أربعين مليون طن .

وتتألف النواة من كهارب موجبة (بروتونات) يساوى عددها ، عدد الكهارب السالبة (الالكترونات) التى تدور حول النواة ، ويوجد إلى جوار البروتونات كهارب أخرى متعادلة الشحنة تسمى (نيوترونات) ولو استطعنا أن نخلخل من هذه الرابطة التى تربط بين البروتونات والنيوترونات ، أو بالأحرى : لو استطعنا أن نهيء السبيل لهروب نيوترون واحد من مجموع النيوترونات التى تحيط بالبروتونات إذن لانطلقت طاقة كبرى ـ أى حرارة كثيرة ـ تكفى لإحراق عددها هائل من المخلوقات .

فإذا انتقلنا من الذرة ، ورفعنا رءوسنا إلى الشمس رأينا العلم يقول : الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطيساً من كل نار على الأرض ، وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة ، أما بعدها عنا فنحو تسعة ملايين ميل . هذا وإن هى إلا نجمة ، وليست هى فى عداد النجوم الكبرى .

وهناك مشكلة أخرى أعي حلها النهائي عقول العلماء والفلكيين هى : أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرار مدة ملايين من السنين ، فإذا كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها ، فكيف لم تفن مادتها مع توالى العصور ؟ فلاشك أن طريقةالاحتراق الجارية فيها غير ماتعهد، ونألف. وإلا لكفاها ستة آلاف عام لتحترق ، وتنفد حرارتها .

أما فضل الشمس علينا ، فليس أنها مصدر نورنا ، ونارنا فقط بل هى محور نظامنا السيارى. ومصدر حياتنا أيضاً فهى التى تبخر مياه البحر ، وترفعها غيوما فى الجو ، وتنزلها أمطاراً على الأرض حيث تجرى جداول وأنهاراً تروى زرعنا ، وتنمى أغراسنا . وتحافظ على نمط الحياة فى الإنسان والحيوان ، والنبات ، وكل الكائنات الحية . كما أنها تثير الرياح وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن ، والمراكب فى عباب المحيط وهى التى تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجرى إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع به بنو العصور المتأخرة، ولا حياة—لولا الشمس—الحيوان، ولا بنات فالحيوانات تنتعش بحرارتها ،والأطيار تغردبأنوارها ، وتسبح تسبيحاً ،وبحرارتها ، وأنوارها تبزغ النباتات ، وتنمو الأشجار ، وتزهر الأزهار وتنضج الأثمار ، فنحن مدينون للشمس بمأ كلنا ، ومشربنا ، وهى علة وجودنا على هذه الأرض

فإذا تجاوزنا الشمس وجدنا أن أقرب نجم إلينا بعد الشمس يعادل بعده سنين وثلثمائة ألف مرة من بعدالشمس عنا ، ويعتبر هذا شيئاً ضئيلا

جداً بالنسبة لنجوم المجرة التى أسماها القدماء ـ طريق التبانة ـ بل تعتبر المجوعة الشمسية ذرة إذا قيست بالمجرة إذ أنها تحتوى على مائة مليون نجم موزعة فيما يشبه القرص المفرطح الرقيق نسبياً .

من الذى دبر كل هذا ؟ هل المصادفة ، لا . بل إن الذى دبرها هكذا هو الذى خلقها . هو الله الواحد . القادر . الحكيم . سبحانه . لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وإذا كانت هذه أقوال بعض من العلماء المسلمين ، فإننا نجد الكثير من الفلاسفة ، والعلماء غير المسلمين ؛ يسوقون الأدلة الكثيرة على وجود الله ـ سبحانه وتعالى من هؤلاء ـ اللورد كلفن ـ الذى سخر من فكرة المصادفة ومن القائلين بها ، واستدل بهذا النظام الذى يشمل الكون على وجود الخالق الحكيم فقال : « يتعذر على الإنسان أن يتصور بداية الحياة ، أو استمرارها دون أن تكون هناك قوة خالقة مسيطرة ، وإنى لأعتقد من صميم نفسى أن بعض العلماء فى أبحاثهم الفلسفية عن الحيوان قد أغضوا إغضاء عظيما مفرطا عما فى نظام هذا الكون من حجة دامغة ، فإن لدينا فيما حولنا براهين قوية قاطعة على وجود نظام صنع بتدبير وحكمة ، وهى براهين تدلنا بواسطة الطبيعة على ما فيها من أثر إرادة حرة ، وتعلمنا أن جميع الأشياء الحية تعتمد على خالق واحد أحدى أبدى » (١)

ويقول ـ هيربرت سبفسرجونز ـ مؤلف كتاب : ـ الفلك العام ـ :

---

(١) نديم الجسر ـ الجواب الإلهى ص ١٠٩ ، ١١٠ .

« إن الضوء يستغرق مائة ألف سنة ضوئية ليصل بين طرفى المجرة ومعلوم أن الضوء يسير بسرعة ستة وسبعين ومائة ألف ميل فى الثانية (١) أو ثلثمائة ألف كيلو متراً فى الثانية . وعلى هذا فإن السنة الضوئية تعادل عشرة ملايين مليون كيلو متراً - وهى ما تعادل ستة ملايين مليون من الأميال أى ستة مليارات من الأميال - وليست هذه المجرة - التى تبلغ هذا الحد من الضخامة التى يقوى العقل على استيعابها - إلا واحدة من كثيرات لم يحصها العد .

وبق أن نعرف أن أقرب مجرة لمجراتنا تبعد سبعمائة ألف سنة ضوئية أفبعد هذا يتصور العقل أن يكون ذلك ناشئا بطريق الصدفة .

إن القول بالصدفة فى خلق الكون لا يتصوره العقل ، ولا يقره العلم ، ولا يقوله إنسان إلا إذا فقد أخص خصائصه من الإدراك والتمييز »(٢) .

ويقول الفيلسوف الألمانى - إدوارد هارغان - فى كتابه : « المذهب الداروني » : « إن الرأى الذى مقتضاه عدم وجود القصد فى الكون عند الداروتيين لا يقوم عليه دليل ، وهو من الأوهام التى لا أساس لها من العلم » (٣) .

وقال الأستاذ - فون باير - الألمانى . فى كتابه : « دحض مذهب

---

(١) ثبت أن سرعة الضوء ١٨٦٢٨٤ ملا فى الثانية - أو ٣٠٠ ألف كيلو مترا فى الثانية .

(٢) نفس المرجع والصفحات .

(٣) نفس المرجع والصفحات .

دارون » . « وإذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهورى بأنه لا يوجد قصد فى الطبيعة وأن الكون لا تقوده إلا ضرورات عمياء فأنا أعتقد أن من واجباتى أن أعلن عقيدتى فى ذلك وهى : أنى على العكس أرى جميع هذه الضرورات تكشف عن أغراض سامية » (١) .

وفى الجزء الأول من دائرة المعارف — لفريد وجدى — أقوال لكثير من الفلاسفة . منهم الفليسوف — باسكال الذى يقول : « كل شىء غير الله لا يشفى لنا غليلا » .

ويقول — شاتوبريان — : « لم يتجرأ على إنكار الله غير الإنسان » ، ولاتيبه — يقول : « الكلمة التى تجحد الخالق تحرق شفة المتلفظ بها » (٢) .

وهذا — سقراط يدعو إلى الإيمان بالله . ويفحم — إريستوديم — الذى ينكر الألوهية بعد محاورة جادة . بدأها سقراط بقوله :

---

(١) نفس المرجع والصفحات .

(٢) وإذا كان المنكرون لوجود الخالق — سبحانه — قد غرهم أن الله لا يحرق شفاههم بمجرد النطق بكلمة الجحود — وذلك لكمال رحمته ، وواسع فضله ، إلا أن تلك الكلمة الخبيثة تحرق الجانب الإنسانى فيهم فيصبحون كالبهائم بل هم أضل . وتحرق الحياة منهم فيصيرون أمواتا غير أنهم يتحركون كأشباح أو الدمى ، وتحرق السعادة من قلوبهم فلا يذوقون لها طعما ، ولا يعرفون لها طريقا ، وتحرق الطمأنينة من أفئدتهم فيعيشون فى اضطراب عصبى ، وقلق نفسى ، ويحسبون كل صيحة عليهم . وتحرق فيهم جانب المراقبة لله فلا يؤدون واجبا من أجل الواجب ، أو الإنسانية ، ولا يعملون إلا فى إطار الغنم المادى ، أو الشهرة والظهور ، ومع ذلك فإن الله يستدرجهم من حيث لا يعلمون ويملى لهم ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

سقراط : أيوجد رجال تعجب بمهارتهم ، وجمال صنائعهم .؟ .

إريستوديم : نعم أعجب فى الشعر القصصى – بهومير – وفى التصوير بزوكيس – وفى صناعة التماثيل – بيوليكتيت – .

سقراط : أى الصناع أولى بالإعجاب . الذى يخلق صورا بلاعقل ، ولا حراك ، أم الذى يبتدع كائنات ذات عقل وحياة ؟ .

إريستوديم : طبعاً الذى يبدع الكائنات المتمتعة بالعقل والحياة إذا لم تكن من نتائج الاتفاق – أى إذا لم تكن موجودة بالمصادفة .

سقراط : وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تعطى للأعضاء — لمقاصد وغايات خاصة — عين ترى ، وأذن تسمع ، وأنف يشم ، ولسان يتذوق ، والعين تحاط بحراسة لحساسيتها وضعفها ، فتقفل عند النوم ، أو عند الحاجة ، وتحرس بالرموش والحواجب ، يجعل للأذن جهاز خارجى يجمع لها الصوت ، وهل يمكن أن يكون كل ذلك من نتائج الاتفاق ؟ ؟ . .

والميل المودع فى النفوس للتناسل ، والحنان المخلوق فى قلوب الأمهات بالنسبة للأولاد مع ندرة أن ينفع ولد أباه ، أو أمه . والطفل الذى يلهم الرضاعة بمجرد ولادته . هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟

إريستوديم : لا . إن ذلك يدل على الابداع ، وعلى أن الخالق عظيم يحب الكائن الحى ، ولكن : لماذا لا نرى الخالق . ؟ .

سقراط : وأنت أيضاً لا ترى روحك التى تتسلط على أعضائك . فهل معنى هذا أن نقول : إن أفعالك صادرة عن اتفاق ، وبدون إدراك ، (١) .

---

(١) السيد سابق — العقائد الإسلامية ص ٤٥ وما بعدها .

وقال المسيو - يوشيف - فى كتابه المسمى : « التذكرة فى تاريخ البرهان على وجود الخالق » :

«اعتقاد الأفراد، والنوع الإنسانى بأسرة فى الخالق، اعتقاد اضطرارى قد نشأ قبل وجود البراهين الدالة على وجوده، ومهما صعد الإنسان بذاكرته فى تاريخ طفولته ، فلايستطيع أن يجد الساعة التى حدثت فيها عقيدة الخالق، تلك العقيدة التى نشأت صامتة ، وصار التى لها أكبر الآثار فى حياته ، فقد حدثت هذه العقيدة فى أنفسنا لكل المدركات الرئيسية على غير علم منا»(١) .

ونشر الدكتور - ديترت - بحثا حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم ، فتبين له من دراسة تسعين ومائتين من العلماء أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلى :

اثنان وأربعون ومائتان من هؤلاء . أعلنوا إيمانهم الكامل بالله ثمانية وعشرون منهم لم يصلوا إلى عقيدة .

العشرون الباقون لم يهتموا بالتفكير الدينى (٢) .

وهكذا نجد أن أغلبية ساحقة تزيد عن تسعين بالمائة يعلنون إيمانهم بالله عن طريق أبحاثهم العلمية ، ونجد من سواهم لا يزالون فى تردد ، أو لم يهتموا بالعقيدة الدينية فى أبحاثهم ، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوما ، وأن الآخرين لم يهدهم العلم لساحة الله يعانون نقصا لو تخلصوا منه لوصلوا .

---

(١) حسن أيوب - تبسيط العقائد الإسلامية ص ٣٩ .

(٢) : مجلة الأزهر - المجلد ٢٩ عن كتاب : الإسلام . / أحمد شلبى .

ويقول ـ هرشل ـ العالم الفلكى الإنجليزى : « كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على جود خالق أزلى لاحد لقدرته ولانهاية لها ، فالجيولوجيون و الرياضيون ، والفلكيون ، والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم . وهو صرح عظمة الله وحده » (١) .

ويقول ـ فولتير ـ ساخراً : « لم تشككون فى الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى وسرقنى خادمى » (٢) .

أما (ديكارت) فإنه أعطى على وجود الخالق ثلاثة أدلة :

الأول : قال : « إنى مع شعورى بنقص ذاتى أحس فى الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة ، وأرانى مضطرا للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهى الله .

الثانى : قال ديكارت : إنى لم أخلق ذاتى بنفسى ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التى أدركها ، إذن أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال ، وإلا اضطررت أن أطبق عليها التعليل الذى طبقته على نفسى (٣) .

الثالث: من أدلة ديكارت قوله : إن عندى شعوراً بوجود ذات كاملة

---

(١) دائرة معارف وجدى مادة أله .

(٢) السيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٥٠ .

(٣) وهو شعوره بنقص ذاته .

لا تفترق فى الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا المثلث تساوى زاويتين قائمتين . إذن فالله موجود .

ولم يصل ديكارت إلى هذه الحقائق إلا بعد أن تخلص مما امتلأ به ذهنه من حشو رث من العقائد ، والتقاليد ، والوراثات . لذا قال : فأردت أن أتخلص من هذه الأحمال الثقيلة ، ولو مرة فى حياتى ، وأنظر مجرداً عن كل وراثة إن كنت أريد الوصول إلى حقائق ثابتة من العلم » (١) .

ولماذا لم يصح أن العالم وجد من عدم ولا أنه وجد صدفة لم يبق إلا أنه وجد بموجد ، مدبر ، حكيم ، عليم ، قادر ، هو الله سبحانه وتعالى ـ .

وهذه جولة سريعة ، مع القرآن الكريم ، وآراء علماء الإسلام ، وغيرهم من الفلاسفة ، والعلماء الذين أثبتوا وجود الله بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة ، منها ما هو نقلى ، ومنها ما جاء به العقل ، وأثبته العلم الحديث . وكلها تؤكد أن العالم (٢) حادث ، وأن الله ـ عز وجل ـ واجب الوجود لذاته ، لا لشىء خارج عنه ، وأن كل ما تقع عليه أعيننا من إبداع فى الكون ، وإتقان فى المخلوقات دليل على أن هذا الكون لم يوجد صدفة وإنما أوجده إله قادر ، مريد ، له صفات الكمال ، ومنزه عن كل نقص ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

وأصبح من اليسير الآن نظم دليل الحدوث ، ودليل الوجوب ، ودليل الاتقان فى أبسط الصور ، بعيداً عن التعقيدات اللفظية ، والمتاهات اللغوية.

---

(١) حسن أيوب] : تبسيط العقائد الإسلامية ص ٦٧ والتى بعدها عن دائرة معارف وجدى جـ ١ ص ٤٩٠ .

(٢) العالم ـ بفتح اللام ـ كل ما سوى الله ـ تعالى ـ وصفاته . وسمى عالما : لأنه علامة على خالقة ودليل عليه .

دليل الحدوث

أولا : دليل الحدوث . وترتيبه . العالم متغير[١] . فهو إذن حادث وكل حادث لابد له من محدث ـ أى موجد ـ ولا يجوز أن يكون الموجد حادثاً ، لأنه لو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث ، ويظل الحال على ذلك حتى يصل إلى واحد من أمرين ، إما أن يدور حتى يصل إلى الحادث الأول وهو العالم ، فيكون العالم أوجد نفسه ، وإما أن يتسلسل إلى مالا نهاية ، ولن يصل إلى شيء ، والدور والتسلسل باطلان ، لأنهما ممتنعان عقلا ، وإذا ثبت بطلان الدور والتسلسل ثبت أن الموجد الخالق لابد وأن يكون قديماً ، ولا بد وأن يكون عليما حكيما ، قادراً مريداً ، لأن خلق هذا العالم العظيم مفتقر إلى علم ، وحكمة وقدرة وإرادة ، وهذا الخالق هو الله رب العالمين. وصدق الله حيث يقول : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون »[٢] :

---

(١) وذلك بالمشاهدة . فإننا نرى الليل يعقبه النهار ، والصغير يكبر ، والنبات الأخضر يصير حطاما ، وغير ذلك مما نرى ونشاهد فى كل زمان ومكان .

(٢) الآية ٣٥ من سورة الطور .

دليل الوجوب

ثانياً : دليل الوجوب . وهذا الدليل يكاد يكون تعبيراً آخر لدليل الحدوث السابق . وترتيبه هكذا: العقل يحكم بداهة بأن معنى الوجود ينحصر فى ثلاثة أحوال : الوجوب ، والإمكان ، والإستحالة(١) . والممكن لابد له من مرجح يرجح وجوده على عدمه ، ويخرجه من العدم إلى الوجود وهذ المرجح لايجوز أن يكون من ذات الممكن، لأنه لو كان من ذات الممكن لترتب على ذلك أمور .

أحدهما : أن يكون الممكن واجب الوجود لذاته .

والثانى : أن يكون الواجب للوجود لذاته ممكناً .

---

(١) من أحكام واجب الوجود لذاته : أنه موجود ، ووجوده من ذاته ، ووجوده قديم ، ووجوده باق ، وأنه مخالف لجميع الحوادث .

والممكن : هو مالايستحيل وجوده ، ولا عدمه ، فإن وجد بالفعل فهو موجود قطعا ومثاله ماوجـــد من الإنسان ، والحيوان ، والأشجار ، والنبات ، والسماء ، والأرض وغير ذلك . ومن أحكامه :

١ — أنه وجد بالفعل بعد أن لم يكن .

٢ — أنه متغير لايثبت على حال واحدة وذلك ثابت بالمشاهدة .

٣ — أنه لايوجد من نفسه وإنما يوجد عن غيره ، فلا بد فى وجوده من سبب ذلك السبب هو الله ــ سبحانه وتعالى ــ ومن أحكام المستحيل لذاته : أنه لايطرأ عليه وجود أصلا ، وذلك لأن العدم من لوازمه ، فلو طرأ الوجود عنه لسلب لازم الشىء عنه ، وهو يؤدى إلى سلب الشىء عن نفسه ، وهو باطل بداهة . فالمستحيل اذن لايوجد فى الخارج . وذلك : كشريك البارى ــ سبحانه وتعالى ــ .

والثالث : أن يوجد ترجيح لبعض الممكن على بعض بدون مرجح. وكل ذلك باطل ، فلا بد أن يكون الموجد خارجاً عن الممكن ، لأنه لو كان من جنس الممكن لكان محتاجاً إلى موجد ، ويظل الحال على ذلك حتى يصل إلى الدور ، أو التسلسل ، وهما باطلان .

وإذا ثبت بطلانهما ، ثبت أن الموجد للعالم واجب الوجود لذاته . وهو الله / تعالى / وصدق ربنا حيث يقول : « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »(١) .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة القصص .

دليل الإتقان

ثالثاً : دليل الإتقان : وهو سهل وبسيط « وبيانه . أن مانراه فى الكون من إبداع واختراع وتنظيم وإحكام وإتقان وتقدير وتحديد وترتيب وإتزان يدل على العلم والقدرة والحكمة والإرادة ، فلا يجوز عقلا أن يكون من عمل المادة العمياء ولا من أثر المصادفة العوجاء ، بل لا بد له من خالق ، ولا بد أن يكون هذا الخالق عليما حكيما قادراً مريداً ، وهو الله / تعالى / قال – عز شأنه – « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »(١) .

ويقول عز جاهه : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون »(٢) .

والقرآن الكريم أتى بآيات عديدة لكل من هذه الأدلة الثلاثة. غير أنه اعتمد أكثر ما يكون على الدليل الثالث ، وهو دليل الإتقان . فأكثر من ذكر شواهده فى مواطن عديدة ، لأنه دليل ينطوى على البساطة والبداهة ، فلا يتعثر الذهن به فى عقبات العلة والمعلول، والعدم قبل الوجود، والوجود من العدم ، وكل ما يتطلبه هذا الدليل هو : أن يعمل الإنسان فكره ، فيتدبر فى صنع الله ، وآياته الموجودة فى ذاته كإنسان ، وفى كل ما حوله من المخلوقات .

• • •

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٨٨ من سورة النمل .

وبقية الصفات التي يجب أن يتصف بها الله /سبحانه وتعالى/ بعد الوجود نوعها العلماء إلى نوعين :

الأول : الصفات السلبية .

والثاني : الصفات الثبوتية .

وذلك : لأن تلك الصفات إما أن تكون لنفي معنى لايليق بذاته /تعالى/ وتسمى الصفات السلبية ، أو الصفات التنزيهية لأنها تسلب عنه سبحانه كل معنى لايليق بذاته المقدسة ، وتنزهه عن أي نقص ، لأن النقص غير لائق بذاته - جل شأنه - وهي :

(١) القدم .

(٢) البقاء .

(٣) المخالفة للحوادث .

(٤) القيام بالنفس .

(٥) الوحدانية .

وإما أن تكون الصفات لإثبات معنى وجودي زائد على ذاته - عز وجل - يليق به ، وتسمى الصفات الوجودية ، أو صفات المعاني . وهي :

(١) القدرة . (٢) الإرادة . (٣) العلم . (٤) السمع .
(٥) البصر . (٦) الحياة . (٧) الكلام .

وسنبدأ بالصفات السلبية والتي أولها :

القـــدم

ومعناه : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قديم لا أول لوجوده . أى أول بلا بداية ، ووجوده ـ جل شأنه ـ ليس مسبوقاً بعدم ـ وقدم الله ـ تعالى ـ بهذا المعنى واجب لذاته ، وثابت ثبوتاً عقلياً بحيث لايتصور العقل ضده لله .وكما أن العلم بثبوت هذه الصفة لله ـ سبحانه وتعالى ـ مستقر فى الفطر . فإن الموجودات لابد أن تنتهى إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل . فإنا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة فإن الممتنع لايوجد، ولا واجبـــة الوجود بنفسها، فإن واجب الوجود بنفسه لايقبل العدم، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفى وجودها ووجودها ينفى إمتناعها ، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه .

فالممكن الذى ليس له من نفسه وجود ولا عدم لايكون موجوداً بنفسه بل إن حصل ما يوجده(١) وإلا كان معدوماً ، وكل ما أمكن وجوده بدلا عن عدمه ، وعدمه بدلا عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له . وقد تفرح النفس بما علته من البحث والنظر مالا تفرح بما علته من الأمور الظاهرة فتحرى وراء الأدلة العقلية . غير أنه لاشك فى أن العلم بإثبات الصانع ، ووجوب وجوده أمر ضرورى فطرى ، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه مايخرجه إلى الطرق النظرية ، (٢) .

---

(١) أى إن حصل مايوجده وجد الممكن وإلا كان معدوما .

(٢) شرح الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ص ١١٣ والتى بعدها بتصرف .

وضد القدم: الحدوث ، وهو مستحيل على الله / تعالى / لأنه/ عز وجل لو كان حادثاً لاحتاج إلى من يحدثه، ويوجده ، والذى يحدثه ويوجده يحتاج إلى محدث أيضاً . ولا بد من وصول العقل إلى ذات تحدث وتوجد غيرها ولا يصح أن يوجدها ، ويحدثها غيرها ـ وهى ذات الله ـ تعالى ـ مصداق ذلك .

قوله تعالى : « هو الأول والآخر(١) والظاهر(٢) والباطن(٣) وهو بكل شيء عليم »(٤) . ومعنى الأول : الذى لا ابتداء لوجوده ، والذى هو سابق فى وجوده كل حادث ، فيكون وجوده من ذاته ، فهو ـ سبحانه ـ أزلى لا يسبقه عدم ، ولا علة لوجوده .

ويقول / سبحانه / : « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل »(٥) والمعنى : أن كل شيء غير الله مخلوق فلا يجوز أن يكون غيره خالقاً له ، لأنه لو كان مخلوقاً لـكان محتاجاً لغيره . كيف وهو ذو الغنى المطلق ، وفقر كل شيء إليه محقق ؟ .

وإذا كان الله خالق كل شيء فهو سابق ، ومتقدم فى الوجود عليه(٦) .

---

(١) الآخر . الباقى بعد فناء الموجودات .

(٢) الظاهر : بآثاره الدالة على وجوده .

(٣) الباطن : هو الذى لاتدركه الحواس ، ولا تحيط به العقول .

(٤) الآية الثالثة من سورة الحديد .

(٥) الآية ٦٢ من سورة الزمر .

(٦) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى جـ ١ ص ٦٣

وروى مسلم ـ رضى الله عنه ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى / صلى الله عليه وسلم / قوله : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . إقض عنا الدين . واغننا من الفقر » (١) .

وروى البخارى عن عمران بن حصين ـ رضى الله عنهما ـ قال : « دخلت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعقلت ناقتى بالباب . فأتاه ناس من بنى تميم فقال : إقبلوا البشرى(٢) يابنى تميم . قالوا : بشرتنا ، فأعطنا (مرتين) . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن . فقال : إقبلوا البشرى يأهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم . قالوا : قد قبلنا يارسول الله . قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر . قال : كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء(٣) ، وكتب فى الذكر(٤) كل شىء ، وخلق السموات والأرض » (٥) . . .

فإذا أراد الشيطان أن يبلبل فكر المسلم بأمور ليس فى قدرة العقل الإنسانى القاصر إدراكها ، فعليه أن يلجأ إلى ربه ، ويطلب حمايته ومعونته

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ج ١٧ ص ٣٦ ، باب الدعاء عند النوم وأخذ المضجع .

(٢) البشرى هى : أن من أسلم نجا من الخلود فى النار .

(٣) أى العرش فى جهة العلو ، والماء تحته من جهة السفل ، وليس معناه أنه ملاصق للماء محمول عليه .

(٤) الذكر هو : اللوح المحفوظ وهو خلق الله سجل فيه جميع الكائنات التى قدرها ، أو هو عبارة عن علم الله المتعلق بسائر الموجودات .

(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ج ٦ ص ٢٨٠ كتاب بدء الخلق .

ويقف عند ذلك مستسلماً لله . قائلا : « آمنت بالله » .

كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا : خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ . فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله »(١) .

ولم يرتض بعض العلماء إطلاق لفظ « القديم » على الله ـ تبارك وتعالى ـ ليكون إسماً من أسمائه .

يقول ابن أبى العز : « وقد أدخل المتكلمون فى أسماء الله ـ تعالى ـ القديم وليس هو من الأسماء الحسنى . فإن القديم فى لغة العرب ـ التى نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره . فيقال : هذا قديم ، للعتيق ، وهذا حديث ، للجديد . ولم يستعملوا هذا الإسم إلا فى المتقدم على غيره ، لا فيما لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى : « حتى عاد كالعرجون القديم » (٢) والعرجون القديم الذى يبقى ـ على النخلة ـ إلى حين وجود العرجون الثانى . فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم .

وقال تعالى: « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم »(٣) . أى متقدم فى الزمان .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ج ٢ ص ١٥٣ باب بيان الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها

(٢) من الآية ٣٩ من سورة يس .

(١) من الآية ١١ من سورة الأحقاف.

وقال تعالى : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون »(١) .

فالأقدم مبالغة فى القديم ومنه القول القديم والجديد للشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ .

وقال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار »(٢) . أى يتقدمهم ويستعمل منه الفعل لازماً ، ومتعدياً ، كما يقال : أخذت ماقدم ، وما حدث. ويقال : هذا قدم هذا، وهو يقدمه. ومنه سميت القدم قدماً ، لأنها تقدم بقية بدن الإنسان ـ فى السير أو العدو ـ وأما إدخال القديم فى أسماء الله تعالى ، فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم ، ولا ريب أنه إذا كان مستعملا فى نفس التقدم، فإن ماتقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره . لكن أسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى التى تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم فى اللغة مطلق لايختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الأسماء الحسنى وجاء الشرع باسمه الأول . وهو أحسن من القديم ، لأنه يشعر بأن مابعده آيل إليه وتابع له ، بخلاف القديم ، والله / تعالى / له الأسماء الحسنى لا الحسنة »(٣) .

وحيث إنه لم يأت على لسان الشرع الشريف لفظ القديم إسماً من أسماء الله الحسنى . فعلينا أن نلتزم بما جاء به الشرع وهو لفظ « الأول » . أما الذين

---

(١) الآيتان ٧٥، ٧٦ من سورة الشعراء
(٢) من الآية ٩٨ من سورة هود .
(٣) شرح الطحاوية ص ١١٤ والتى بعدها .

قالوا : القدم . صفة من صفات الله تعالى وضدها الحدوث. فقد أخذوا ذلك من اللغة العربية . فنى الجزء الخامس من الصحاح(١) يقول الجوهرى مانصه: « والقدم : خلاف الحدوث » .

ويؤكد ذلك الفيروز أبادى فى كتابه(٢) فيقول : والقدم كعنب : ضد الحدوث . وعلى ذلك : فيصح أن يكون القدم صفة من صفات الله تعالى .

---

(١) ص ٢٠٠٧ مادة قدم .

(٢) القاموس المحيط ج ٤ ص ١٦٢ مادة قدم .

البقـــاء

الصفة الثانية من الصفات التنزيهية لله / تعالى / البقاء .

ومعنى هذه الصفة : أن الله تعالى لا آخر لوجـــوده ، وأنه باق إلى مالا نهاية ، فلا يعتريه فناء ، بل البقاء ملازم له أبداً فهو - سبحانه - أبدى لا يلحقه فناء ، لأنه واجب الوجود ولو جاز وأمكن - عقلا - أن يفنى لكان حادثاً ، ولم يتصف بالقدم ، مع أنه - تعالى - ثبت قدمه ، وأيضا اتفق العقلاء على أن ما لا أول لوجوده لا آخر له ، وأن من ثبت قدمه استحال عدمه .

وضد البقاء: الفناء، وهو مستحيل على الله تعالى استحالة عقلية - كما ذكرنا الآن - واستحالة شرعية نقلية . والدليل على ذلك قوله تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام(١) » .

ويقول الإمام ابن كثير فى هذا المقام « يخبر - تعالى أن جميع أهـــل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السموات - إلا من شاء الله - ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب - تعالى وتقدس لا يموت بل هو الحى الذى لا يموت أبداً . قال قتادة : أنبأ - سبحانه - بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان »(٢) .

---

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٢

وقال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »[١] .

وابن كثير أيضاً يقول فى هذه الآية « هذا إخبار بأنه الدائم الباقى ، الحى ، القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت . وقوله ـ تعالى : «كل شيء هالك إلا وجهه » أى إلا ذاته ، فعبر بالوجه عن الذات ، وقد ثبت فى الصحيح من طرق أبى سلمة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدق كل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . . »[٢] .

ويقول الإمام الفخر الرازى عند تفسير قوله ـ تعالى ـ « كل شيء هالك إلا وجهه » فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم . والمعنى : أن الله ـ تعالى ـ يعدم كل شيء سواه ، ومنهم من فسر الهلاك بإخراج الشيء عن كونه منتفعاً به ، إما بالإماتة ، أو بتفريق الأجزاء ، وإن كانت أجزاؤه باقية ، فإنه يقال : هلك الثوب ، وهلك المتاع ، ولا يريدون به فناء أجزائه بل خروجه عن كونه منتفعاً به ، ومنهم من قال : معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته ، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته ، وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم ، فكان قابلا للهلاك فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة القصص .

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ٣ ص ٤٠٣ . والحديث رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى ج ١٥ ص ١٣ فى كتاب الشعر .

إلى هذا الوجه »(١) .

وروى مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم »(٢) . قوله : « أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء »(٣) .

ويقول الإمام محمد بن اسحاق بن خزيمة فى ص١٠ من كتابه : « التوحيد وإثبات صفات الرب ـ عز وجل ـ « باب ذكر إثبات وجه الله» الذى وصفه بالجلال والإكرام فى قوله : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام(٤) ونفى عنه الهلاك إذا أهلك الله ما قد قضى عليه الهلاك مما قد خلقه الله للفناء لا للبقاء ـ جل ربنا ـ عن أن يهلك شىء منه مما هو من صفات ذاته . قال الله ـ جل وعلا ـ : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »(٤) وقال «كل شىء هالك إلا وجهه »(٥) وقال لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » الآية(٦) .

---

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازى فخر الدين . المجلد الثالث عشر ص ٢٣ .

(٢) الآية الثالثة من سورة الحديد .

(٣) اشرح صحيح مسلم للامام النووى ج ١٧ ص ٣٦ باب الدعاء عند النوم وأخذ المضجع.

(٤) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .

(٥) الآية ٨٨ من سورة القصص .

(٦) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

ثم يقول : « فأثبت الله لنفسه وجهاً وصفه بالجلال ، والإكرام ، وحكم لوجهه بالبقاء ، ونفى الهلاك عنه ، فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر . فذهبنا أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه نقر بذلك بألسنتنا ، ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين ، وعز ربنا عن أن نشبهه بالمخلوقين ، وجل ربنا عن مقالة المعطلين ، وعز عن أن يكون عدما كما قاله المبطلون لأنه لا صفة له – تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا – الذى وصف الله بها نفسه فى محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –

ثم أورد ابن خزيمة من ص ١١ من كتابه المتقدم الذكر أحاديث كثيرة جمعها تحت عنوان : « باب ذكر البيان من أخبار النبي المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فى إثبات الوجه لله – جل ثناؤه . . » نأخذ منها ما رواه عطاء ابن السائب عن أبيه قال « كنا جلوساً فى المسجد ، فدخل عمار بن ياسر ، فصلى صلاة أخفها ، فمر بنا ، فقيل له : يا أبا اليقظان خففت الصلاة . فقال : أو خفيفة رأيتموها ؟ . قلنا : نعم . قال : أما إنى قد دعوت فيها بدعاء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم مضى . فاتبعه رجل من القوم ، قال عطاء : يرونه أبى . اتبعه ولكنه كره أن يقول : اتبعته ، فسأله عن الدعاء ثم رجع فأخبرهم بالدعاء وهو « اللهم بعلمك الغد ، وقدرتك على الخلق : أحينى ما علمت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق والعدل فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا يبيد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى

وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين »(١) .

وروى البخارى ، ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « مثل المجاهد فى سبيل الله ابتغاء وجه الله ، مثل القائم المصلى حتى يرجع المجاهد »(٢) .

ونحن نقول بما قال به الأئمة الأخيار من سلف الأمة ، وبقول من تبعهم بإحسان . بأن لله - سبحانه - صفات وصف بها نفسه وهى صفات كمال. لايعتريها نقص، ولايتطرق إليها خلل. منها. صفة الوجه . فنحن نقول بأن لله وجها وصف بأنه ذو الجلال والإكرام كما أثبت ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تؤكده . ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين .

وقد اختلف علماء المسلمين قديما وحديثاً فى إثبات الوجه لله - سبحانه وتعالى - فمنهم من قال بأن له وجهاً لا يشبه وجوه المخلوقات . وهم علماء السلف ومن سار على نهجهم من علماء الخلف . ومنهم من نفى أن يكون له وجه . وأولوا ما ورد فى القرآن الكريم والسنة من ذلك بما يليق بذاته سبحانه من العظمة والجلال . وهم الكثرة من علماء الخلف . وكثيراً

---

(١) أخرجه النسائى فى سننه فى أوعية الصلاة من طريقين . هامش ص ١٢ من كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل تعليق د/ محمد خليل الهراس .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما فى كتاب الجهاد . هامش ص ١٣ من نفس المرجع .

مايحتدم الخلاف بينهم حتى يتهم بعضهم بعضاً بأمور قد تخرج من وصف بها من نطاق العقيدة . وأرى أن مثل هذا المقام ما كان ينبغى أن يكون نقطة خلاف بين أحد من علماء المسلمين الأجلاء . لأنى على يقين من أنهم جميعاً يلتقون على إجلال الله وتعظيمه وتنزيهه وهذا ما جعل كل جماعة تؤكد رأيها وتعمقه وتضع فى كلامها القيود والاحترازات الشىء الذى وصل بهم إلى هذا الخلاف المتطرف .

وبنظرة فاحصة فى كتاب الله الكريم نجد أن نقطة الوجه مراداً بها وجه الله قد ذكرت به فى أحد عشر موضعاً . منها خمسة مواضع ذكرت فيها لفظة الوجه مضافة إلى لفظ الجلالة . فنى سورة البقرة يقول الله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم »(١) وفى البقرة أيضا يقول ـ سبحانه ـ : « وما تنفقون إلا إبتغاء وجه الله »(٢) وفى سورة الروم يقول ـ عز وجل ـ « فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون »(٣) وفى الروم أيضاً يقول : « وما آتيتم من رباً ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون(٤) وفى سورة الإنسان يقول سبحانه « إنما نطعمكم لوجه الله »(٥) .

---

(١) الآية ١١٥ من سورة البقرة .
(٢) من الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٣٨ من سورة الروم .
(٤) الآية ٣٩ من سورة الروم .
(٥) من الآية التاسعة من سورة الإنسان .

وذكرت لفظة الوجه مضافة إلى لفظة رب فى ثلاثة مواضع .

وفى سورة الرعد . يقول الله عز شأنه « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار »(١) . وفى سورة الرحمن يقول سبحانه : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »(٢) وفى سورة الليل يقول : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى »(٣) .

كما ذكرت لفظة الوجه مضافة إلى ضمير الغيبة العائد على لفظ الجلالة فى ثلاثة مواضع أيضاً . فى سورة الأنعام يقول ربنا سبحانه : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » (٤) وفى سورة الكهف يقول ـ جل ذكره ـ « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه »(٥) وفى سورة القصص يقول ـ سبحانه : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »(٦) .

فهذه المواطن الإحدى عشر . لو تدبرنا فيها . لوجدنا : أن الموطن الأول من سورة البقرة يفيد بأن المسلم أينما ولى وجهه فثم الله . فالكون كله ملكه

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الرعد.
(٢) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .
(٣) الآية ٢٠ من سورة الليل .
(٤) من الآية ٥٢ من سورة الأنعام
(٥) من الآية ٢٨ من سورة الكهف .
(٦) الآية ٨٨ من سورة القصص .

وهو سبحانه تمسك به . ولا يقول عاقل : بأن الإنسان إذا اتجه إلى أى جهة فسيجد وجها لله وفقط . لأنه إن أريد بالوجه الصفة . فلا بد من وجود الذات معها . وإن أريد به وجها لكنه ليس كالوجوه فلا يعقل أن يكون منفصلا عن الذات .

وفى الموطن الثانى من نفس السورة . يبين سبحانه أن المؤمن إنما ينفق ابتغاء مرضـــاة الله . أو رجاء أن يحظى برؤية وجهه الكريم . فإن أراد بالإنفاق مرضاة الله . فكلمة الوجـــه لا تكون شيئاً غير الذات وإلا لكانت صفة منفصلة عن موصوفها . وإن أراد بالإنفاق رؤية وجهه الكريم فالرؤية أمر أقره أهل السنة . وعلينا أن نسلم بأن المؤمنين سيرون ربهم فى يوم القيامة بنص قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة » (١) وبما صح من الأحاديث النبوية الشريفة . أما كيفية الرؤية فالله أعلم بها .

وفى موطنى الروم : نجد أن الله سبحانه بين أن الذين يؤدون لذى القربى حقه وللمسكين ، وابن السبيل ، وأن الذين يؤدون الزكاة خالصة لله هؤلاء الذين يبتغون مرضاة الله ، أو يطمعون فوق ذلك فى رؤية وجهه سبحانه ويقال هنا ما قيل فى الموطن الثانى من سورة البقرة .

وفى سورة الإنسان : يبين ربنا أن الذين يطعمون الطعام للمســـكين واليتيم والأسير حباً فى الله أو فى المال . إنما يفعلون . ذلك إبتغاء مرضاته سبحانه أو طمعاً فى رؤية وجهه . وما قيل فى موطنى الروم يقال هنا .

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

وأيضا ما قيل فى الموطن الثانى من سورة البقرة ، وفى موطنى الروم . وفى سورة الإنسان ينطبق على ما جاء فى سورة الرعد ، والليل والأنعام والكهف .

وفى سورة الرحمن ، وفى آخر القصص . بين ربنا سبحانه بأن كل من على الأرض . بل كل شىء هالك إلا وجه الله عز وجل فالمؤمن لا يتصور وجها لله يبقى بدون الذات . فالبقاء منصب على الذات . والوجه صفة لها أو هو وجه لا كالوجوه . وعلى كلا الحالتين . فالذات باقية والصفة لازمة لها .

ويوجد رأى يقول : بأن كل شىء هالك إلا ما كان ابتغاء وجهه الكريم أى ابتغاء مرضاته أو طمعاً فى رؤية وجهه ، أما كل عمل يعمله الإنسان ليس خالصا لله وحده فانه فان لايبقى . وعلى هذا الرأى فما قيل فى المواطن السابقة يقال هنا .

وكل ما جاء فى الأحاديث النبوية الصحيحة عن كلمة الوجه ويرادبها وجه الله . فإنها لا تخرج عما قيل فى هذه المواطن القرآنية .

لذا . فإنى أهيب بالصادقين من علماء الأمة الأجلاء الذين يحيون الآن ويمن يأتون من بعدهم أن يعيدوا للمسائل العقدية صفاءها الذى كانت عليه فى صدر الإسلام . وأن يعيدوا تقويم ما كتب فى هذه المواضع ليطرحوا منه الخلافات، والتأويلات المنحرفة، ويمحوا كل ما قيل من سباب وأوصاف التجسيم أو التعطيل وغير ذلك مما لا يليق بمكانة العلم ، ولا بقدر العلماء وحتى لا نكون كبنى إسرائيل الذين قال الله فيهم « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم »(١) والله الهادى إلى سواء السبيل.

(١) من الآية ١٩ من سورة آل عمران .

المخالفة للحوادث

الصفة الثالثة من الصفات التنزيهية : المخالفة للحوادث . ومعناها أن الله تعالى لا يمكن أن يكون مشابها للحوادث فى ذاته ، أو صفاته أو أفعاله ، لأنه تعالى لو كان مشابها ومماثلا للحوادث التى أحدثها ، وخلقها فى أى شىء لكان حادثا مثلها ، ولو كان حادثا مثلها ، لما ثبت قدمه مع أن الله ـ تعالى ثبت له القدم ، فحدوثه إذن مستحيل ، وعليه يكون ما أدى إلى هذا الحدوث وهو مشابهته للحوادث مستحيل ، وثبت حينئذ أنه ـ تعالى ـ مخالف للحوادث .

قال تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (١) .

« قال الإمام أبو السعود فى هذه الآية : « ليس كمثله شىء » أى ليس مثله شىء فى شأن من الشئون التى فى جملتها هذا التدبير البديع . والمراد من مثله : ذاته ـ أى ليس كذاته شىء ـ كما فى قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، على قصد المبالغة فى نفيه عنه سبحانه . فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقيل المراد من مثله : صفته . أى ليس كصفته صفة » (٢) .

ومماثلة غير الله له فى بعض الصفات إنما هى من حيث التسمية فقط

---

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى .
(٢) : تفسير أبى السعود جـ ٨ ص ٢٥ .

لا من حيث الحقيقة . فإذا قيل : إن فلانا عالم ، وحى ، وموجود وقادر ، وحكيم ، ورحيم ، فذلك توافق فى التسمية لا فى الحقيقة كما أن وجود العلم ، والحياة ، والقدرة ، والحكمة والرحمة فى الله كاملة غاية الكمال ، وهى من ذاته ، ووجودها فى الأفراد ناقص غاية النقص بالإضافة إلى الله جل شأنه .

قال تعالى : « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم (١) » .

وهذه الصفات فى الإنسان لا من ذاته ، بل هى مستمدة من الله جل وعلا .

وقال تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (٢) أى ولم يكن أحد مشابها لله تعالى أى شىء ومن هذا ندرك ونعلم : أنه وجب، وثبت له - تعالى - مخالفته للحوادث ، ويستحيل عقلا وشرعاً مشابهته لها - تعالى الله عند ذلك علوا كبيراً .

يقول ابن أبى العز ما خلاصته : « اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شىء، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

ولكن لفظ التشبيه قد صار فى كلام الناس لفظاً مجملا يراد به المعنى الصحيح ، وهو ما نفاه القرآن ، ودل عليه العقل ، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شىء من المخلوقات ، ولا يماثله شىء من المخلوقات فى شىء من صفاته — وقوله تعالى فى سورة الشورى : « ليس كمثله شىء »

---

(١) : من الآية ٦٠ من سورة النحل .
(٢) سورة الإخلاص .

رد على الممثلة المشبهة ، وتتمه الآية قوله تعالى : « وهو السميع البصير » رد على النفاة المعطلة ، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق ، فهو المشبة المبطل المذموم ، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى فى كفرهم . ويراد به أنه لا يثبت لله شيئاً من الصفات ، فلا يقال : له قدرة ، ولا علم ، ولا حياة .

لأن العبد موصوف بهذه الصفات. ولازم هذا القوم أنه لا يقال له: حى عليم ، قدير ، لأن العبد يسمى بهذه الأسماء ، وكذلك كلامه ، وسمعه ، وبصره ، وإرادته ، وغير ذاك ، وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود، عليم ، قدير ، حى ، والمخلوق يقال له : موجود ، حى ، عليم ، قدير ، ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه . وهذا مادل عليه الكتاب والسنة ، وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل ، فإن الله سمى نفسه بأسماء وسمى بعض عباده بها، وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى ببعضها صفات خلقه،وليس المسمى كالمسمى فسمى نفسه : حيا ، عليما ، قديراً ، رءوفا ، رحيما ، عزيزاً ، حكيما ، سميعا بصيراً ملكا ، مؤمنا، جباراً ، متكبراً ، وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » (١) .

وقال ـ سبحانه ـ: « يخرج الحى من الميت يخرج الميت من الحى »(٢) .

وقال ـ جل شأنه ـ : « وبشروه بغلام عليم » (٣) .

---

(١) من الآية ٩٥ من سورة الأنعام .
(١) من الآية ١٩ من سورة الروم .
(٣) من الآية ٢٨ من سورة الذاريات .

وقال ـ تعالى ـ : فبشرناه بغلام حليم » (١) . وقال فى وصف نبيه محمد / صلى الله عليه وسلم / « بالمؤمنين رءوف رحيم » (٢) وقال ـ سبحانه ـ : « فجعلناه سميعاً بصيراً » (٣) .

وقال ـ جل ذكره ـ : « قالت أمرأت العزيز الآن حصحص الحق »(٤)

وقال : « وكان وراءهم ملك » (٥) وقال : « أفمن كان مؤمناً » (٦) :

وقال : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (٧) .

ومعلوم أنه لا يماثل الحى الحى ، ولا العليم العليم ، ولا العزيز العزيز وكذلك سائر الأسماء .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمنا الإستخارة فى الأمور كلها كالسودة من القرآن ـ يقول : ـ « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول : «اللهم إنى استخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر . ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن

---

(١) الآية ١٠١ من سورة الصافات .
(٢) من الآية ١٢٨ من سورة التوبة .
(٣) من الآية الثانية من سورة الإنسان .
(٤) من الآية ٥١ من سورة يوسف :
(٥) من الآية ٧٩ من سورة الكهف .
(٦) من الآية ١٨ من السجدة .
(٧) من الآية ٣٥ من سورة المؤمن .

هذا الأمر خير لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ـ أو قال : فى عاجل أمرى ، وآجله ـ فاقدره لى ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ـ أو قال : فى عاجل أمرى ، وآجله ـ فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضنى به. ويسمى حاجته »(١) .

وفى حديث عمار بن ياسر الذى رواه النسائى وغيره عن النبى / صلى الله عليه وسلم / أنه كان يدعو بهذا الدعاء : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى اللهم إنى أســـألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى ، وأسالك القصد فى الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضى بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين » (٢) .

ففى الآيات التى ذكرناها ، والأحاديث التى أتينا بها هنا نجد الله / سبحانه ورسوله / صلى الله عليه وسلم / قد سميا صفات الله علما ، وقدرة وقهرة .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى جـ ١١ ص ١٨٣ باب الدعاء عند الاستخارة .

(٢) حديث صحيح ، رواه النسائى ، وأخرجه الحاكم أيضا وصحيح ، ووافقه الذهبى هامش ص ١٠١ من شرح الطحاوية للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى .

وقال تعالى : « ثم جعل من بعد ضعف قوة » (١) .

وقال ـ سبحانه ـ « وإنه لذو علم لما علمناه » (٢) .

ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم ولا القوة كالقوة ونظائر هذا كثيرة ، وهذا لازم لجميع العقلاء .

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة الروم .

(٢) من الآية ٦٨ من سورة يوسف .

أدلة عقلية على نفى المماثلة

وإن من نفى صفة من صفاته تعالى التى وصف بها نفسه كالرضى ، والغضب ، والحب ، والبغض ، ونحو ذلك ، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم . قلنا له : إما أن تثبت له صفات أخرى ، أو لاتثبت فإن أثبت له صفات أخرى . كالإرادة ، والكلام ، والسمع ، والبصر كانت تلك الصفات التى نفاها مثل تلك الصفات التى أثبتها . لأن ما أثبته من صفات ليس مثل صفات المخلوقين .

وإن كان لايثبت له صفات أخرى . قلنا له : إما أن تثبت له سبحانه الأسماء الحسنى ، أو لاتثبت ؟ .

فإن كان يثبت له ، الأسماء الحسنى مثل : عليم ، حى ، قادر ، قلنا له : إن العبد يسمى بهذه الأسماء ، وليس مايثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما يثبت للعبد ، فليقل فى صفاته نظير قوله فى مسمى أسمائه .

وإن كان لايثبت له الأسماء الحسنى ، ويقول : هى مجاز ، وهى أسماء لبعض مبتدعاته كما يقول غلاة الباطنية والمتفلسفة ، قلنا له : لابد وأن تعتقد أنه سبحانه وتعالى موجود ، وحى ، وقائم بنفسه ، وليس هو مماثلا له ، وعلى ذلك . فصفاته التى وصف بها نفسه تكون ثابتة له وحده ، وإن كان للعبد صفات مثلها . فالإشتراك فى اللفظ فقط .

ولو غالط ، وقال : أنا لا أثبت شيئاً ، بل أنكر وجود الواجب قلنا له : معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه ، وإما غير واجب بنفسه

وإما قديم أزلى . وإما حادث كائن بعد أن لم يكن ؛ وإما مخلوق مفتقر إلى خالق ؛ وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق .

وإما فقير إلى ماسواه ؛ وإما غنى عما سواه ، وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه ؛ والحادث لا يكون إلا بقديم والمخلوق لا يكون إلا بخالق ؛ والفقير لا يكون إلا بغنى عنه . فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه ؛ قديم ؛ أزلى خالق ، غنى عما سواه . وما سواه بخلاف ذلك .

وقد علم بالحس(١) والضرورة وجود موجود حادث ، كائن بعد أن لم يكن ، والحادث لا يكون واجباً بنفسه ، ولا قديماً أزلياً ، ولا خالقاً لما سواه ، ولا غنياً عما سواه ، فثبت بالضرورة وجود موجودين ، أحدهما واجب ، والآخر ممكن، أحدهما قديم، والآخر حادث، أحدهما غنى والآخر فقير ، أحدهما خالق ، والآخر مخلوق ، وهما متفقان فى كون كل منهما شيئاً موجوداً ثابتاً ، ومن المعلوم أيضاً أن أحدهما ليس مماثلا للآخر فى حقيقته إذا لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ، ويجوز ، ويمتنع ، وأحدهما يجب قدمه ؛ وهو موجود بنفسه والآخر لا يجب قدمه ؛ ولا هو موجود بنفسه ؛ وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق ، وأحدهما غنى عما سواه ؛ والآخر فقير .

فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ، ليس بواجب القدم،

---

(١) وهو مايعرف بدلائل المشاهدة

موجوداً بنفسه ، غير موجود بنفسه ، خالقاً ، ليس بخالق ، غنياً ، غير غني فيلزم اجتماع الضدين- على تقدير تماثلهما - فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع .

ومن هذه الأدلة : علم إتفاقهما من وجه ، وإختلافهما من وجه فمن نفى ما إتفقا فيه كان معطلا قائلا بالباطل ، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلا بالباطل والله أعلم »(١) .

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي مختارات من ص ٩٩ : ١٠٤ بتصرف

الآيات والأحاديث الموهمة للتشبيه

وما جاء فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة من الآيات ، والأحاديث التى ظاهرها يوهم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يشبه خلقه ، فعلينا أن نتبع فيه طريق السلف ، ومن سار على نهجهم ، فنؤمن به كما جاء بدون تأويل ، أو ابتداع، لأن الإيمان به كما جاء أبعد عن الوقوع فى خطأ التأويل الذى قد يكون غير مراد له ـ تعالى خصوصا وأن هذه النصوص متصلة بالعقيدة ، وأمر العقيدة لا يستهان به .

من تلك النصوص : قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (١) .

وقوله : « وهو القاهر فوق عباده » (٢) .

وقوله : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (٣) .

وقوله : « يد الله فوق أيديهم » (٤) إلى آخر الآيات الموهمة للتشبيه .

وكقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى

---

(١) الآية الخامسة من سورة طه .

(٢) من الآية ١٨ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .

(٤) من الآية العاشرة من سورة الفتح :

ثلث الليل الآخر . فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له » (١) .

والحديث الذى قال عبد الله بن عمر بن العاص : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله / صلى الله عليه وسلم : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » (٢) .

يقول الإمام ابن قدامة فى هذا المقام : « وكل ما جاء فى القرآن الكريم أو صح عن المصطفى عليه الصلاة والسلام من صفات الرحمن وجب الإيمان به ، وتلقيه بالتسليم ، والقبول ، وترك التعرض له بالرد والتأويل ، والتشبيه والتمثيل ، وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظا ، وترك التعرض لمعناه ، ونرد علمه إلى قائله ، ونجعل عهدته على ناقله ، اتباعا لطريق الراسخين فى العلم الذين أثنى الله عليهم فى كتابه المبين بقوله / تعالى / : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » (٣) .

وقال سبحانه فى ذم مبتغى التأويل لمتشابه تنزيله : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله فجعل ابتغاء التأويل / علامة على الزيغ ، وقرنه بابتغاء الفتنة فى الذم ثم حجبهم

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ج ١١ ص ١٢٩ باب الدعاء نصف الليل .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٢٠٤ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء .

(٣) من الآية السابعة من سورة آل عمران :

عما أملوه ، وقطع أطماعهم عما قصدوه بقوله سبحانه « وما يعلم تأويله إلا الله » (١) .

قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ رضى الله عنه فى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا » و « إن الله يرى فى القيامة » وما أشبه هذه الأحاديث نؤمن بها ، ونصدق بها . لا كيف ولا معنى ، ولا نرد شيئاً منها (٢) .

ونعلم أن ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حق ، ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً منها أيضاً . ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » (٣) .

ونقول كما قال ، ونصفه بما وصف به نفسه ، لا نتعدى ذلك ، ولا يبلغه وصف الواصفين ، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه ولا نزيل عنه سبحانه صفة من صفاته ولا نتعدى القرآن والحديث ولا نعلم كيف حقيقة ذلك إلا بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيت القرآن الكريم .

وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه :

---

(١) من الآية السابعة من سورة آل عمران .

(٢) الإيمان بكل ما جاء فى القرآن الكريم من صفات الرحمن واجب مفروض . وما جاء فى السنة ، فإن كان متواترا فكذلك ، وإن لم يكن متواترا فإنه بالنسبة للعقيدة لا يفيد الجزم ، والقطع المؤدى نفيه الى الكفر ، يجب تصحيح العقيدة إزاءه :

(٣) من الآية ١١ من سورة الشورى :

آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا : درج السلف ، ومن حذا حذوهم من أئمة الخلف ـ رضى الله عنهم ـ وكلهم متفقون على الاقرار والإثبات لماورد من الصفات فى كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير تعرض لتأويله .

وقد أمرنا باقتفاء آثارهم ، والاهتداء بمنارهم، وحذرنا المحدثات وأخبرنا أنها من الضلالات ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « عليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » (١).

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » .

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ كلاما ما معناه : قف حيث وقف القوم ، فإنهم عن علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا ، وإنهم على كشفها كانوا أقوى ، وبالفضل ولوكان فيها أحرى . فلئن قلتم : حدث بعدهم . نقول : ما أحدثه إلا من خالف هديهم ، ورغب عن سنتهم .

وسأل رجل الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه قائلا : يا أبا عبد الله .

---

(١) حديث حسن صحيح رواه الصحابى المشهور : عرباض بن سارية السلمى من أهل الصفة ، وأورده الإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ١٢٦ ط أولى ، وأصحاب السنن أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة مطولا بطرق متعددة .

« الرحمن على العرش استوى ؟ كيف استوى . ؟ . فقال له : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ؛ ثم أمر بالرجل فأخرج » (١) .

ولكن كثيرا من العلماء الذين جاءوا بعد القرن الخامس الهجرى رأوا أن تلك النصوص إن تركت بدون تأويل ربما يترتب على عدم تأويلها وتفسيرها وقوع الذين لم يتعمقوا فى فهم الإسلام، فى خطأ الانحراف عن العقيدة السليمة ، والوقوع فى ورطات فكرية خطيرة . وقد جاءت آيات الله فى كتابه ، كما جاءت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على نمط اللسان العربى ، وباللغة العربية الفصحى ، واللغة العربية ، منها الأساليب والكلمات التى يراد بها فى عرف اللغة حقيقتها ، والأخرى التى يراد بها المجاز أو الكناية . وما دامت الآيات والأحاديث المذكورة لا يمكن أن تكون حقيقتها مرادة لإفادتها التشبيه . فلماذا لا نذهب إلى المجاز المناسب لجلال الله ، وعظمته ، وفى اللغة العربية أمثلة كثيرة لذلك منها قوله تعالى: « وسئل القرية (٢) أى واسأل أهل القرية إذ لا يعقل أن يسأل القرية التى التى هى جماد لا يعى ولا ينطق .

---

(١) لمة الاعتقاد الهادى الى سبيل الرشاد تأليف الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسى من ص ٩ ، ١١ ، ١٥ ببعض تصرف

(٢) من الآية ٨٢ من سورة يوسف .

تأويل المتشابه

وعلى هذا الأساس انطلقوا فى تأويل المتشابه على الوجه الآتى :

فمثلا قالوا : إن المراد بالاستواء فى الآية هو استيلاء الله على عرشه ، وذلك دليل على قدرته تعالى وعظمته والمراد بكونه تعالى قاهراً فوق عباده أن العباد خاضعون لسلطانه ، وحكمه والمراد بكونه تعالى فى السماء ، وفى الأرض . أن علمه تعالى محيط بكل شىء ، والمراد بوجه الله تعالى : ذاته ، والمراد باليد فى الآية : قدرته والمراد بالأعين : الرعاية . بنزول الله إلى السماء الدنيا نزول ملك بأمره . والمراد بأصبعى الرحمن قدرتى وإرادته . وهكذا .

موقف العلماء من مذهبي السلف والخلف

وقال بعض العلماء فى الفرق بين مذهبي السلف والخلف . إن مذهب أسلم ، ومذهب الخلف أحكم ، وإن كان الشطر الأخير من هذه المقالة لم يرض بعض من تمسك بمذهب السلف (١) ، وقال : كيف يكون مذهب الخلف أحكم مع أنه أول النصوص القرآنية ، والنصوص النبوية الصحيحة التى يوهم ظاهرها التشبيه ومن أول هذه النصوص لا يدرى هل المعانى التى أتى بها مرادة لله تعالى أم لا . ونحن لم يأذن لنا الشرع فى تأويل وتفسير مثل هذه النصوص . فتفسيرها إذن مجازفة والتأويل قد يجانبه الصواب . فلن يكون مذهب الخلف أحكم بل الأحكم والأسلم معا مذهب السلف الذى يؤمن بكل ما جاء فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة بلا تأويل آمن به كما هو من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تجسيم ولا تعطيل .

ومن راقه مذهب الخلف . قال : لابد من من التأويل والتفصيل لكل ما يوهم المشابهة للحوادث من الصفات الإلهية التى وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة . وإلا لوقع الناس وخاصة العامة فى التشبيه والتجسيم ولا نزلق الناس إلى المهاوى التى وقع فيها المجسمة والمشبهة من الكرامية (٢) ومن ماثلهم من السابقين بل إن بعضا ممن يدعى التمسك

---

(١) كالإمام ابن تيمية ١٠ نظر ص ٤٣٦ من كتاب الكواشف الجلية عن معانى الواسطة تأليف عبد العزيز السلمان .

(٢) الكرامية نسبة إلى محمد بن كرام — كشداد — كما فى القاموس .

بمذهب السلف اعتقد ثبوت جهة الفوقية لله سبحانه وتعالى ويعنون بها : الفوقية الذاتية له جل ذكره يعنى أن ذاته سبحانه فوق العرش بمعنى ماقابل التحت مع التنزيه .

والدليل على هذا ما ذكره صاحب كتاب (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان بصفحة ٧٢ نقلا عن كتاب شمس الحقيقة والهداية فى الرد على أهل الضلالة والغواية) للشيخ العلامة أحمد بن الشيخ على بدر وهو سؤال وجهة مؤلف شمس الحقيقة إلى شيخ الإسلام الشيخ سليم البشرى وخلاصته : وما قولكم فى رجل من أهل العلم الذين يوصفون بالتفقه فى الدين تظاهر باعتقاد ثبوت جهة الفوقية لله سبحانه وتعالى ويدعى أن ذلك مذهب السلف ، وتبعه على ذلك البعض القليل من الناس وليكن معلوما أنه يعتقد الفوقية الذاتية له رجل ذكره يعنى أن ذاته سبحانه فوق العرش بمعنى ما قابل التحت مع التنزيه .

ويستدل على ذلك بمثل قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » (١) .
وقوله : « يخافون ربهم من فوقهم » (٢) .

وقوله : « إليه يصعد الكلم الطيب » (٣) .

وبقوله صلى الله عليه وسلم للجارية التى أراد سيدها عتقها « أين الله » فقالت فى السماء ، والحديث بتمامه أخرجه مسلم فى صحيحه (٤) .

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية ٥٠ من سورة النحل .
(٣) من الآية العاشرة من سورة فاطر .
(٤) ورواه أبو داود والنسائى انظر الكواشف الجليه عن معانى الواسطية ، ص ٤٧٥

من أجل ذلك فإن من سار على مذهب الخلف أعجبه تأويل كل ما ورد من أمثال هذه الآيات وتلك الأحاديث عملا بالقطعى ، وحملا للظنى عليه .

ولقد قامت مجادلات ونشأت خصومات بين بعض من يرجح مذهب السلف، وبين آخرين ممن يفضل مذهب الخلف وأتهم السلفيون غيرهم بالتعطيل ، وأتهم أتباع الخلف السلفيين بالتجسيم . والتشبيه . تعالى الله عن كل ذلك علوا كبيراً .

والذى أقول به : هو الإيمان الكامل بكل ما جاء فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية الصحيحة من الصفات التى وصف الله بها نفسه من غير تعطيل ولا تجسيم ولا تشبيه . فالله سبحانه متصف بالعلو على خلق ، وليس ذلك فى مكان ولا جهة ، ومتصف سبحانه بالاستواء على عرشه، وأن اليد ، والرجل ، والقدم ، والنزول إلى السماء الدنيا ، وغير ذلك مما وردت به نصوص الكتاب العزيز ، والسنة النبوية الصحيحة - كل ذلك من صفاته تعالى على الوجه الذى يليق بذاته سبحانه ويستحيل أن يشبه فى شىء من ذلك شيئا أو أحداً من خلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وعلى ذلك فلا نطلق لأنفسنا العنان فى تأويل كل ماجاء فى القرآن الكريم والسنة الشريفة من صفات الله . بل نأخذها كما وردت بلا تشبيه ولا تجسيم ولا تعطيل : ما دامت متمشية مع النهج العام للقرآن الكريم واللغة العربية السليمة . وإلا . فإنه يتعين تأويل ما لم يساير النهج العام للقرآن الكريم والشريعة الغراء أو يخالف قواعد اللغة فى أى جانب من جوانبها . فمثلا :

قوله الله تعالى : « أن تقول نفس ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله »(١) . فإن سياق الآيات قبلها وبعدها يفيد بأن القرآن الكريم يأمر من أسرف على نفسه بالمعاصى بأن يرجع إلى طريق الله ولا ييأس من رحمة الله. فمن تاب إلى الله ورجع إليه غفر ذنوبه جميعاً . ويأمر أيضاً باتباع القرآن الكريم والدين الحنيف من قبل أن يأتى العذاب بغته . ومن قبل أن تندم النفوس المقصرة فى حق الله ولا ينفعها الندم .

فالمراد بجنب الله هنا والله أعلم بمراده وهو شرع الله ودين الله . وطريق الله . الذى بينه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء به القرآن الكريم ولا يتصور إنسان مدرك للأمور أن النفس المتحسرة قد كان معها صفة لله هى جنبه ثم تركتها وفرطت فيها .

ولقد ورد أن أكثر السلف قال بصرف بعض ألفاظ القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، عن ظاهرها . يقول شيخ الإسلام الشيخ سليم البشرى فى فتوى له بتاريخ ٢٢ من المحرم سنة ١٣٢٥ هـ . وهى رد على من يقول بالفوقية الذاتية لله سبحانه وتعالى مستدلا بقوله : « إليه يصعد الكلم الطيب » وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى تفيد ذلك .

يقول الشيخ سليم ما خلاصته : « وما تمسك به المخالفون القائلون بالجهة أمور واهية وهمية لا تصلح أدلة عقلية ولا نقلية ، وما تمسكوا به ظواهر آيات ، وأحاديث موهمة .. ومثل هذه يجاب عنها بأنها ظواهر ظنية

---

(١) من الآيات ٥٦ من سورة الزمر .

لا تعارض الأدلة القطعية اليقينية الدالة على انتفاء المكان والجهة. فيجب تأويلها وحملها على محامل صحيحة لا تأباها الدلائل ، والنصوص الشرعية اما تاويلا اجماليا بلا تعيين للمراد منها كما هو مذهب السلف . وإما تأويلا تفصيليا بتعيين محاملها وما يراد منها كما هو رأى الخلف ، (١)

وفى ص ٩٥ من كتاب : فرقان القرآن . يقول مؤلفه ما نصه : إن أهل العلم مع نقلهم عن اكثر السلف القول بالصرف عن الظواهر ، وعدم الخوض فى بيان المعنى المراد . اختلفوا : هل يسمى هذا الصرف مع عدم تعيين المراد تأويلا ، أو لا يسمى ذلك تأويلا حتى يعين المعنى المراد ؟ . وبالثانى قال كثير من أهل العلم ، فإنهم رأوا أن التأويل هو بيان المعنى الذى يقصد من الكلام ، فإذا صرف الكلام عن الظاهر فقط ، وفوض المعنى المراد إلى قائله لم يسم تأويلا ، والأمر / ذلك هين ، فان الصرف عن الظاهر متفق عليه سمى تاويلا أم لا » .

فهذه النقول تؤكد أن السلف قد صرف بعض ألفاظ القرآن والسنة الصحيحة عن ظاهرها . إن احتاج الأمر إلى ذلك .

وعلى ذلك . فإنه يتعين علينا أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه وبكل ما جاءت السنة الصحيحة به من أوصاف لله ـ تعالى بدون إفراط أو تفريط فى الصرف أو التأويل أو عدمها .

كما يتعين على كل مسلم أن لا يخوض بالبحث فى الصفات التى يوهم

---

(١) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان للشيخ سلامة القرامة فى ص ٧٥

ظاهرها التشبيه . بل عليه أن يؤمن بكل ما جاء به الله ورسوله . ليكون من الراسخين فى العلم الذين يقولون : «آمنا به كل من عند ربنا» ، مقتفيا بذلك أثر الصحابة ومن سار على نهجهم فهم رضوان الله عليهم لم يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن معنى شىء مما وصف الله به ذاته الكريمة يؤكد ذلك ماقاله المقريزى فى خططه : «من أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوية ، ووقف على الآثار السلفية - علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ، ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شىء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم ، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام من الصفات ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات ، أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له - تعالى صفات أزلية من العلم ، والقدرة والحياة ، والإرادة . والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجلال ، والإكرام والجود ، والعز ، والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا ، وهكذا أثبتوا رضى الله عنهم - ما أطلق الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه . واليد ، ونحو ذلك ، مع نفى مماثلة المخلوقين .

فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحدهم إلى شىء من هذا ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحدهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى ، وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى

ولا عرف أحد منهم الطرق الكلامية ، ولا مسائل الفلسفة (١) ، فيتعين علينا أن نقتفى أثرهم ، وأن نحذو حذوهم وأن نوقن بأن الله جل علاه ـ مخالف فى كل شىء للحوادث .

---

(١) الصفات الإلهية بين السلف والخلف تأليف عبد الرحمن الوكيل نقلا عن الخطط والآثار للمقريزى ج ٢ ص ٣٥٦ .

قيامه ـ تعالى ـ بنفسه [١]

الصفة الرابعة من الصفات التنزيهية ـ أو السلبية ـ قيامه ـ تعالى بنفسه وهذه الصفة معناها : أن الله تعالى موجود بلا موجد ، وغنى عن كل ماسواه به ، وغنى عن أى موجد يوجده ، لأنه سبحانه وتعالى لو كان محتاجاً إلى شيء لكان حادثاً ، وحدوثه محال ـ كما تقدم ـ فاحتياجه كذلك محال لأنه لو احتاج إلى غيره فى ذاته ، أو صفاته ، أو أفعاله لكان ناقصاً ، ولكان غيره مؤثراً فيه ، وكل ذلك مستحيل فى حقه تعالى فما أدى إليه وهو احتياجه إلى غيره يكون مستحيلا .

وضد قيامه تعالى بنفسه احتياجه إلى غيره ، وقد ثبت بطلان احتياجه سبحانه وتعالى إلى غير ولم يبق إلا قيامه تعالى بنفسه وعدم احتياجه إلى غير . قال تعالى : « ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » [٢] .

وياليتنا نتدبر هذا الحديث القدسى الذى ذكر أموراً كلية ملموسة ودالة

---

(١) يجوز اطلاق لفظ النفس على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد ورد فى القرآن الكريم وفى الحديث النبوى ذلك كثيراً . فمن ذلك قوله تعالى « واصطنعتك لنفسى » طه ٤١ وقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » الأنعام ٥٤ ، وفى الحديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

(٢) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة فاطر .

بوضوح على احتياج المخلوقات إلى الله واستغناء الله تعالى عن جميع مخلوقاته .

وهذا الحديث رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله عز وجل أنه قال : « يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا(١) . يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم . يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم . يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر لكم الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى يا عبادى : لو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى : لو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى : لو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

قال سعيد(١) : كان أبو إدريس الخولانى إذا حدث بهذا الحديث جثا

---

(١) أى لا يظلم بعضكم بعضا .
(٢) سعيد هذا أحد رواة الحديث • وهو سعيد بن عبد العزيز بن ربيعة بن يزيد

على ركبتيه »(١) .

فالله - سبحانه - مستغن عن ذات يقوم بها ، ويلزم من ذلك أن يكون ذاتاً لا صفة . لأن الصفة لابد أن تقوم بمحل أى ذات تتصف بها ، والمراد بالمخصص - بكسر الصاد المهملة - الفاعل والموجد ، أى أنه تعالى مستغن عن موجد يوجده ، ويلزم من ذلك أن يكون قديما لا حادثاً .

ومن هذا نعلم : أن معنى قيامه تعالى بنفسه يتضمن شيئين .

الأول : عدم احتياجه إلى المحل .

الثانى : عدم احتياجه إلى الموجد .

وكان يمكن أن يستغنى بصفة القدم عن عدم الاحتياج إلى الموجد لأنه لا يحتاج إلى الموجد إلا الحادث . لكن علماء هذا الفن لا يكتفون بدلالة الالتزام فى هذا العلم لشدة خطر الجهل فى أى موضوع من موضوعاته(٢) .

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ من ص ١٣٣ .

(٢) ينظر هامش ص ٨١ من شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى ببعض تصرف .

الأدلة العقلية على وجوب قيامه تعالى بنفسه

ونحن سنورد هنا دليلين ، أحدهما يثبت عدم احتياجه إلى المحل . والثانى يثبت عدم احتياجه إلى المخصص .

أما الدليل على عدم احتياجه إلى المحل أى الذات أنه لو افتقر إلى محل يقوم به لكان صفة ، لأنه لا يقوم بالذاى إلا صفاتها - ولو كان صفة لم يصح اتصافه بشىء من صفات المعانى ، أو المعنوية ؛ لأن الصفة لا توصف وهو سبحانه واجب الاتصاف بكل صفة من صفات المعانى ، والمعنوية . أما أنه سبحانه واجب الاتصاف بكل صفة من صفات المعانى ، والمعنوية : فلما يذكر من الأدلة مع كل صفة منها . ومتى بطل كونه صفة . بطل كونه مفتقراً إلى محل ومتى بطل كونه مفتقراً إلى محل ثبت نقيضه ، وهو عدم افتقاره إلى المحل وهو المطلوب[١] .

وأما الدليل على عدم افتقاره إلى مخصص . أى موجد يوجده . فإنه لو افتقر إلى المخصص . لكان حادثاً ، ولكنه ليس بحادث — لما تقدم من دليل القدم — فليس مفتقراً إلى المخصص ، وإذا بطل كونه حادثاً ، بطل ما أدى إليه ، وهو : أنه محتاج إلى مخصص ، وإذا بطل بذلك ثبت نقيضه . وهو : عدم احتياجه إلى المخصص وهو المطلوب[٢] .

---

(١) نفس المرجع والهامش والصفحة ببعض تصرف

(٢) النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد ص ٨١ والتى بعدها للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد وهو على هامش شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى .

الوحدانية(١)

الصفة الخامسة من الصفات السلبية أو التنزيهية الواجبة لله سبحانه وتعالى - الوحدانية - ومبحث تلك الصفة أشرف مباحث علم التوحيد ، ولذلك نجد العلماء قد اختاروا لهذا العلم إسماً مشتقاً من الوحدة فسموه « علم التوحيد . وكثر فى القرآن الكريم التنبيه على هذا المبحث ، والإشارة إليه(٢) .

ومعنى صفة الوحدانية الواجبة لله تعالى : نفى التعدد فى ذاته ، وفى صفاته وفى وأفعاله . أى : أن الله واحد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله . أى أن الله واحد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

ومعنى وحدة الذات : أن ذاته سبحانه ليست مركبة من أجزاء وإلا لشابه الحوادث - وليست لغيره ذات تشبه ذاته - وإلا لوجد قديم غيره . أى أول بلا ابتداء . وحيث إنه قد ثبت أن الله سبحانه مخالف للحوادث ،

---

(١) الوحدانية — بفتح الواو ، وسكون الحاء المهملة — نسبة إلى الوحدة — فهذه الياء التى فيها ياء النسبة . وقد زيدت الألف والنون قبل الياء لإفادة المبالغة كما زيدت فى — شعرانى — المنسوب إلى الشعر . وقيل : لا يصح كون الياء للنسبة لأن المراد ثبوت الوحدة نفسها لا ثبوت شىء منسوب إليها . وصاحب هذا القيل استظهر أن الياء التى فى الوحدانية ياء المصدر الصناعى مثل الضاربية ، والعالمية ، والمفهومية ، ونحوها وهو مردود بأن الشىء قد ينسب لنفسه لقصد المبالغة (ينظر هامش ص ٨٢ من شرح جوهرة التوحيد للشيخ اللقانى) .

(٢) وسنورد بعضا مما جاء به فى القرآن الكريم عند الإتيان بالأدلة النقلية على وحدانيته سبحانه وتعالى .

وأنه وحده ـ هو الأول بلا بداية من الأدلة السابقة ـ فيتأكد أن ذاته سبحانه ليست مركبة من أجزاء وليست لغيره ذات تشبه ذاته .

ووحدة الصفات معناها : أن الله سبحانه ليس له صفتان ، أو أكثر من جنس واحد ، كقدرتين ، وعلمين ، أو أكثر ـ مثلا ـ وليس لغيره صفة كصفته تعالى .

ومعنى وحدة الأفعال : أن الأفعال كلها مخلوقة لله وحده أى هو سبحانه خالقها وحده بلا شريك ولا معين ، فجميع الكائنات مخلوقة بقدرة الله وحدها فلا شريك له فيها . وليس لغيره فعل من الأفعال على وجه الإيجاد .

وقد اشتهر أن الوحدانية تنفى كوماً[١] خمسة . وهى :

(١) الكم المتصل فى الذات : ومعناه : أن ذاته مركبة من أجزاء .

(٢) الكم المنفصل فى الذات أيضا : ومعناه : تعدد ذات الواجب بحيث هناك إله ثان أو أكثر .

(٣) الكم المتصل فى الصفات : ومعناه : التعدد فى صفاته تعالى بأن يكون له صفتان من جنس واحد كقدرتين وإرادتين ، وعلمين .

(٤) الكم المنفصل فى الصفات : ومعناه : أن يكون لغيره صفة تشبه صفته تعالى كأن يكون لأحد قدرة يوجد بها ، ويعدم ، كقدرة الله تعالى ،

---

(١) كوم : جمع كم بفتح الكاف وتشديد الميم معروف والكم هو : كمية الشىء وعدده .

أو يكون لأحد إرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، أو علم محيط بجميع الأشياء ، وهكذا .

(٥) **الكم المنفصل فى الأفعال** : ومعناه : أن يكون لغيره تعالى فعل من الأفعال على وجه الإيجاد .

فوحدة الذات الواجبة له تعالى معناها : أنه سبحانه وتعالى ليس جسما مركباً يقبل الإنقسام ، وأنه ليس هناك إله آخر غيره .

ووحدة الصفات الواجبة له. معناها: أنه ليس لهصفتان من جنس واحد وليس لغير صفة تشبه صفته .

ووحدة الأفعال . معناها : أنه ليس لأحد فعل كفعله وبعبارة أخرى : أن وحدة الذات تنفى عنه (١) الكم المتصل ، (٢) والكم المنفصل فى الذات .

ووحدة الصفات : تنفى عنه (١) الكم المتصل ، (٢) والكم المنفصل فى الصفات .

ووحدة الأفعال : تنفى عنه (١) الكم المنفصل فى الأفعال(١) . ولا يوجد بناء على ما ذكرنا كم متصل فى الأفعال : لأن أفعال الله كثيرة ومتعددة ، ويوجد له سبحانه أكثر من فعل من جنس واحد لأن أفعاله سبحانه تتعلق بالعباد .

وبقدر ما كانت قضية وجود الله مركوزة فى الفطرة غير محتاجة إلى إقامة الأدلة عليها – إلا لمن فى قلبه مرض نرى عكس ذلك فى قضية

---

(١) النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محمد محى الدين عبد الحميد بهامش شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى ص ٨٢ والتى بعدها.

الوحدانية . فالقرآن الكريم يقيم الأدلة على أن الله واحد لا شريك له حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من تأكيد هذه الوحدانية ، وأنها القضيه الأساسية فى بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ورسالات الأنبياء ، والرسل السابقين جميعاً ، وهى المطلب الأعظم من الدين ، وهى جوهر الكتب السماوية عامة . يقول الله سبحانه وتعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[1] .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

الأدلة النقلية على الوحدانية

والأدلة النقلية على الوحدانية الله فى ذاته، وصفاته وأفعاله كثيرة.
منها قوله تعالى «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»(١).

فهو تعالى «أحد» أى واحد فى ذاته، وفى صفاته، وفى أفعاله، وهو «الصمد» أى الغنى الذى يقصده الناس فى حوائجهم لإحتياجهم إليه، وغناه عنهم. «لم يلد» أى لم ينبثق عنه ولد فهو فى غاية الكمال. «ولم يولد» أى لم ينبثق عن غيره لأنه لا أول لوجوده. «ولم يكن له كفواً أحد»: أى لم يكن ولم يوجد أحد يساويه ويماثله.

وقال تعالى: «سبحانه هو الله الواحد القهار»(٢).

ويقول سبحانة: «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم»(٣).

يقول صاحب تفسير «المنار» عند تفسيره لهذه الآية: «وإلهكم إله واحد..» أى وإلهكم الحق؛ الحقيق بالعبادة إله واحد لا إله مستحق لها إلا هو، فلا تشركوا به أحداً. ثم قال: قال الأستاذ الإمام(٤): نبههم

(١) سورة الإخلاص.
(٢) من الآية الرابعة من سورة الزمر.
(٣) الآية ١٦٣ من سورة البقرة.
(٤) هو الإمام محمد عبده.

سبحانه وتعالى إلى أن المنافع التى يرقبونها من شركهم . إنما هى بيده الكريمة وحده . كأنه يقول : إذا أنتم تركتم ما أنتم فيه لأجله تعالى فهو بتفرده بالألوهية يكفيكم كل ضرر تخافونه ، ويعطيكم برحمته الواسعة كل ماترجونه ، فإن بيده ملكوت كل شىء ، وكل ما تعتمدون عليه من دونه ، فليس محلا للإعتماد بل اعتمادكم عليه من قبيل الشرك ، فيجب أن تطرحوا غيره جانباً وتعتقدوا أن الإله الذى بيده زمام المنافع ، والقادر على دفع المضار ، وإيقاعها هو واحد لا سلطان لأحد على إرادته ، ولا معدل لكلمته ولا أوسع من رحمته . وإنما أكد أمر الوحدة هذا التأكيد تحذيراً من طرق الشرك الخفية على أنها أساس الدين وأصله(١) .

والإله معناه : كل معبود ، بحق أو بغير حق ، لذلك نجد القرآن الكريم ينفى الألوهية الحقة عما عداه سبحانه . فمعنى لا إله إلا هو : أى لا معبود بحق إلا هو سبحانه . والجمهور على أن معناه الشرعى : المعبود بحق ولذلك أنكر القرآن الكريم تأليه الأصنام ، وعبادتها »(٢) .

وكل الرسل السابقين جاءوا يقررون وحدانية الله سبحانه وتعالى قال : جل شأنه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »(٣) .

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ج ٢ من ص٥٥ والتى بعدها .
(٢) نفس المرجع ج١ ص ٤٠
(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء

والوحدانية من أولى القضايا التى جاء بها نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ليرسى قواعدها فى القلوب ، ويعمق مفهومها فى النفوس . ولقد قال له ربنا عز وجل: «قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم واحد فهل أنتم مسلمون »(١) .

وكلمة التوحيد التى هى : لا إله إلا الله . مشتملة على نفى وإثبات ففيها نفى الألوهية عما سوى الله تعالى . وفيها اعتقاد إثباتها لله وحده لا شريك له ، ليس فى ذلك حق لملك مقرب ، ولا لنبى مرسل لأنهم جميعاً عباده، وكلهم مسئولون أمامه يوم العرض عليه . قال تعالى : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً »(٢) .

وهذا يدل على أن كل ملك ، ورسول ، وولى صالح - وإن بلغ ما بلغ من علو الرتبة ، وسمو المكانة - عبد لله وحده ، وليس له شرف إلا شرف العبودية للمعبود الفرد(٣) .

ويسوق ربنا - سبحانه وتعالى - الدليل على وحدانيته تعالى فيقول : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »(٤) وقال جل شأنه : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون(٥) » .

---

(١) الآية ١٠٨ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيات ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ من سورة مريم .
(٣) الدين الخالص للهندى ج ١ ص ١٨٩ .
(٤) الآية ٩١ من سورة المؤمنون .
(٥) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .

ويعلن سبحانه أن المشركين مع شركائهم وقود لجهنم . قال تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون »(١) .

وكان العرب قبل الإسلام يشركون مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأشجار ، وغيرها فى العبادة ، فلما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى عبادة الله وحده . واستنكر عليهم عبادة غيره تعجبوا من قوله وسخروا من دعوته كما جاء ذلك مبينا فى القرآن الكريم ، قال تعالى حكاية عنهم : « اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق »(٢) .

وقال الإمام النسفى فى سبب نزول هذه الآيات : « روى أن عمر رضى الله عنه لما أسلم . فرح به المؤمنون ، وشق على قريش ، فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم ، ومشوا إلى أبى طالب ، وقالوا : أنت كبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ـ يريدون الذين دخلوا فى الاسلام ـ وجئناك لتقضى بيننا . وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا ابن أخى . هؤلاء قومك يسألونك السواء ـ أى العدل ـ فلا تمل كل الميل على قومك . فقال عليه الصلاة والسلام : « ماذا يسألونى » فقالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا ـ أى لا تذكرنا ، ولا تذكر آلهتنا بسوء ـ

---

(١) الآيتان ٩٨، ٩٩ من سورة الأنبياء

(٢) الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة ص .

وندعك، وإلهك. فقال عليه الصلاة والسلام: «أتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم»؟ فقالوا: نعم وعشر كلمات معها. فقال: «قولوا: لا إله إلا الله». فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً.. إلخ»(١).

وكانت عقيدة الكثير من الكفار. الإيمان بوجود الله، وأنه هو الخالق، الرازق، المدبر الذى بيده الأمر كله، ولكن كفرهم جاء من عبادة غير الله، وحين كانوا يسألون عن سبب ذلك، كانوا يقولون: إنما نعبد غير الله ليقربنا إلى الله - بطريق الوساطة - وذلك خطر عظيم يأباه الدين وتنكره العقول السليمة. قال تعالى: «والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار»(٢).

ويقول الإمام القرطبى فى هذه الآية: «والذين اتخذوا من دونه أولياء» يعنى بالأولياء: الأصنام. قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

قال قتادة: كانو إذا قيل لهم: من ربكم، وخالقكم، ومن خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء؟ قالوا الله. فيقال لهم: مامعنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده»(٣).

---

(١) الإمام النسفى فى تفسيره ج ٢ ص ٢٦.
(٢) الآية الثالثة من سورة الزمر.
(٣) الإمام القرطبى فى تفسيره ج ٢٥ ص ٢٣٣.

وقال الإمام ابن كثير زيادة على ذلك : « وكانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر ، وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بردها ، والنهى عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له . وأن هذا شىء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذن الله فيه ولا رضى به ، بل أبغضه ، ونهى عنه »(١) .

لذلك كانت كلمة التوحيد أفضل الذكر ، وأفضل الأعمال ، ولا يقبل الله عملا إلا باعتقادها ، وهى حـــرز من الشيطان ، وتفتح لقائلها العامل بمقتضاها أبواب الجنة يدخل من أيها شاء « فعن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الذكر : لا إله إلا الله وأفضل الدعاء : الحمد لله »(٢) .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء(٣) .

---

(١) الامام ابن كثير فى تفسيره ج ٤ ص ٤٥ .

(٢) رواه ابن ماجه والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد . الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٧٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٢٢٦ والتى بعدها . باب من لقى الله بالشهادتين لم يحجب عن الجنة .

وروى البخارى ، ومسلم ، والترمذى . وغيرهم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك »(١) .

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ١٠٩ .

الأدلة النقلية على الوحدانية

ويوجد كثير من الأدلة العقلية على أن الله سبحانه وتعالى واحد فى ذاته، وواحد فى صفاته، وواحد فى أفعاله. نأخذ من هذه الأدلة ما يلى:

أولا: **الدليل العقلى على وحدانية الذات**: علمنا مما سبق أن وحدة الذات الإلهية تعنى، أن ذاته - تعالى ليست مركبة من أجزاء وليس لغيره ذات تشبه ذاته.

والدليل العقلى على عدم تركب ذاته: أنه لو تركبت ذاته تعالى من أجزاء لكانت الذات محتاجة فى تحققها إلى جميع أجزائها، واحتياج دليل الحدوث والحدوث عليه تعالى محال، فتركب ذاته محال.

والدليل على عدم وجود ذات تشبه ذات الله تعالى - : أنه لو وجدت ذات غير ذات الله متصفة بصفات الألوهية. لوجه إلهان ولو وجد إلهان لأمكن الخلاف بينهما كأن يريد أحدهما وجود شىء ويريد الآخر عدم وجوده فإن نفذ مرادهما معا، لزم اجتماع النقيضين، وهو وجود ذلك الشىء، وعدم وجوده، واجتماع النقيضين باطل.

وإن لم ينفذ مرادهما معا لزم عجزهما فلا توجد هذه الكائنات، وعدم وجودها باطل بالمشاهدة.

وإن نفذ مواد أحدهما، وعجز الثانى كان من نفذ مراده هو الإله دون من عجز. على أن عجز من لم ينفذ مراده يثبت للآخر، لأن الفرض

أنهما متساويان ، وما ثبت ، لأحدهما يثبت للثانى ، وحينئذ لا توجد هذه المخلوقات ، وعدم وجودها باطل بالمشاهدة .

ويقول الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد فى كتابه (النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد) ص ٨٤ :

« وأما التلازم بين التعدد . وعدم وجود شىء من العالم فدليله :

أنه إذا تعدد — بأن كان فى العالم إلهان — **فاما ان يتفقا ، واما ان يختلفا . فان اتفقا ، فاما أن يتفقان على الاشتراك فى ايجاد كل شىء ، واما ان يتفقا على انفراد كل واحد منهما بشىء .**

فإن اتفقا على إيجاد كل شىء ، فإما أن يتفقا على أن يوجداه معا ، وإما أن يتفقا على أن يوجده أحدهما ، ثم يوجده الآخر بعده .

فإن اتفقا على أن يوجداه معا — والمفروض أن كل واحد منهما تام القدرة — كان فى إيجادهما إياه معا اجتماع مؤثرين كل واحد منهما قادر تام القدرة على أثر واحد ، وهو لا يجوز :

وإن اتفقا على أن يوجد أحدهما الشىء ثم يوجده الآخر كان فى إيجاد الثانى إياه تحصيل الحاصل ، وهو محال .

وإن اتفقا على أن يوجد أحدهما شيئا ، ويوجد الآخر شيئاً آخر ، لزم أن يكون كل واحد منهما عاجزاً عن إيجاد ما أوجده الآخر . فهما جميعاً على هذا الفرض — عاجران .

وان اختلفا : فاما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر ، واما ان ينفذ مراد كل منهما ، واما ألا ينفذ مراد واحد منهما .

فإن نفذ مراد كل منهما لزم اجتماع النقيضين ، وهو محال .

وإن نفذ مراد أحدهما دون الآخر لزم أن يكون من لم ينفذ مراده عاجزاً ، ولزم أن يكون الآخر أيضاً عاجزاً إذ الفرض أنهما متساويان فى فى القدرة ، والعلم ، وغيرهما من الصفات .

وإن لم ينفذ مراد واحد منهما لزم أن يكون كل واحد منهما عاجزاً .

وكل هذه اللوازم محال ، فما أدى اليها وهو التعدد محال . فثبت نقيضه وهو عدم التعدد ، وأن الخالق المدبر لهذا الكون واحد وهو المطلوب » ا . هـ .

ثانيا : الدليل العقلى على وحدانية الصفات :

تبين لنا أن وحدة الصفات معناها : أن الله ـ سبحانه ـ ليس له صفتان: أو أكثر من جنس واحد ، كقدرتين ، وعلمين، أو أكثر مثلا ـ وليس لغيره صفة كصفته ـ تعالى ـ .

والدليل العقلى على وحدة الصفات : أنه لو كان الله ـ سبحانه له صفتان أو أكثر من نوع واحد ، لكان ما زاد على صفة واحدة من كل نواع لا فائدة فيه ، لأن من لوزم صفات الله كلها أن تكون كل واحدة منها كاملة ، ومستقلة ، واتصاف الله تعالى ـ بما لا فائدة فيه عبث ، والعبث محال عليه ـ وتعالى .

ولو كان لغير الله صفات تشبه صفاته تعالى لكان ذلك الغير إلها ، فتتعدد الآلهة . لكن قام البرهان على استحالة التعدد ـ عند الحديث عن وحدة الذات فيستحيل على هذا أن يتصف أحد بصفة تشبه صفة الله فى الكمال .

ثالثا : الدليل على وحدانية الأفعال :

قلنا : إن الله واحد فى أفعاله ، بمعنى أنه لا يوجد فعل لغيره تعالى يشبه فعله .

والدليل على واحدانية الأفعال لله سبحانه أنه لو كان لغيره تعالى فعل يشبه فعله تماما ، لكان هذا الفاعل متصفا بصفات الله ، وحينئذ يكون إلها آخر ، وقد ثبت مما قلناه فى وحدة الذات أن تعدد الإله مستحيل ، فوجد فعل لأحد كفعل الله مستحيل ، كما أنه لو كان لغير الله فعل كفعله لما كانت جميع الكائنات مستندة إلى قدرة الله وحدها على حين أنه ثبت أن خالق كل شىء هو ربنا الذى لا إله إلا هو .

قال تعالى : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل » (١) . وقال عزمن قائل : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » (٢) . وقال سبحانه : « فعال لما يريد (٣) .

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٦٨ من سورة القصص .
(٣) الآية ١٦ من سورة البروج .

الأسماء التي تتبع إثبات وحدانية الله تعالى

لقد وجدت أسماء لله سبحانه وتعالى تتبع صفة الواحدانية إذ أن معناها يفيد تفرد الله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله ولقد ذكر الإمام البيهقي هذه الأسماء فقال ما خلاصته :

« أولها الواحد » : قال الله جل ثناؤه : « قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار » (١) . وروت عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تصور من الليل قال : « لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » .

ومنها : الوتر : لأنه إذا لم يكن قديم سواه . لا إله ، وهو غير إله ـ كما ثبت لم ينبغ لشيء من الموجودات أن يضم إليه فيعبد معه ، فيكون المعبود معه شفعا لكنه واحد وتر . روى أبو هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين إسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وإنه وتر يحب الوتر » (٢) .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة ص .

(٢) (إنه وتر) : أي ان الله واحد في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، ليس كمثله شيء (يحب الوتر) : أي يحب العدد الفردي الذي ليس بشفع ، لأن الأعداد الفردية تذكر الإنسان بوحدانية الله . وليس بلازم أنه ـ سبحانه ـ لن أحب الأعداد الفردية أن يكره الشفع منا أي الأعداد الزوجية . بل كل ذلك مخلوق له سبحانه — وقد أقسم ربنا بالشفع والوتر معا ، وقدم الشفع على الوتر فقال: « والفجر وليال عشر والشفع=

رواه مسلم فى الصحيح[1] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق .

ومنها الكافى : لأنه إذا لم يكن له فى الآلهة شريك صح أن الكفايات كلها واقعة به وحده ، فلا ينبغى أن تكون العبادة إلا له والرغبة إلا إليه والرجاء إلا منه ، وقد ورد الكتاب بهذا : قال الله ـ عز وجل : « أليس الله بكاف عبده »[2] .

وروى عن أنس ـ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا آوى إلى فراشه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا ، وآوانا فكم ممن لا كافى له ، ولا مؤوى » أخرجه مسلم فى الصحيح من وجه آخر عن حماد بن سلمة .

ومنها : العلى : قال الله عز وجل : « وهو العلى العظيم »[3] .

= والوتر » (الفجر من ١ ـ ٣) . وورد لفظ الوتر اسما من أسماء الله ـ تعالى ـ فى رواية ابن ماجه من طريق عبد الملك بن الصنعانى عن زهير بن محمد التميمى عن موسى ابن عقبة عن الأعرج ، وهو زيادة على ما فى روايه الترمذى ـ وعبد الملك لين الحديث وزهير مختلف فيه .

والحديث الذى ذكر عدد الأسماء الحسنى سرداً ، قال عنه الترمذى : هذا حديث غريب جداً ولا نعرفه إلا من حديث صفوان ابن صالح وهو ثقه عند أهل الحديث . أما حق الحديث وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » فمتفق عليه .

(من ص ٦٤٢ كتاب تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله ابن محمد بن عبد الوهاب ـ حفيد الشيخ بن عبد الوهاب).

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ج ١٧ ص ٥ باب فى أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها .

(٢) من الآية ٣٦ من سورة الزمر :

(٣) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

روى إياس بن سلمة عن أبيه قال: « ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاء قط إلا استفتح بسحبان ربى الأعلى الوهاب » .

ورواه أبو معاوية عن عمر بن راشد، وزاد فيه، « العلى الوهاب » . وعمر بن راشد ليس بالقوى .

وقال الحليمى فى معنى العلى : إنه الذى ليس فوقه فيما يجب له من معالى الجلال أحد، ولا معه من يكون العلو مشتركا بينه وبينه ، ولكنه العلى بالإطلاق . قال : « والرفيع » فى هذا المعنى قال الله عز وجل : « رفيع الدرجات » (١)ومعنا : هو الذى لا أرفع قدراً منه ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء ، وهى أصنافها وأبوابها ، ولا مستحق لها غيره» (٢) ا. هـ .

وتتميما للحديث عن الوحدانية . فإننا نتناول بالبحث عقيدة النصارى ، وغيرهم ، وما فيها من الأمور التى ابتدعوها ، وليست من الدين الإلهى فى شيء ، وكلها باطلة لأنها تتنافى مع وحدانية الله ، وتفرده بالألوهية .

---

(١) من الآية ١٥ من سورة غافر .

(٢) من كتاب الأسماء والصفات للبيهقى من ص ١٤ ، ١٦ باختصار .

الثالوث عقيدة وثنية

إن عقيدة النصارى التى ابتدعوها - أساسها الثالوث الأقدس أى المركب من ثلاثة أقانيم(١) . هى الآب والابن ، والروح القدس وهى جواهر ثلاثة وكل جوهر منها مستقل عن الآخر ، والثلاثة مع ذلك إله واحد . يؤكد زعمهم هذا قول أحدهم عن السيد المسيح عليه السلام .

فهو الإله ابن الإله وروحه
فثلاثة هى واحد لم تقسم

مع أن القرآن الكريم أثبت بما هو قاطع ، وجازم: أن المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأنه مخلوق كما أن آدم عليه السلام خلق من تراب ولم يك شيئاً مذكوراً قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً »(٢) . ويقول سبحانه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من

---

(١) أقانيم : أى أصول واحدها أقنوم بضم الهمزة ويقول صاحب مختار الصحاح أحسبها كلمة رومية .

(٢) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة مريم .

إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون»(١).

والتثليث ليس خاصا بالنصارى . فقد جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية فى تحديد لفظة ثالوث قولها : « إنه اتحاد ثلاثة أشخاص متميزة مكونة لإله واحد فى عقيدة الديانة النصرانية وبعض الديانات الأخرى . فيقال مثلا : الثالوث النصرانى ، والثالوث الهندى » انتهى(٢) .

ويقول العلامة المرحوم فريد وجدى : « نعم كان الثالوث موجوداً فى ديانة قدماء المصريين بالنسبة لآلهتهم الوطنية ـ متمثلة فى إيزيس الملكة ، وأوزوريس الملك ، وحورس ابنهما ، والثلاثة واحد وقد اندثرت تلك الديانة الآن .

والثالوث الهندى موجود للآن لدى الملايين من الناس فى الهند ، والصين وهو أن البراهمة(٣) يعتقدون أن الخالق تجسد أولا فى براهما ثم فى فيشنو ثم فى سيفا(٤) ملتصقين ، ويصورونهم إشارة إلى هذا التجسد الثلاثى .

ويعتقد البوذيون(٥) : أن الإله فيشنو الذى هو أحد أركان الثالوث

---

(١) الآيات من ٧٢ الى ٧٠ من سورة المائدة .
(٢) العقائد الإسلامية للشيخ السيد سابق ص ٦١ .
(٣) فئة من الهنود سموا بهذا الاسم نسبة الى ـ براهما ـ الههم المزعوم .
(٤) فيشنوا وسيفا : الهان من آلهة الهنود .
(٥) طائفة من الهنود أيضا سموا بهذا الاسم نسبة الى الههم بوذا .

الهندى تجسد مراداً عديدة لتخليص العالم من الشرور والذنوب وكان تجسده فى بوذا للمرة التاسعة ، انتهى[١] .

وهذه العقيدة فى حقيقها أمرها وثنية ، وإنها دخيلة على دين الله ؛ فالله منزه عن أن يشبه[٢] شيء أى لا يوافقه شيء فى شيء من صفاته ، أو يشبه هو شيئاً آخر « ليس كمثله شيء »[٣] وذاته فوق متناول العقول : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[٤] . ولا يجوز أن تتركب ذاته من أجزاء أو تتحد بالأشياء ، أو تحل فى خلق من المخلوقات : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما »[٥] .

كما أنه منزه سبحانه عن أن يكون له والد يلده ، وعن أن يكون له ولد ينفصل عنه قال تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد

---

(١) العقائد الاسلامية للشيخ السيد سابق ص ٦١ .

(٢) الشبه — بكسر الشين المعجمه ، وسكون الباء مثل الشبه وقد جاءت ألفاظ كثيرة فى العربية على هذين الوزاين ومعناها واحد ، مثل الخدن والخدين والخل والخليل والمثل والمثيل . والشبه والشبيه والحب والحبيب ويوجد تفاوت بين الشبيه والنظير والمثيل . فالشيء ان وافق الشيء فإما أن يوافقه فى كل صفاته وإما أن يوافقه فى أغلب صفاته وإما أن يوافقه فى أقل صفاته .

فان كان الشيء موافقا للشيء فى كل صفاته فهو : مثله ومثيل .

وان كان يوافقه فى أغلب صفاته فهو : نظيره .

وإذا كان يوافقه فى أقل صفاته فهو : شبهه ومن هنا نفهم أن الأدق فى التعبير عن تنزيه ذات الله سبحانه أن نقول : ليس له شبه ، أو شبيه لأن الحكم بنفى الشبه يستلزم الحكم بنفى النظير ، والمثل فإنه لذا انتفى من يوافقه فى أقل صفاته فانتفاء من يوافقه فى أكثرها أو فى جميعها من باب أولى .

(٣) من الآية ١١ من سورة الشورى

(٤) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ١٠٠ من سورة طه .

ولم يكن له كفواً أحد »(١) . وفى هذا رد على النصارى أيضاً الذين قالوا بألوهية عيسى عليه السلام فإنهم يعترفون بأنه ابن مريم ولدته كما تلد النساء أولادهم والإله لا يكون له والد. ويزعمون أنه ابن الله تعالى الله عما يقولون، علواً كبيراً استكثروا أن يوجد إنسان بغير والد ، وقد ضلت أحلامهم ، وفسدت عقولهم فى ذلك . لأن الله تعالى أوجد آدم عليه السلام من غير أم ، ولا أب ، فلأن يقدر سبحانه على إيجاد عيسى عليه السلام من أم بلا أب أهون ؛ وأيسر(٢) .

وعقيدة التوحيد ، والتنزيه هى عقيدة جميع الأنبياء ، والرسل حتى السيد المسيح نفسه ؛ والذين يزعمون غير هذا من النصارى لا برهان لهم من العقل ، ولا سند لهم من النقل ، وإنما هى ظنون وأوهام طرأت عليهم من الديانات الوثنية القديمة .

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية عند كلمة ثالوث : « إن عقيدة الثالوث ؛ وإن لم تكن موجودة فى العهد الجديد الإنجيل ولا فى أعمال الآباء الرسوليين ؛ ولا فى تلاميذهم الأقربين . إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستنتى الواقف مع التقليد يزعمون أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين فى كل زمان رغماً من أدلة التاريخ الذى يرينا كيف ظهرت هذه العقيدة : وكيف تمت ، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك

---

(١) سورة الأخلاص .

(٢) النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محى الدين عبد الحميد على شرح جوهرة التوحيد للشيخ اللقانى ص ٨٥ .

نعم إن العادة فى التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الآب ، والابن ، والروح القدس ، غير أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير التى يفهمها النصارى الآن .

وإن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه ، وسمعوا قوله ، كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكونة لذات الخالق ، وما كان بطرس وهو أحد حوارييه يعتبره إلا رجلا موحى إليه، أما بولس فإنه خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى ، وقال : إن المسيح أرقى من إنسان ، وهو نموذج إنسان جديد ، أى عقل سام متولد من الله ، وكان موجوداً قبل أن يوجد هذا العالم ، وقد تجسد هنا لتخليص الناس ، ولكنه مع ذلك تابع للإله الآب .

ثم قالت دائرة المعارف نفسها بعد ذلك : كان الشأن فى تلك العصور ، أن عقيدة إنسانية عيسى عليه السلام كانت عالية فى المدة التى تكونت فيها الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين . فإن الناصريين(١) ، وغيرهم من جميع الفرق النصرانية التى تكونت من اليهودية ، اعتقدت بأن عيسى إنسان محض ، مؤيد بالروح القدس ، وما كان أحد إذ ذاك يتهمهم بأنهم مبتعدون عن أصل الديانة ، أو ملحدون .

ويقول جوستين مارشير(٢) : إنه كان فى زمنه فى الكنيسة مؤمنون

---

(١) الناصريون : سكان مدينة الناصرة التى تسمى بها النصارى .
(٢) هو مؤرخ لاتينى كان فى القرن الثانى الميلادى .

يعتقدون بأن عيسى هو المسيح ، ويعتبرونه إنساناً محضاً . وإن كان أرق من غيره من الناس ، وحدث بعد ذلك أنه كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل ا هـ كلام دائرة المعارف الفرنسية[١] .

إن بطلان عقيدة التثليث واضح وضوح الشمس فى يوم لا غيم فيه ، ومع ذلك لاندرى : كيف يحرصون على ما هو باطل ، ويتعصبون له تعصبا أعمى دون سند من التاريخ ، أو حجة من المنطق ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[٢] وحيث يقول أيضاً : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[٣] .

ومن المحاورات الطريفة . أن أحد المسلمين قال لقس[٤] كان يعظ بعضاً من قومه : إن واحد من الناس أخبرنى بأن رئيس الملائكة قد مات . فقال له القس : إن ذلك كذب لأن الملائكة خالدون لا يموتون ، فقال له المسلم كيف لا يموتون وأن تقول الآن فى وعظك : إن الإله قد مات على خشبة الصليب ، فكيف يموت الإله وتخلد الملائكة ؟ فبهت القسيس ولم ينطق بكلمة .

وتنسب إلى الفخر الرازى أبيات فى الرد على مقالة النصارى فى عيسى ، وفيها إحتجاج على دعواهم ألوهيته مع قولهم : إن اليهود قتلوه ، وهذه الأبيات هى :

---

(١) العقائد الإسلامية للشيخ السيد سابق ص ٦٣ عن كتاب كنز العلوم واللغة
(٢) من الآية ٤ من سورة الحج .
(٣) من الآية ٤٠ من سورة النور .
(٤) القس — بفتح القاف — رئيس من رؤساء النصارى فى الدين والعلم .

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلى الله والداً (١) نسبوه .
سلمـوه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعـد قتله صلبوه .
فإذا (٢) كان مايقولون حقاً ... فسلوهم : وأين كان أبوه ؟
فإذا كان راضياً بأذاهم ... فاشكروهم لأجل ماصنعوه .
وإذا كان ساخطاً بقضاهم ... فاعبدوهم لأنهم غلبوه (٣) .

ومن خير ماقيل فى ذلك ، قول الإمام — البوصيرى — فى قصيدته :

جاء المسيح من الإله رسولا ... فأبى أقل العـالمين عقولا (٤)
أسمعتم أن الإله لحاجة ... يتناول المشروب والمأكولا ؟
وينام من تعب ويدعو ربه ... ويروم من حر الهجير مقيلا (٥)
ويمسه الألم الذى لم يستطـع ... صرفاً له عنـه ولا تحويلا .
ياليت شعرى حين مات بزعمهم ... من كان بالتدبير عنه كفيلا ؟ (٦)
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه ... وأراه كان القاتل المقتولا (٧)

---

(١) أى قالوا : إن الله والده .

(٢) فى بعض الكتب «إن بدلا من — فإذا — فى هذا البيت وفى البيتين بعده .

(٣) من كتاب النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محمد محى الدين عبد الحميد على شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى ص ٨٦ .

(٤) أى رفض النصارى أن يكون المسيح رسولا ، وقالوا : إنه إله ، أو ابن إله .

(٥) أى يطلب مكانا تقيل به نصف النهار عند اشتداد الحر ، وهو عيسى الذى يدعون أنه إله . فكيف يكون إلها ، ويشرب ويأكل وينام من تعب ويدعو ربه ويقيل من الحر ؟

(٦) زعم النصارى أن عيسى قد مات ، مع اعتقادهم بأنه الإله ، فمن الذى يقوم بالتدبير للخلق نيابة عنه بعد موته ؟ .

(٧) لأن الإله هو المدبر لكل شىء ، وما داموا يقولون بأن عيسى إله ، فهو القاتل والمقتول فى آن واحد .

أيجوز قول منزه لإلهــه «سبحان قاتل نفسه» لأقولا؟ (١)

أو «جل» من جعل اليهود بزعمكم شوك القتاد لرأسه إكليلا ؟ (٢)

ومضى لحبـــل صليبه مستسلماً للموت مكتوف اليدين ذليلا .

ضل النصارى فى المسيح وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سبيلا .

جعلوا الثلاثة واحداً ولو اهتدوا لم يجعلوا العدد الكثير قليلا .

وإذا أراد الله فتنـــة معشر وأضلهم رأوا القبيح جميلا .

---

(١) أى هل يقول عاقل : ان الإله — سبحانه — قتل نفسه حتى أقول مثل قوله .

(٢) أو هل من عاقل يقول : جل الإله الذى أعان اليهود على نفسه حتى جعلوا شوك شجر القتاد تاجا لرأسه ، وذلك كناية عن تمكنهم منه بالقتل بعد الصلب .

الصفات الثبوتية

بعد أن تكلمنا عن الصفات السلبية ، والتى معناها : سلب ضدها عن موصوفها ، أى أنها تسلب عن الله سبحانه وتعالى كل معنى لا يليق بذاته المقدسة ، وتنزهه عن أى نقص يكون فيه بعد عن التقديس اللائق بجلاله .

بقى بعد هذا أن نتكلم عن الصفات الثبوتية . وتسمى أيضاً : الصفات الوجودية . وكذلك تسمى : صفات المعانى . وسميت بهذه الأسماء لأنها تثبت (١) معنى وجوديا زائد سبحانه وتعالى ويكون هذا المعنى لائقا به عزوجل وهذه الصفات هى : العلم الإرادة القدرة الحياة السمع البصر الكلام وستتكلم عن كل صفة منها على حدة .

---

(١) فكلمة (تثبت) يؤخذ منها أنها صفات ثبوتية ، وكلمة (معنى) يؤخذ منها أنها صفات معان ، وكلمة (وجوديا) يؤخذ منها أنها صفات وجودية .

العــلم

الصفة الأولى من الصفات الثبوتية العلم . وهذه . الصفة عرفها على الـكلام بقولهم ، هي ، صفة ثبوتية (١) قديمة قائمة بذاته / تعالى متعلقة

---

(١) بعض العلماء يذكر بدل كلمة (قديمة) كلمة (أزلية) ويرد هنا سؤال هو : هل بين القديم والأزلى فرق ؟ . وإذا كان فما حد كل واحد منهما ؟ . ونقول جوابا على هذا السؤال : إن للعلماء فى هذا الموضوع ثلاثة أقوال :

أحدها: أن القديم هو : الموجود الذى لا ابتداء لوجوده ، وأما الأزلى فهو : مالا أول له ، أعم من أن يكون عدميا ، أو وجوديا . وعلى هذا تـكون النسبة بين القديم والأزلى العموم والخصوص المطلق ، والأزلى أعم ، فكل قديم أزلى ، وليس كل أزلى قديما .

وثانى الأقوال : أن القديم هو القائم بنفسه الذى لا أول لوجوده . والأزلى الذى لا أول له مطلقا ، سواء أكان وجوديا ، أم عدميا ، وسواء أكان قائما بنفسه ، أم لم يكن، وعلى هذا تـكون النسبة بين القديم ،والأزلى العموم والخصوص المطلق ، والأزلى أعم ، فكل قديم أزلى ، وليس كل أزلى قديما كالأول ،

والقول الثالث : أن القديم مالا أول له مطلقا ، والأزلى مثله ، وعلى هذا تكون النسبة بين القديم والأزلى التساوى ، فـكل قديم أزلى ، وكل أزلى قديم .

إذا علمنا هذا فإننا لو جرينا على القول الأول ساغ لنا أن نصف ذاته العلية وكل صفة من صفاته الثبوتية بكل من القدم والأزلية ، فنقول: الله

. . . .

= تعالى قديم أزلى ، ونقول : علم الله تعالى قديم أزلى لأن الله موجود لا إبتداء لوجوده فيكون قديما ، ولأنه ـ سبحانه لا أول له فيكون أزليا . وكذلك صفاته الثبوتية لأنها تثبت لله معانى زائدة على الذات كما أنها قائمة بالذات . وما بالذات لا يتخلف ولا يسوغ لنا أن أن نصف صفة من صفاته السلبية إلا بالأزلية فقط . فنقول : قدم الله تعالى أزلى . ولا نقول : قدم الله تعالى قديم لأن القديم على الرأى الأول وجودى وهذه : صفات سلبية . أما الأزلى : فهو مالا أول له فهو أعم من أن يكون عدميا أو وجوديا فيدخل فيه الصفات السلبية .

ولو جرينا على القول الثانى : يسوغ لنا أن نصف ذاته تعالى بكل من القدم والأزلية فنقول : الله تعالى قديم أزلى . فالله سبحانه قائم بنفسه لا أول لوجوده فيكون قديما . كما أنه لا أول له مطلقاً فيكون أزليا. ولا يسوغ لنا أن نصف صفة من صفاته سبحانه بالقدم ـ سواء أكانت صفة ثبوتية أم صفة سلبية ـ لأن الصفة عامة لا تقوم بنفسها . ويجوز أن نصفها كلها الأزلية لأن الأزلى على هذا الرأى: الذى لا أول له مطلقاً فيشمل الوجودى ويدخل تحته الصفات الثبوتية ويشمل العدمى ويدخل تحته الصفات السلبية فنقول : علم الله أزلى ، ولا نقول : علم الله قديم ، ونقول : قدم الله أزلى ولا نقول : قدم الله قديم .

وإذا جرينا على القول الثالث ساغ لنا أن نصف ذاته ـ سبحانه ـ بالقدم والأزلية ، وساغ لنا أيضاً أن نصف كل صفة من صفاته سواء أكانت ثبوتية أم سلبية بكل من القدم والأزلية لأن القديم والأزلى فى هذا التعريف بمعنى واحد وهو مالا أول له مطلقا يشمل العدمى والوجودى . =

بجميع الواجبات ، والجائزات، والمستحيلات على وجه الإحاطة على ما هى عليه من غير سبق خفاء .أى تنكشف بها جميع الأشياء انكشافا تاما لم يسبق بخفاء ، وهذا الإنكشاف يغاير الإنكشاف بصفتى السمع : والبصر ، فهى تحيط بكل موجود ـ واجباً كان أو جائزا ـ وبكل معدوم ـ مستحيل كان أو ممكنا ، فالله ـ تعالى ـ يعلم كل شىء على ما هو عليه فى الواقع ، وعلمه ـ سبحانه ـ لم يسبق بجهل ، ولا يعتريه نسيان ولا يتقيد بزمان : ولا مكان .

وعلمه بالكليات كعلمه بالجزئيات (١) ، وما يبدو فى الكون من نظام وإتقان ، وإحكام ما هو إلا برهان ساطع على شمول علمه ، وكمال حكمته سبحانه وتعالى .

وهذا العلم لا يتغير بتغير المعلوم ـ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يعلم الشىء الموجود على ما هو عليه ، فإذا تغير الموجود ، وحصل له تطور لم يحصل لله علم جديد، غير العلم القديم لأن تغير العلم لا يليق بالله تعالى المحيط بكل ما كان ؛ وما قد يكون ، فالله / تعالى/ يعلم كل شىء قبل وجوده ، وبعد

= فنقول الله تعالى قديم أزلى . نقول : علم الله قديم أزلى ، و نقول كذلك : قدم الله قديم أزلى .

(ينظر هامش ص٥٧ والتى بعدها من كتاب شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى) بتصرف كثير .

(١) ذهب الفلاسفة إلى أن الله سبحانه لا يعلم الجزئيات ، وقولهم هذا حد مسائل ثلاث كفروا بها ، وثانيها : إدعاؤهم قدم العالم ، وثالثها : انكار بعث الأجساد ، وإدعاؤهم أن الذى يحشر هو الأرواح .

وجوده ، وحال وجوده بدرجة واحدة ، فالماضي والحاضر ، والمستقبل أطوار ، وتغيرات تحصل للمعلوم ، ولا يترتب عليها تغيير فى علم الله تعالى لأن الله تعالى علم كل شيء فى الأزل وكل ما يحدث ، فإنه يحدث حسب علم الله الأزلى .

« فالله تعالى هو الذى أبدع هذا الكون ، وأقامه على سنن ونظم لا تختل ولا تضطرب ، وهو الذى يمسك السموات ، والأرض وجميع النجوم ، والكواكب حتى لا يصدم بعضها بعضنا ، أو يختل بعضها عن مداره المقدور له .وهو الذى يسير كل ذرة ، ويرعى كل نسمة، ويدبر أمر خلقه ، ويصرف كل شأن بحكمته ، ويستحيل أن يحصل ذلك كله من الله إلا بعلم مطلق شامل ، وجميع الأدلة التى ثبت بها وجود الله تعالى ثبت بها علمه ، فيجب أن يكون الله تعالى عالما علما مطلقاً شاملا كاملا ويستحيل فى حقه تعالى الجهل بأى شيء ، لأنه لو جهل أى شيء ، لم يكن متصرفا فيه ، وذلك نقص فى جناب الألوهية ، والنقص فى حقه تعالى محال (١) ».

وكما يستحيل على الله/ سبحانه الجهل ، يستحيل عليه ـ تعالى كل ما فى كالسهو ، والنسيان ، والغفلة ، وغيرها .

لذلك : فإنه « لا يجوز لأحد أن يعتقد أن علمه سبحانه مكتسب لاستحالة ذلك بالنظر إلى الله تعالى . لأن المكتسب ، والكسبي فى عرف أهل العلم : هو العلم الذى يحصل بعد النظر ، والاستدلال ، فإن أقام أحد

---

(١) تبسيط العقائد الإسلامية للشيخ حسن أيوب ص ٨٦ .

دليلا على حدوث العالم كان العلم الحاصل له بعد هذا الدليل علما مكتسباً ، أو كسبيا ، وإنما كان العلم المكتسب مستحيلا فى حقه سبحانه وتعالى لكونه يقتضى سبق الجهل ، فإذا لم يحصل النظر والاستدلال لم يحصل العلم ، وهذا محال فى حق الله سبحانه وتعالى (١) » .

---

(١) هامش ص ٩٧ من شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى تعليق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

اعتراض ورده

وقد يعترض إنسان على هذا الكلام بقوله : لقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة يوهم ظاهرها اكتساب الله ـ تعالى العلم . نحو قوله ـ سبحانه ـ « ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً » (١) . ألا يقتضى ظاهر الكلام أنه تعالى إنما بعثهم ليحصل له هذا العلم ؟ ويرجع الأمر إلى أنه سبحانه يستفيد ببعثهم علما لم يكن حاصلا له . ونحو قوله ـ جل ذكره : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » (٢) . ونحو قوله ـ سبحانه : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٣) .

ونحو قوله جلت كلمته ـ : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » (٤) . وكقوله ـ تعالى ـ « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً » (٥) وكقوله ـ سبحانه ـ : « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك » (١) .

ويجاب عن مثل هذه الآيات بأجوبة كثيرة منها :

---

(١) الآية ١٢ من سورة الكهف .
(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٣١ من محمد .
(٥) من الآية ٦٦ من سورة الأنفال
(٦) من الآية ٢١ من سورة سبأ .

أولا : أن ظاهر هذه الآيات ونحوها غير مراد .

ثانيا : أن مراد الله تعالى أن يعلم الرسول ومن معه من المؤمنين ، فأسند الفعل إلى نفسه ، وهو سبحانه يريد حزبه وأولياءه . كما نقول - مثلا - فتح عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سواد العراق - والفاتح هو جيش الإسلام

الثالث ، أن معنى الكلام : ليحصل ما هو معلوم لنا فيصير موجوداً فى الخارج فيتعلق علمنا بوجوده فى الخارج كما تعلق به أزلا على أنه سيوجد .

الرابع : أن العلم ههنا مجاز ، والمراد إلا لنميز هؤلاء بانكشاف ما فى قلوبهم من إخلاص ، أو نفاق حتى يتسنى للمؤمنين أن يوالوا منهم من يستحق الموالاة ، ويعادوا منهم من يستحق المعاداة .

الخامس : أن العلم ههنا مجاز عن الرؤية ، والعرب تضع العلم مكان الرؤية وتضع الرؤية مكان العلم . وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم فى نحو قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بعاد » (١) وعلم ، وشهد ورأى . ألفاظ متعاقبة . يقع بعضها موقع بعض .

السادس : وهو ما ذكره الفراء : أن حدوث العلم راجع إلى المخاطبين ومثاله : أن جاهلا وعالما اجتمعا : فقال الجاهل : الحطب يحرق النار وقال العالم : النار تحرق الحطب ، وآية ذلك أن نجمع بينهما لنعلم أيها يحرق صاحبه مع أن العالم يدرك قبل . الجمع بين النار والحطب أن النار هى التى تحرق

---

(٢) الآية السادسة من سورة الفجر .

فراده من الكلام الأول، لنعلم أيها المخاطب علم المشاهدة أيهما يحرق الآخر . فكذلك قوله تعالى : «لنعلم» معناه لتعلموا أنتم ، والغرض من مثل هذا الكلام الإستحالة بالرفق فى الخطاب كما فى نحو قوله / تعالى /: «وإنا أو إيا كم لعلى هدى أو فى ضلال مبين»(١) . فأضاف / سبحانه / الكلام الموهم للشك إلى نفسه ترقيقاً للخطاب ، ورفقاً بالمخاطب .

السابع : أن الكلام على سبيل التمثيل، ومعناه: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم»(٢) والرأى الأول والثانى من هذه الآراء —عندى— أقوى ماذكر من آراء . وذلك لأنهما لايخرجان العلم عن حقيقته ، ويجعل الرأى الأول ظاهر الآيات غير مراد حتى لا يكون هناك إيهام بأن الله كسبى ، والرأى الثانى يجعل المراد من ظاهر هذه الآيات وأمثالها أن مراد الله سبحانه أن يعلم الرسول ، ومن معه من المؤمنين ، فأسند الفعل إلى نفسه ، وهو يريد حزبه وأوليائه .

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة سبأ .

(٢) الظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محمد محى الدين عبد الحميد على شرح جوهرة التوحيد للقانى ص ٩٧ ، ٩٨ .

الأدلة العقلية على علم الله - تعالى

وزيادة إيضاح لما تقدم نقول : لو لم يكن الله تعالى عالماً لكان جاهلا ، ولو كان جاهلا لما وجد العالم على هذا النظام البديع ، وعدم وجود العالم على نظام بديع باطل بالمشاهدة . فبطل ما أدى إليه وهو الجهل ، وثبت نقيضه وهو العلم له سبحانه وتعالى .

وأيضاً نقول : « إنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة ، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم ، ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان مايستلزم عـلم الفاعل لها ، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأن من المخلوقات ماهو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً وهذا له طريقان :

أحدهما : أن يقال : نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وأن الواجب أكمل من الممكن ، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين أحدهما عالم ، والآخر غير عالم كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الخالق عالماً ، لزم أن يكون الممكن أكمل منه لأن من المخلوقات من هو عالم وهو ممتنع أي يمتنع أن يكون الممكن أكمل من واجب الوجود لذاته وهو الله سبحانه وتعالى ، ويثبت أن الله سبحانه عالم .

الثانى : أن يقال .كل علم فى الممكنات ، التى هى المخلوقات فهو منـــه سبحانه وتعالى ، ومن الممتنع أن يكون فاعل مكال ، ومبدعه عاريا منه، بل هو أحق به ، والله تعالى له المثل الأعلى ، ولا يستوى هو والمخلوقات فى أى شىء ألبتة . بل كل مائبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه أى مخلوق ، فتنزيه الخالق عنه أولى »(١).

(١) بتصرف من شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ص ١٤٨ .

الأدلة النقلية على علمه ـ تعالى

فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، الكثير من الآيات ، والأحاديث التى تثبت العلم لله سبحانه وتعالى منها قوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم »(١) .

وقوله عز شأنه :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون »(٢) .

وقوله ـ جل ذكره ـ : « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً »(٣) .

وروى البخارى عن جابر رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه

---

(١) الآية السابعة من سورة المجادلة .

(٢) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٩٨ من سورة طه .

وسلم يعلمنا الإستخارة فى الأمور كلها كالسورة من القرآن . يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم يقول : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال : فى عاجل أمرى وآجله فاقدره لى ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى أو قال فى عاجل أمرى ، وآجله ، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، ويسمى حاجته »(١) .

فهذه الأدلة وغيرها كثير تفيد أن لله سبحانه علماً أزلياً لا يماثله أى علم .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ج ١١ ص ١٨٣ باب الدعاء عند الاستخارة .

الإرادة

الصفة الثانية من الصفات الثبوتية : الإرادة ، ومعناها فى اللغة : القصد وترادفها — المشيئة — فى هذا المعنى فإذا قيل : أراد كذا ، أو شاء كذا . يكون المعنى : قصده وهى فى اصطلاح علماء الكلام : « صفة ثبوتية قديمة قائمة بذاته — تعالى — وزائدة[1] عليها ، يخصص الله بها الممكن ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلة ، وذلك كالوجود ، أو العدم ، ومن اتصاف ذلك الممكن بصفات معينة بأن يجعله الله سبحانه وتعالى مثلا طويلا أو قصيراً ، حسناً ، أو قبيحاً ، عالما ، أو جاهلا . ومن وجوده فى زمن معين ، ومكان معين ، وفى جهة معينة ، و بمقدار معين . فالله عز وجل له أن يتصرف فى الكون حسب مشيئته .

فالإرادة تتعلق بالأمور الممكنة فقط ، فهى لا تتعلق بالواجب ولا بالمستحيل .

فمثلا : وجود شخص ، وعدمه ، أمران ممكنان ، تختار الإرادة واحداً منها ، إما وجوده ، أو عدم وجوده ، فهى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من الوجود أو العدم[2] .

---

(١) سنفرد بحثاً عن صفات المعانى هذه بعد نهاية الحديث عنها من حيث أهى عين الذات ، أم هى غير الذات ، أم هى لا عين الذات ، ولا غيرها ؟

(٢) الممكنات المتقابلات ستة . وقد أشار إليها بعضهم فى قوله : =

وكون هذا الشخص متصفاً بصفة البياض ، أو السواد ، أو السمرة ، أو الصفرة ، أو الحمرة ، — مثلا — أمر تحدده الإرادة .

وكون هذا الشخص يوجد فى زمن - ما - دون غيره من الأزمنة ، وفى مكان معين دون غيره من الأماكن ، وفى جهة معينة دون غيرها من الجهات ، وكون هذا الشخص يوجد بمقدار معين من الوزن ، والقياس دون غيره . هذا كله تخصصه الإرادة وتحدده .

فعمل الإرادة فى الممكنات هو أشبه بمـــا نسميه فى عصرنا هذا :

= الممكنات المتقـــابلات وجودنا . والعدم . الصفات
أزمنة . أمكنة جهات كـذا المقادير روى الثقات

ومعنى كونها متقابلات ، أى : متنافيات . فالوجود يقابل العـدم ، وبالعكس ، وبعض الصفات يقابل بعضاً . فكونه أبيض - مثلا - يقابل كونه أسود . وبعض الأزمنة يقابل بعضاً . فكونه فى زمن الطوفان مثلا يقابل كونه فى زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعض الأمكنة يقابل بعضاً فكونه فى مصر يقابل كونه فى تونس مثلا وبعض الجهات يقابل بعضاً فكونه فى جهة المشرق يقابل كونه فى جهة المغرب مثلا وبعض المقادير يقابل بعضاً . فكونه طويلا مثلا يقابل كونه قصيراً . فقول الناظم : وجودنا والعدم واحد من الممكنات المتقابلات . والثانى : قوله الصفات . والثالث قوله : أزمنة . والرابع قوله : أمكنة ، والخامس : قوله جهات . والسادس . قوله : المقادير .

(أنظر هامش ص ٩٠ من شرح جوهرة التوحيد) .

التخطيط . فهى تخطط تخطيطاً مبنياً على العـــلم ، والقدرة تنفذ ماحددته وخصصته ، وخططته الإرادة »(١).

والمحققون من أهل السنة يقولون : الإرادة فى كتاب الله نوعان :

أولها : إرادة قدرية كونية خلقية .

ثانيها : إرادة دينية أمرية شرعية . وهذه الإرادة الشرعية هى المتضمنة للمحبة والرضى والإرادة الكونية هى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات .

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم بالإرادتين معاً .

فمثال الإرادة الدينية الشرعية الأمرية من كتاب الله . قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢).

وقوله تعالى : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم »(٣).

وقوله جل ذكره : « والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً »(٤).

وقوله سبحانه : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٥).

---

(١) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة (٢) الآية ٢٦ من سورة النساء
(٣) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء
(٤) من الآية السادسة من سورة المائدة .

وقوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(١).

وهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قول الناس لمن يفعل القبائح : هذا يفعل مالا يريده الله . أى يفعل مالا يحبه الله ولا يرضاه ولا يأمر به . أما إن فعل الطاعات . فإنه يقال : هذا يفعل مايريده الله . أى ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به .

ومثال الإرادة الكونية القدرية الخلقية من كتاب الله قوله سبحانه : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون »(٢) ،

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون »(٣).

وقوله عز شأنه : « ولكن الله يفعل مايريد »(٤).

فهذه الإرادة هى المذكورة فى قول المسلمين : ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وعلى ذلك فأهل السنة يقولون : إن الله يريد المعاصى قدراً أى بالإرادة

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٤ من سورة هود .
(٤) من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

القدرية الكونية الخلقية ، وإن كان لا يحب تلك المعاصى، ولا يرضاها. ولا يأمر بها . بل يبغضها ، ويسخطها ، ويكرهها وينهى عنها .

وهذا قول السلف قاطبة . أما المعتزلة ، والقدرية فإنهم زعموا : أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم . والكافر أراد الكفر ، وقولهم هذا : فاسد ، مردود لمخالفته الكتاب والسنة ، والمعقول الصحيح(١) . وحججهم فى ذلك أوهى من بيت العنكبوت وحاصلها: أن إرادة القبيح قبيح فلو أنه سبحانه وتعالى أراد المنهى عنه ككفر أبى جهل ـ مثلا ـ لكان ذلك قبيحاً ـ والعقاب على ما أريد ظلم ـ أى لو عاقب ربنا أبا جهل على ما أراده له وهو الكفر كان ذلك العقاب ظلماً . والنهى عما يراد ، والأمر بما لا يراد سفه ـ أى نهى الله لأبى جهل عن الكفر الذى أراده له . وأمره لأبى جهل بالإيمان الذى هو غير مراد يكون سفهاً .

والله تعالى منزه عن القبائح ، وعن الظلم ، وعن السفه، فالله لم يرد القبيح بل الذى أراده هو الذى فعله ، فكفر أبى جهل مراد لأبى جهل لا لله . وعلى ذلك فعقاب الله لأبى جهل على كفره لن يكون ظلماً لأن الله لم يرد الكفر منه بل هو الذى أراده . هكذا يقولون :(٢)

ويرد عليهم : بأننا لا نسلم بقولكم: إن إرادة القبيح قبيح بل هو

---

(١) من شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ١١٦ بكثير تصرف مع تقديم وتأخير .

(٢) والمعتزلة يقولون : إن إرادة الله ـ تعالى ـ الفعل من المكلف هى عين أمره النفسى بهذا الفعل .

حسن . وغاية الأمر أنه قد يخفى علينا وجه حسنة ولا نسلم : بأن العقاب على ما أريد ظلم . لأن الظلم هو : التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، والله /تعالى/ إنما يتصرف فى ملكه ولا نسلم : بأن النهى عما يراد ، والأمر بما لا يراد سفه لأن السفه يأتى لو انحصر المقصود فى رغبة الامتثال. ولكن قد يكون الغرض من الأمر والنهى : الإبتلاء . أو إظهار فساد إستعداد المأمور ، أو المنهى . وعلى ذلك فلا يكون هناك سفه .

ثم إنه يلزم على قولهم هذا : أن الله تعالى ـ قد يريد الشىء ولا يقع، وأن الشىء قد يقع وهو سبحانه لا يريده .

وقال ابن قاسم : « وصدور هذه المقالة من عاقل مستبعد . إذ كيف يظن إنسان تخلف مراد الله تعالى ووقوع مراد الشيطان؟ »(١) .

والذى نرتضيه ؛ هو مذهب أهل السنة والجماعة لموافقته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح . وحاصله .

« أن إرادة الله تعالى ليست عين أمره ، ولا هى مستلزمة له . فقد يريد سبحانه الشىء ويأمر به . كأمره بالإيمان من علم تعالى منهم الإيمان فإنه أراده منهم ، وأمرهم به وقد لا يريد الشىء ولا يأمر به . ككفر من علم الله تعالى إيمانهم . فإنه سبحانه لم يرد منهم الكفر ، ولم يأمرهم به .

وقد يريد الله تعالى الشىء : ولا يأمر به. ككفر أبى لهب مثلا وكالمعاصى الحاصلة من آحاد الناس ، فإن الله / جلت قدرته / قد أراد ذلك كله ، ولكنه

---

(١) هامش ص٩٢ والتى بعدها من كتاب شرح جوهرة التوحيد للقانى بتصرف .

سبحانه لم يأمر به » بل أمر بأضداده . فقد أمر أبا لهب بالإيمان ، وأمر سائر الناس بالطاعات .

وقد يأمر الله سبحانه بالشيء ولا يريده . كالإيمان من أبي لهب ، والطاعة من عامة العصاة ، فإنه سبحانه أمر أبا لهب بالإيمان ، ولم يرده منه ، وأمر عامة المذنبين بالطاعة ولم يردها منهم .

ولا يقال: كيف يأمر الله تعالى بشيء وهو مريد لعدم حصوله؟ لأن فائدة الأمر لم تنحصر فى رغبة الإمتثال كما أشرت سابقاً . بل يجوز أن تكون ثمة حكمة غابت عنا ، وهى معلومة له سبحانه على أنا ندرك بعض حكم الله فى أوامره التى من هذا القبيل ، ومنها قطع الحجة على الكفار ، والعصاة حتى لا يقول أحدهم : لو كلفتنى لقمت بما كلفتنيه »[1] ،

---

(١) النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محمد محى الدين عبد الحميد على شرح جوهرة التوحيد للقانى ص ٩٢

الأدلة العقلية على ثبوت الإرادة لله تعالى

لو لم يكن الله تعالى مريداً ، لكان مكرهاً ، ولو كان مكرهاً ، لكان عاجزاً عن دفع الإكراه عنه ، فلا يكون إلهاً خالقاً للعالم ، مخالفاً للحوادث ، لكن العجز على الله تعالى محال ؛ فبطل ما أدى إليه ، وهو الإكراه ، وثبت نقيضه ، وهو الإرادة .

ونقول أيضاً : (لو لم تجب الإرادة لله سبحانه لكان مكرهاً ولو كان مكرهاً لما وجد شيء من هذا العالم ـ لأن الفعل الذى هو إيجاد العالم لا يصح بدون الإرادة : لأن المكره لا يقوى على فعل مايزيد لكن العالم موجود ـ بالمشاهدة ، والعيان . فثبت كونه سبحانه متصفاً بالإرادة) .

وضد الإرادة : الكراهية بمعنى القهر ، وعدم الاختيار والكراهية مستحيلة عليه تعالى .

---

(١) نفس المرجع والصفحة ببعض تصرف .

الأدلة النقلية على ثبوت الإرادة لله تعالى

إن الآيات القرآنية الكريمة، والسنة النبوية الصحيحة في هذا المقام كثيرة نأخذ من الآيات القرآنية قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (١) .

وقوله : « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »(٢) .

وقوله : « إن الله يفعل مايريد » (٣) .

وقوله : « فعال لما يريد » (٤) .

ومن السنة النبوية الشريفة : نأخذ مارواه الإمام أحمد عن أبي ذر رضى الله عنه ـ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يقول : ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت . إنى جواد ، ماجد ، واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام . إذا أردت شيئاً ، فإنما أقول له : كن فيكون »(٥) . أى إن

---

(١) الآية ٤٩ من سورة النحل .

(٢) الآية ٦٨ من سورة القصص .

(٣) من الآية ١٠ من سورة الحج .

(٤) الآية ١٦ من سورة البروج .

(٥) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ١ ص ٥٦ .

أراد العطاء لمن هو أهل للعطاء ، أو أراد عذاب من يستحق العذاب . قال سبحانه للشيء من العطاء ، والعذاب : كن فيكون .

وما رواه البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه . عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » أى يعلمه أحكام شرعه ليعبد الله على ضوء الحق(١) .

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج١ ص٦٠

القــــدرة

الصفة الثالثة : من الصفات الثبوتية : القدرة « وهى فى اللغة بمعنى القوة والاستطاعة ، وضد العجز .

وفى اصطلاح علماء الكلام ، هى : صفة وجودية ، قديمة . قائمة بذاته تعالى، وزائدة عليها، يوجد الله بها الممكنات،ويعدمها على وفق علمه،وإرادته

وعلى ذلك تكون القدرة مثل الإرادة ، متعلقة أيضاً بالممكنات فقط ، ولا تتعلق ، ولا تعمل فى الواجبات ، ولا فى المستحيلات ، فالإرادة تخطط التخطيط المبنى على العلم ، والقدرة تنفذ ماخططته الإرادة ، وحددته .

فلو تعلقت القدرة ، أو الإرادة بالواجب لتنزيل ثبوته لم يكن واجباً عقلا ـ لأن الواجب عقلا هو : الأمر الثابت الذى لايقبل الإنتقاء والعدم .

ولو تعلقت القدرة والإرادة بالمستحيل لتنزيل انتفاءه لم يكن مستحيلا عقلا ، لأن المستحيل عقلا هو : الأمر المنفى الذى لايقبل الثبوت بحال من الأحوال .

والإرادة ، والقدرة ، تشملان جميع الممكنات ، فلا يخلق فى ملك الله أمر لم يرده ، وإلا كان غافلا أو مكرها والكل مستحيل على الله تعالى .

الدليل العقلي على قدرة الله تعالى

لو لم يكن الله تعالى قادراً ، لكان عاجزاً ، ولو كان عاجزاً ، لما أوجد هذه المخلوقات . لأن إيجاد العالم لا يصح بدون قدرة ، إذا العاجز لا يقوى على فعل ما يريد - لكن عدم وجود هذه المخلوقات باطل بالمشاهدة والعيان فبطل ما أدى إليه وهو : العجز ، وثبت نقيضه ، وهو القدرة .

الأدلة النقلية على قدرة الله تعالى

وهى كثيرة من آيات القرآن الكريم ، وفى الأحاديث النبوية الصحيحة ومما ورد فى القرآن الكريم تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً(١) تذروه الرياح(٢) وكان الله على كل شيء مقتدراً »(٣) .

وقوله جل ذكره : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من

---

(١) هشيما : أى يابسا .
(٢) تذروه الرياح : تنسفه وتطيره الرياح
(٣) الآية ٤٥ من سورة الكهف .

كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير » (١) .

وقوله عز جاهه . « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »(٢) .

ومن الأدلة التي جاءت في السنة النبوية الصحيحة ما جاء به الإمام ابن كثير في تفسيره . فقال : « قال مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير والسدى ، وقتادة : جاء أبي بن خلف ـ لعنه الله ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي يده عظم رميم(٣) وهو يفته ، ويذروه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار : ثم نزل قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا » إلخ السورة (٤) .

وروى أحمد قال : قال عقبة بن عمر لحذيفة رضي الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : سمعته صلى الله عليه وسلم

---

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الحج .
(٢) الآيات من ٧٨ الى ٨٣ من سورة يس .
(٣) رميم أي بال .
(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ٣ ص ٥٨١

يقول : « إن رجلا حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله ، إذا أنامت فاجمعوا لى حطباً كثيراً جزلا(١) ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت غمى . وخلصت إلى عظمى فامتحشت(٢) ، نخذوها فدقوها ، فذروها فى اليم . ففعلوا ، فجمعه الله تعالى إليه ، ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ . قال من خشيتك : فغفر الله عز وجـــل له ، وروى برواية أخرى فى الصحيحين »(٣) .

---

(١) الجزل : ماعظم من الحطب ويبس .

(٢) فامتحشت : أى فاحترقت .

(٣) نفس المرجـع ص ٥٨٢ جـ ٣

الحيـــاة

الصفة الرابعة من صفات المعانى : صفة الحياة ؛ وهى : صفة وجودية قديمة ، قائمة بذاته تعالى زائدة عليها، تصحح الاتصاف بصفات المعانى الباقية التى هى العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام « فلو لم يكن سبحانه وتعالى حياً لما ثبتت له الصفات وحياة الله تعالى ككل صفاته كاملة ، ولا يوجد ما يماثلها كمالا ، فليست من جنس حياة البشر ، وإنما هى حياة تليق به تعالى ولا تشبه حياة مخلوق .

« وعرف الشيخ السنوسى الحياة بتعريف يشمل الحياة القديمة - أى الخاصة بذات الله سبحانه والحياة الحادثة ، وهى الخاصة بالمخلوقات حيث قال : وهى : صفة تصحح لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك(١) .

فقوله : صفة كالجنس فى التعريف يشمل جميع الصفات وقوله : تصحح لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك كالفصل أخرج جميع الصفات غير الحياة ، ومعنى تصحح تجوز ، فالحياة شرط عقلى للاتصاف بصفات الإدراك ومعنى كونها شرطاً عقلياً ، أى يلزم من عدمها عدم الإدراك ، ولا يلزم من وجودها وجود الإدراك ولا عدمه والمراد من تجويزها لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك : عدم الاستحالة . والمعنى على هذا : أن عند وجود

---

(١) وصفات الإدراك هى : العلم والسمع والبصر وغيرها .

الحياة لا يستحيل الاتصاف بصفات الإدراك ، والإتصاف بصفات الإدراك عند وجود الحياة ممكن بالإمكان العام الذى يشمل الواجب، وهو الله سبحانه وتعالى « والمستوى الطرفين ، وهو الحادث ، وحينئذ يجعل الإتصاف بالإدراك عند وجود الحياة بالنسبة إلى الله سبحانه واجباً ، وبالنسبة إلى الحوادث مستوى الطرفين. والحاصل :أن كلمة تصحح الواقعة فى هذا التعريف معناها بالنظر إلى الله سبحانه توجب له تعالى أن يتصف بالإدراك أزلا وأبداً ، لأن كل ماصح فى حقه تعالى فهو واجب ، ومعناها بالنظر إلى الحوادث : تجوز أن يتصف الحادث بالإدراك ، ألا ترى أننا قد نكون فى حالة نوم ، أو غفلة ، فيكون الإدراك غير موجود ، وإن كانت الحياة موجودة .

وإنما قال . تصحح لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك دون أن يقول : تصحح لمن قامت به أن يدرك لأن الذى من لوازم الحياة صحة الإدراك ، لا الإدراك نفسه .

وقد يقول قائل . الحياة شرط للاتصاف بغير الإدراك من الصفات . كالقدرة والإرادة والكلام . فإن كل واحدة من هذه الصفات يستحيل وجودها بغير الحياة ، فلماذا اقتصر على ذكر الإدراك ؟.

ويجاب عن هذا . بأن كون الحياة شرطاً للاتصاف بغير الإدراك من الصفات كالقدرة والإرادة والكلام يفهم بطريق اللزوم وذلك لأن القدرة والإرادة والكلام ، وهذه الصفات ملزومة للإدراك . وكل ما كان سرطاً فى حصول اللازم فهو شرط فى حصول الملزوم دائماً ، وبعبارة أخرى . إن

القدرة والإرادة وغيرهما من الصفات لا تتحقق إلا بالعلم ، فالعلم شرط فيها، وجعل الحياة شرطاً فى الإتصاف بالعلم ؛ يستدعى كونها شرطاً فى الإتصاف بالصفات الأخرى ، لأن شرط الشرط شرط » (١) .

(١) النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محمد محى الدين عبد الحميد على هامش شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى ص ٩٩ ، وما بعدها بتصرف .

الأدلة العقلية على أن الله تعالى حى

لو لم يكن الله تعالى حياً ، لكان ميتاً ، ولو كان ميتاً لما صح إتصافه ، جل شأنه بصفات المعانى التى سبق ذكرها، والتى هى: العلم والإرادة والقدرة لكن عدم إتصافه سبحانه بصفات المعانى باطل ، لأنها ثابتة له سبحانه بالأدلة التى ذكرناها مع كل صفة . فبطل ما أدى إليه ، وهو كونه تعالى ميتاً وثبت نقيضه وهو الحياة .

ويقول الشيخ حسين عبدالرحيم مكى فى ص٢٣من مذكرات التوحيد : « وهل يتصور عاقل أن يكون الإله المعبود بحق ، والمستغنى عمـا عداه ، والمحتاج إليه كل ماسواه ، الخالق للسموات والأرض ، غير حى ؟ ونجيب على سؤاله هذا قائلين : اللهم لا .

ويؤكد الإمام الغزالى على أنه سبحانه لو لم يجب أن يتصف سبحانه وتعالى بالحياة لما صح أن يتصف بالقدرة والإرادة والعلم وغيرها من الصفات . فيقول: «وإتصافه تعالى بالحياة معلوم بالضرورة ، ولم ينكره أحد ممن إعترف بكونه تعالى عالماً قادراً فإن كون العالم القادر حياً ضرورى، إذ لا يعنى بالحى إلا مايشعر بنفسه ، ويعلم ذاته ، وغيره والعالم بجميع المعلومات والقادر على جميع المقدورات، كيف لا يكون حياً ؟ وهذا واضح، والنظر فى صفة الحياة لا يطول »(١).

---

(١) هامش ص٠ ١ من كتاب شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى.

الأدلة النقلية على أن الله تعالى حي

وهي في كتاب الله كثيرة . نأخذ منها قوله تعالى : « وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً »(١).

وقوله جل شأنه : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم »(٢) .

وقوله تبارك إسمه : « هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين »(٣) .

وقوله عز جاهه : « وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً »(٤) .

---

(١) الآية ٥٨ من سورة القصص .
(٢) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٦٥ من سورة غافر .
(٤) الآية ١١١ من سورة طه .

السمـــع[1]

الصفة الخامسة من صفات المعانى ، أو الصفات الثبوتية ، أو الوجودية هى صفة السمع ، وهى : صفة وجودية ، قديمة ، قائمة بذاته — تعالى — وزائدة عليها ، تنكشف بها الموجودات إنكشافاً يغاير الإنكشاف بصفتي العلم[2] ، والبصر ، والله سبحانه سميع يسمع كل شيء ، حتى إنه

---

(١) السمع الحادث الذى يوصف به الإنسان وغيره . هو : قوة مودعة فى العصب المفروش فى مقعر صماخ — أى فتحة — الأذن . يدرك بها المخلوق - الذى وهبه الله صفةالسمع - الأصوات على وجه العادة ، ولامانع من أن يدرك بها غير الأصوات إذا وهبه الله ذلك ، كما سمع - موسى - عليه السلام كلام الله وهو ليس بذى صوت ولا حرف . وهذا المعنى للسمع مستحيل على الله تعالى .

(ينظر هامش ص ١٠٧ من شرح جوهرة التوحيد للقانى) .

(٢) إخلافاً للكعبى ، وبعض المعتزلة الذين قالوا : إن السمع ، والبصر يرجعان إلى العلم بالمسموعات ، والمبصرات . والحقيقة : أنهما مغايرتان بصفة العلم كما أن كل واحدة مغايرة للأخرى كما ثبت بالأدلة السمعية ، لأن هذه الصفات إنما تثبت بالأدلة السمعية ، لأن هذه الصفات إنما تثبت بالسمع . والمدلول لغه لكل واحدة غير المدلول للأخرى . والدليل على أن هذه الصفات غير صفة العلم . أنها زائدة على العلم فى الشاهد / وهو الإنسان / والأصل : المغايرة بين هذه الصفات فيما ورد فى حق الله / تعالى / ليكون=

ليسمع ديب النملة السوداء ، على الصخرة الملساء فى الليلة الظلماء ، لا يبعد عن سمعه شىء فى الأرض ، ولا فى السماء وذلك : دون أن يشغله سماعه لجماعة عن سماعه لجماعة آخرين ودون أن تشتبه عليه لغة ، أو يؤثر عليه ضجيج ، أو يشوش عليه مشوش .

وهو / سبحانه / لا يسمع بجارحة ، ولا بآلة ، ولا بأذن ولا بصماخ(١) ولا بغير ذلك مما تتركب منه أداة السمع عند المخلوقات وإنما الله سبحانه سمع بما يليق بذاته المقدسة . ويتعلق سمعه بجميع الموجودات .

=لكل لفظ معناه . والتأويل من غير دليل ومن غير حاجة إلى التأويل تلاعب يجب الأبصار إليه . مع وجوب الاعتقاد أن علم الله تعالى يستحيل عليه الخفاء بوجه من الوجوه ، وأن الأمر ليس على مايعهد لنا من أن السمع يفيد بالمسموع وضوحاً فوق العلم ، ومن أن البصر يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم . بل جميع صفاته / تعالى / تامة ، كاملة ، يستحيل عليها ما كان من سمات الحوادث من الخفاء ، والزيادة ، والنقص إلى غير ذلك . وإن اتحد المتعلق وكانت الجهة متحدة بالنوع كالإنكشاف فى السمع ، والبصر ، والعلم . لكن لابد من تغاير خصوصاً مع الكمال المطلق وحقيقة ذلك يفوض علمها إلى الله تعالى .

(النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد على شرح الجوهرة ص ١٠٧)

(١) الصحاح بالكسر : فتحة الأذن. وقيل : هو الأذن نفسها ، والسماخ بالسين لغة فيه مختار الصحاح ص ٣٦٩ .

الأدلة النقلية إثبات صفة السمع لله تعالى

وجريا على الترتيب الذى التزمنا به فى الصفات الثبوتية السابقة من حيث الأدلة فإنه كان يتعين علينا أن نبدأ هنا بالأدلة العقلية أولا ثم نختم بالأدلة النقلية . غير أن المعتمد - عند علماء الكلام - فى إثبات صفة السمع هذه . وكذلك صفة البصر والكلام . هو الدليل السمعى . أى النقلى ، إما وحده ، وإما مع الدليل العقلى على أن يكون الدليل العقلى مؤيداً ، ومؤكداً للدليل النقلى ، بخلاف غير السمع ، والبصر ، والكلام من الصفات ، فإن المعتمد فى الإستدلال عليها هو الدليل العقلى ، إما وحده ، وإما هو مع الدليل النقلى ، على أن يكون الدليل النقلى مؤيداً ، ومؤكداً للدليل العقلى . لذا فإننا سنبدأ فى هذه الصفة بالأدلة النقلية . وكذا فى صفة البصر والكلام بعدها جريا على نهج الأجلاء من علماء العقيدة .

والأدلة على ثبوت صفة السمع لله — سبحانه وتعالى — من الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة كثيرة .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير »(١) .

وقوله / جل شأنه / : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »(٢) وقوله تباركت ذاته : « وله ما سكن فى

(١) الآية الأولى من سورة المجادلة .
(٢) الآية ٣٨ من سورة آل عمران .

الليل والنهار وهو السميع العليم »(١) . وقوله عز جاهه : « وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »(٢) .

وقوله جل جلاله : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »(٣) .

والدليل على ثبوت صفة السمع لله سبحانه وتعالى من السنة ما رواه عاصم ، عن أبي عثمان ، عن أبي موسى قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم »(٤) وقوله صلى الله عليه وسلم « أربعوا على أنفسكم » بهمزة وصل ، وبفتح الباء الموحدة معناه : إرفقوا بأنفسكم وإخفضوا أصواتكم ، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ، ولا غائب ، بل هو سميع قريب . ذكره النووي عند شرحه لهذا الحديث .

ومعلوم أن ألفاظ الشرع يجب أن تصرف إلى معانيها التي تسبق منها

---

(١) الآية ١٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٦١ من سورة الأنفال .

(٣) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٤) شرح صحيح مسلم للإمـــام النووي ج ١٧ ص ٢٥ باب إستحباب خفض الصوت بالذكر .

إلى الأفهام — ما لم يجب صرفها عنها لدليل — ومعلوم كذلك : أنه لا إستحالة فى كونه سبحانه وتعالى سميعاً بصيراً على المعنى الذى يليق بذاته العلية . لا على المعنى الذى نجده فى أنفسنا . وعلى ذلك أجمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان . وبهذا ثبت له تعالى صفة السمع بما يليق بذاته تعالى بلا مشابهة ولا مماثلة .

الدليل العقلي على ثبوت صفة السمع لله تعالى

لو لم يكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سميعاً ، لكان أصما ، ولو كان أصما ، لكان ناقصا ، ولو كان ناقصا، لكان عاجزاً عن دفع النقص عنه والعجز على الله ـ تعالى ـ محال فبطل ما أدى إليه ، وهو الصمم ، وثبت نقيضه وهو السمع :

ونقول أيضاً ، إن السمع كمال ، والسميع أكمل ممن لا يسمع ، فلو لم يتصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالسمع لزم النقص فى حقه ، عليه ـ تعالى ـ محال ، فاستحال ما أدى إليه وهو عدم اتصافه بالسمع، وثبت نقيضه وهو : أنه ـ تعالى ـ متصف بالسمع .

« وقد أراد ـ إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ـ تقرير هذا الدليل لأبيه فيما حكا الله ـ تعالى ـ عنه بقوله : « يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » (١) .

والدليل على أنه أراد ذلك : أنه لو كان لا يعتقد أن عدم السمع نقص لخاف أن يقلبوا عليه الدليل فى معبودة ، فيقولوا له وأنت أيضاً تعبد مالايسمع ولا يبصر ـ تعالى الله عما يقول المبطلون علوا كبيراً »(٢)

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة مريم .

(٢) هامش ص ١٠٨ من شرح جوهرة التوحيد للقانى بتصرف قليل .

البصر

الصفة السادسة من الصفات الثبوتية هي صفة : البصر . وهي : صفة وجودية ، قديمة ، قائمة بذاته ـ تعالى ـ وزائدة عليها ، تنكشف بها الموجودات انكشافا يغاير الانكشاف بصفتى العلم ، والسمع .

وكما أن الله سبحانه ـ يسمع كل شيء ، فهو يرى كل شيء رؤية شاملة ، تستوعب كل المدركات ، كما أن بصره تبارك وتعالى لا يشبه فى شيء بصر مخلوقاته ، فهو لا يرى بحدقة (١) وإنما له سبحانه بصر يليق بذاته جل شأنه ويتعلق بصره بجميع الموجودات أيضاً كالسمع .

« ومن العلماء من قال : البصر (٢) : صفة ينكشف بها الشيء كالعلم . فقوله : صفة كالجنس فى التعريف ، شمل جميع الصفات . وقوله ينكشف بها كالفصل الأول ، أخرج جميع الصفات ما عدا صفتى السمع والعلم ، فإن كل واحدة منهما صفة ينكشف بها . وقوله الشيء معناه هنا الموجود أي ينكشف بها : فكلمة الشيء كالفصل الثانى ، خرج به صفة العلم ، فإنه ينكشف به الموجود والمعدوم وقوله : كالعلم ، تشبيه ، أريد به أن الانكشاف بالبصر اتضاح تام كاتضاح العلم .

ولقد تأكد بعد هذا الشرح بأن هذا التعريف لصفة البصر شامل

---

(١) حدقة العين سوادها الأعظم :

(٢) وقد عرف هؤلاء العلماء بهذا التعريف .

لتعريف صفة السمع . وعذر من ذكر هذا التعريف أنه . يتعذر معرفة ما يخص كل واحدة من صفتى السمع ، والبصر من الانكشافات وعلى ذلك فالمقصود من التعريف تميز هاتين الصفتين عن غيرهما من صفات المعانى كالقدرة والإرادة . وليس المقصود تميز إحداهما عن الأخرى . ثم إن المتقدمين من علماء المنطق لا يشترطون فى التعريف أن يكون مساويا للمعرف ، فيجوز عندهم التعريف بالأعم (١) .

---

(١) نفس المرجع ص ١١٠ ببعض اختصار .

الأدلة النقلية على ثبوت صفة البصر لله تعالى

وكما قلنا فى صفة السمع ، فإن الدليل النقلى هو طريق إثبات صفة البصر لله تعالى . سواء كان وحده أم مع غيره من الدليل العقلى .

والدليل النقلى من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الصحيحة أما القرآن الكريم : فالآيات كثيرة ، منها ، قوله تعالى : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » (١) .

وقوله تعالى : « للذين أتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » (٢) . وقوله سبحانه : « وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير » (٣) .

كما جاء فى القرآن الكريم ما يؤكد صفتى السمع ، والبصر معا ، من ذلك قوله تعالى ، موجها الخطاب لنبيه موسى ، وأخيه هارون عليهما السلام : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » (٤)

---

(١) من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة .
(٢) من الآية ١٥ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .
(٤) الآيات من ٤٣ إلى ٤٦ من سورة طه .

وقد شكت إحدى النساء (١) زوجها (٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذت تجادله فأنزل الله سبحانه : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » (٣) .

ومن الآيات التي جمعت بين صفتي السمع والبصر لله - تعالى - أيضاً قوله - عز وجل « والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير » (٤) .

والسنة النبوية الصحيحة ، تؤكد صفتي السمع والبصر لله - تعالى ، منها الحديث الشريف الذي رواه أبو موسى الأشعري قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - في غزوة ، فجعلنا لا تصعد شرفا ، ولا نعلوا شرفا ، ولا نهبط واديا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا ، فقال : « يا أيها الناس : أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ، ولا غائبا ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .. » أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي ، واسمه عبد الرحمن بن علي (٥) ، ويدل على أن الاتصاف بصفتي السمع « والبصر كمال لله سبحانه ، وأن عدمهما نقص ما حكاه القرآن عن سيدنا - إبراهيم

---

(١) وأسمها أحولة بنت ثعلبة

(٢) وأسمه : أوس بن الصامت .

(٣) الآية الأولى سورة المجادلة .

(٤) الآية ٢٠ من سورة غافر .

(٥) تفسير قرآن العظيم للامام ابن كثير ج ١ ص ٢١٨ عند تفسير قوله تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب .

عليه السلام وهو يقول لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً »(١) .

وما حكاه عن إبراهيم أيضاً وهو يقول لعبدة الأصنام مبكتا إياهم ، ومفمها أحلامهم : « هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون »(٢) حيث إنهم يعبدون أصناما خلت عن هذه الكمالا .

فدل هذا على أن المودع فى الفطر السليمة : أن من شأن الإله أن يكون سميعاً يجيب من دعاه ، بصيراً يرى من يعبده ولا يسمح عاقل لنفسه أن يعبد إلها أصم ، أو يخضع لإله أعمى فوجوب السمع ، والبصر لله تعالى دلت عليه جميع الأدلة النقلية كالتى ذكرناها وغيرها .

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة مريم .

(٢) الآيتان ٧٢ ، ٧٣ من سورة الشعراء .

الدليل العقلى على ثبوت صفة البصر لله تعالى

لو لم يكن الله تعالى بصيراً ، لـكان أعمى ، ولو كان أعمى لـكان ناقصاً ولو كان ناقصاً لكان عاجزاً عن دفع النقص عنه ، والعجز على الله محال ، فبطل ما أدى إليه وهو العمى وثبت نقيضه وهو البصر .

كما أنه من شرط الخالق المبدع الحكيم أن يكون مدركا لما يخلقه ، ويضنعه بكل نوع من أنواع الإدراك ومن ثم يجب أن يكون الله جل جلاله سميعاً ، بصيراً ، وإلا لم يكن كاملا .

الكلام

الصفة السابعة والأخيرة من صفات المعانى : الكلام : وهو : صفة ، وجودية ، قديمة ، قائمة بذاته تعالى ، وزائدة عليها ، ليست بحرف ، ولا بصوت بجهر ولا سر ، ولا تقديم ولا تأخير ولا ترتيب ولا وقف ولا سكوت ، ولا وصل ، ولا فصل ، ولا تشبيه كلام الناس في شيء مثلها فى ذلك مثل جميع صفات الله تعالى .

وهذه الصفة تدل على جميع الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، والمأمورات ، والمنهيات ، ما كان من ذلك ، وما يكون فيفهم(١) الله سبحانه ـ بهذه الصفة من أراد أن يفهمه من عبادة أى أمر من الأمور ، سواء أكانت هذه الأمور مما يتصل بالواجبات كوحدانية الله تعالى أو بالمستحيلات كالولد بالنسبة له تعالى أو بالجائزات مثل : الإحياء ، والإماتة والإعزاز والإذلال . . إلخ .

كما تدل صفة الكلام أيضاً على الأمر بالطاعات ، وعلى النهى عن المحرمات ، وعلى الوعد بالثواب للمطيع ، وعلى الوعيد بالعقاب للعاصى وعلى الإخبار بجميع ما كان ، وما يكون ، وعلى أن الله هو الإله الواحد القاهر القادر ، العالم ، المتصف بكل كمال ، والمنزه عن كل نقص ، المختار فى جميع

---

(١) بضم أوله من أفهم الرباعى .

شئونه ، وأنه الخالق لجميع الكائنات وأن لله رسلا ، وأنبياء ، وملائكة ، وكتباً ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن هناك بعثاً وحشراً ، وحسابا وجنة وناراً ، وثواباً ، وعقاباً حتى لو أزيل عنا الحجاب وأطلعنا الله على صفة الكلام ، لفهمنا منها هذه الأشياء .

وطريقة إيصال الله تعالى كلامه للملك ، أو للبشر أو لغيرهما ، نحن لا نعلمها لعدم ورود ما يدل عليها ، أو يشرحها من الأدلة الصحيحة . لذا فقد وجب علينا أن نؤمن بها ولا نبحث عن حقيقتها ، لأنها كغيرها من الصفات الإلهية الكمالية التى أثبتها سبحانه لنفسه والتى لا يمكننا الوصول إلى العلم بحقائقها .

وأهل السنة يذهبون إلى أن كلام الله تعالى صفة واحدة لا تعدد فيها لكن هذه الصفة لها أقسام إعتبارية من حيث متعلقاتها ، فمن حيث تعلقها بطلب فعل الصلاة مثلا ؛ أمر . ومن حيث تعلقها بطلب ترك الزنى مثلا ، نهى ؛ ومن حيث تعلقها بأن فرعون فعل كذا مثلا خبر . ومن حيث تعلقها بأن الطائع له الجنة ، وعد ، ومن حيث تعلقها بأن العاصى يدخل النار ، وعيد . وهكذا(١) .

ولقد خالف جماعة من العلماء أهل السنة فى إثبات صفة الكلام لله سبحانه على النحو الذى ذكرناه . من هؤلاء العلماء : المعتزلة فقد قالوا :

---

(١) النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد على هامش شرح الجوهرة للقانى ص ١٠٢ .

باستحالة الكلام على الله تعالى واستدلوا على ذلك بأن الكلام إنما يكون بصوت وحروف ، وتقديم وتأخير وهذه أشياء يستحيل إتصاف الله تعالى بها ، فما أدى إليها وهو الكلام مستحيل ، وما ورد فى الكتاب ، والسنة مما يفيد اتصافه تعالى بالكلام ، فمؤول على معنى أنه تعالى خالق الكلام كما خلق الكلام فى الشجرة التى كلمت موسى عليه السلام فكلام الله عندهم : هو الحروف والأصوات الحادثة وهى غير قائمة بذاته تعالى فمعنى كونه متكلما عندهم أنه خالق الكلام فى بعض الأجسام ، وهذا مبنى عندهم على أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت .

ومن المخالفين لأهل السنة أيضاً : الكرامية(١) ، والحنابلة(٢) غير أنهم لم ينكروا صفة الكلام كالمعتزلة ، بل ذهبوا إلى أن كلام الله تعالى من جنس الأصوات ، والحروف ، إلا أنه قديم قائم بذاته سبحانه ، فهم قد أثبتوا لله صفة الكلام ، إلا أنهم قالوا : إن كلامه عـــز شأنه من جنس الأصوات والحروف ، وإن كان قديما قائما بالذات العلية .

ويقـــول الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد فى تحقيقه لشرح جوهرة التوحيد ما خلاصته :

ولما كان البحث فى صفة الكلام قد أخذ دوراً بعيد المدى فى هذه الملة حتى إنهم سموا علم العقائد كلها « علم الكلام » وكان مدار الخلاف على بيان

---

(١) الكرامية بتشديد الراء المفتوحة هم : أتباع محمد بن كرام .
(٢) والحنابلة هم : أتباع الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

حقيقة الكلام ، وأنه يستحيل قيامها به ـ كان علينا أن نحاول تقريب هذه المسألة بقدر ما يوفقنا الله فنقول :

يتناول الحديث فى هذه المسألة تحديد معنى الكلام ، وهل يتعين ألا يكون كلاما إلا ما كان بصوت وحرف ، أو لا يتعين ذلك ؟

أما المعتزلة : فذهبوا إلى أنه لا يسمى كلاما إلا ما كان بصوت وحرف وبما أن الله سبحانه وصف نفسه بالكلام وأنه كلم ـ موسى عليه السلام فلم يجدوا مفراً من أن يثبتوا لله تعالى صفة الكلام ، لكنهم لحرصهم الكلام فى ذى الحرف والصوت رأوا أن هذه الصفة غير قائمة بذاته تعالى لأنها حادثة ، ولا يجوز أن تكون ذات الله تعالى محلا للحوادث . فقالوا : إن الكلام صفه يخلقها الله تعالى فى شىء من الحوادث . فمعنى « كلم الله موسى تكليما »(١) عندهم : خلق فى جبل . أو شجرة . أو غيرهما . قـــدرة على الكلام . فكلم هذا الجبل ، أو هذه الشجرة أو غيرهما . موسى عليه السلام وأسند سبحانه الكلام إلى نفسه لأنه هو خالق هذه القدرة فى المتكلم إلى نفسه لأنه هو خالق هذه القدرة فى المتكلم ، والسبب الحامل على هـــذا التأويل عندهم أمران :

الأول : قصرهم الكلام على ذى الحروف والأصوات ،

الثانى : استبعادهم أن يفهم موسى عليه السلام كلاما غير الذى يعرفه .

وكلامهم هذا مردود ، لأنه كيف يصح أن يوصف واحد بوصف .

---

(١) من الآية ١٦٤ من سورة النساء .

والمعنى الذى يدل عليه هذا الوصف قائم بغير الموصوف ؟ . وهل هذا إلا نظير أن نصف محمداً بالعلم مثلا فنقول (محمد عالم) فى حين أنه أمى لا يحسن القراءة ولا الكتابة ولا أثر من العلم عنده . وإنما وصفناه بالعلم لأن جاره ، أو أخاه ، أو غيرهما عالم ؟ وإذا صح ذلك : فهل يبقى للكلام معنى يحمل عليه ؟ ثم هم ينكرون أن يمنح الله تعالى موسى عليه السلام قدرة خاصة على فهم كلامه سبحانه . ألعجز توهموه فى الله تعالى وهو مانح القوى ، والقدرية ؟ أم لأن الجبل أو الشجرة فى نظرهم أقرب إلى أن يجعلا موضعاً للإعجاز من موسى عليه السلام ـ وكل ذلك باطل . والمعتزلة فى هذه الآراء مصابون بالقصور فى تصوراتهم ، سببه قياسهم الغائب على الشاهد .

وأما أهل السنة فقالوا : يطلق لفظ الكلام على شيئين :

الأول : حديث النفس .

والثانى : الأصوات والحروف المرتبة .

ولا سبيل إلى إنكار المعنى الأول وهو حديث النفس فى حق الإنسان ولا فى أنه يسمى كلاما ، ولا فى أنه زائد على القدرة ، والإرادة ، والعلم ألا ترى أنا نقول أحياناً : فلان فى نفسه كلام ، وهو يريد أن ينطق به . فهذا الكلام النفسى ثابت فى حق الإنسان لأن كل واحد منا يشعر به من نفسه كما أنه يسمى كلاما ، لأن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم سموه كلاما ، ومن ذلك قول الأخطل التغلبى :

لا يعجبنك من خطيب خطبة ... حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفى الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وهو زائد على القدرة لأن معنى القدرة على الكلام هو : الصلاحية وفقط . ونحن نعلم أنه لا يقال على من صلح لشيء إنه متصف بذلك الشيء فمن صلح للعلم ، لا يقال له عالم ، ومن صلح للسمع ، لا يقال له : سامع ، ومن صلح للحمل ، لا يقال له : حامل وهكذا .

وإذا كان كلام الإنسان ليس مقصوراً على ما كان بصوت وحرف ، فليكن لله تعالى كلام وليكن سبحانه موصوفاً بأنه متكلم من غير أن يستلزم ذلك أن يكون كلامه بصوت وحرف ، وقد ثبت بالقرآن الكريم والسنه الصحيحة بأن الله سبحانه وصف نفسه بأنه متكلم ، فعلمنا من ذلك أنه لا يعني بذلك أنه قادر على الكلام .

تنبيه لابد منه

وقبل أن ننتقل من الكلام على هذه الخطوة نقرر : أن غرض أهل السنة فى هذا الموضع من تشبيه كلامه تعالى بكلامنا النفسى هو مجرد الرد على المعتزلة القائلين بأن الكلام منحصر فى ذى الحروف والأصوات . وليس مرادهم تشبيه كلامه جل شأنه بكلامنا النفسى فى الكنه والحقيقة وكيف يتوهم أن كلامه تعالى مماثل لكلامنا النفسى : مع أن كلامنا النفسى أيضاً أعراض حادثة ، يوجد فيها التقدم والتأخر ، وطرو بعضه بعد عدم بعضه ، ويوجد شيئاً فشيئاً ؟ فمن توهم ذلك فى كلامه تعالى فليس بينه وبين الحشوية ونحوهم من المبتدعة القائلين : بأن كلامه تعالى حروف وأصوات فرق .

وإنما مقصد أهل السنة بذكر الكلام النفسى فى الشاهد النقض على المعتزلة فى حصرهم الكلام فى ذى الحروف والأصوات فيقال لهم : ينقض هذا الحصر بكلامنا النفسى ، فإنه كلام حقيقة ، وليس بحرف ولا صوت وإذا صح ذلك فكلام مولانا سبحانه وتعالى كلام مع أنه ليس بحرف ولا صوت فلم يقع الاشتراك بين كلام البارى و كلامنا النفسى إلا فى هذه الصفة السلبية فقط ، وهى : أن كلا منهما ليس بحرف ولا صوت . أما حقيقة كلام الله الذى هو نفسى ، فمباينة لحقيقة كلامنا النفسى كل المباينة(١) .

---

(١) النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد على هامش شرح الجوهرة للقانى ص ١٠١ والتى بعدها بتصرف .

وابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية يقول ما نصه : « افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال :

أحدها : أن كلام الله هو : ما يفيض على النفوس من معاني إما من العقل الفعال عند بعضهم ، أو من غيره . وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيها : أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه ، وهذا قول المعتزلة .

وثالثها : أنه معنى واحد قائم بذات الله ، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة . وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره .

ورابعها : أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل وهذا قـــول طائفة من أهل الكلام . ومن أهل الحديث .

وخامسها : أنه حروف وأصوات ، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما . وهذا قول الكرامية وغيرهم .

وسادسها : أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته وهذا يقوله صاحب المعتبر ، ويميل إليه الرازي في « المطالب العالية » .

وسابعها : أن كلامه تعالى يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبو منصور الماتريدي .

وثامنها : أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات ، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات . وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه .

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء ، وكيف شاء ،

وهو يتكلم به بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم . وإن لم يكن الصوت المعين قديماً . وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة(١) .

ثم يقول : وللناس فى مسمى الكلام عند الإطلاق . أربعة أقوال :

احدها : أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً ، كما يتناول لفظ الإنسان الروح والبدن معاً ، وهذا قول السلف .

الثانى : أنه يتناول اللفظ فقط ، والمعنى ليس جزء مسماه ، بل هو مدلول مسماه ، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم .

الثالث : أنه اسم للمعنى فقط وإطلاقه على اللفظ مجاز ، لأنه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه .

الرابع : أنه مشترك بين اللفظ والمعنى وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول خامس يروى عن أبى الحسن : أنه مجاز فى كلام الله حقيقة فى كلام الآدميين لأن حروف الآدميين تقوم بهم ، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم ، بخلاف كلام الله ، فانه لا يقوم عنده بالله يمنع أن يكون كلامه(١) .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ص ١٧٩ والتى بعدها بالنص.
(٢) نفس المرجع ص ١٩٧ والتى بعدها .

ما نرجحه من آراء

بعد أن إستعرضنا الآراء فى هذه المسألة فإننا نختار منها الرأى القائل : بأن الكلام صفة وجودية قديمة قائمة بذات الله / تعالى / وزائدة عليها . وطريقة إيصال الله — تعالى — كلامه للملك ، أو للبشر ، أو لغيرهما نحن لا نعلمها لعدم ورود ما يدل عليها ، أو يشرحها من الأدلة الصحيحة ، وهى كغيرها من الصفات الكمالية الإلهية التى أثبتها سبحانه وتعالى لذاته والتى لا يمكننا الوصول إلى العلم بحقائقها . كما أنها لا تشبه كلام الناس فى شيء مثلها فى ذلك مثل جميع صفات الله تعالى وما خالف هذا فهو مردود — عندنا — لأن الرأى الذى إخترناه هو رأى أهل السنة والجماعة ، وهو ما عليه سلف الأمة ومن سار على نهجهم من خلفها الأخيار .

الأدلة النقلية على ثبوت الكلام لله تعالى

علمنا سابقاً — فى صفتى السمع ، والبصر — أن المعتمد فى إثبات الصفات الثلاث التى هى السمع والبصر والكلام لله تعالى هو الدليل السمعى . إما وحده ، وإما هو مع الدليل العقلى على أن يكون الدليل العقلى مؤيداً ، ومؤكداً للدليل النقلى فيها بخلاف غير هذه الصفات الثلاث من صفات الله تعالى فإن المعتمد فى الإستدلال عليها هو الدليل العقلى ، إما وحده ، وإما هو مع الدليل النقلى على أن يكون الدليل النقلى مؤيداً ، ومؤكداً للدليل العقلى . لذا فإننا هنا سنبدأ بالدليل النقلى باعتبار أنه الأصل فى الإستدلال على تلك الصفة . والقرآن الكريم . والأحاديث الصحيحة بها الكثير من الأدلة على ثبوت صفة الكلام لله تعالى بالكيفية التى ذكرناها وإرتضيناها .

أما الآيات : فمنها قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما »(١) ومنها مايفيد بأنه كلم أنبياءه ، كقوله عز وجل : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم »(٢) .

ومنها قوله جل شأنه : « وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون »(٣) .

---

(١) من الآية ١٦٤ من سورة النساء .
(٢) الآية ٥١ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال ، وهذه من أوصاف النقص قال تعالى : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين »(١) .

وقال تعالى عن العجل أيضاً : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً »(٢) فعلم أن نفى رجوع القول ونفى التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

ولقد قال أحد المعتزلة لأبى عمرو بن العلاء — أحد القراء السبعة — أريد أن تقرأ : « وكلم الله موسى »(٣) : بنصب إسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله . ! فقال أبو عمرو : هب أنى قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه »(٤) ؟ ! فبهت المعتزلى(٥) .

وأما الأحاديث . فمنها حديث المعراج الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه والذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « فأوحى الله إلى ما أوحى ، ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى صلى الله عليه وسلم فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة .

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٨٩ من سورة طه .

(٣) من الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٤) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٥) شرح الطحاوى لابن أبى العز ص ١٨٢ .

قال : إرجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل ، وخبرتهم . قال : فرجعت إلى ربى . فقلت يارب خفف على أمتى ، فحط عنى خمساً ، فرجعت إلى موسى ، فقلت : حط عنى خمساً ، قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال : فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال يا محمد : إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر(١) فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة . . . »(٢) .

وما زالت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يحدثون عن ربهم أنه أوحى إليهم بشرع يبلغونه الناس ، إما بخطابه سبحانه وتعالى إياهم ، وإما بخطابه سبحانه ملك الوحى وهو يبلغهم عن ربهم ، فكان ذلك كله آية ثبوت هذه الصفة لله تعالى فى جميع الملل الإلهية على لسان جميع الرسل .

---

(١) أى لكل صلاة ثواب عشر صلوات لمن يؤديها كاملة .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ٢١٤ والتى بعدها : باب الأسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الدليل العقلي على ثبوت صفة الكلام لله تعالى

لو لم يكن الله تعالى متكلما ، لكان متصفاً بالبكم ، ولو كان أبكما ، لكان ناقصاً ، ولو كان ناقصاً ، لكان عاجزاً عن دفع النقص عنه ، والعجز على الله / تعالى / محال ، فبطل ما أدى إليه وهو البكم ، وثبت لله نقيضه وهو الكلام .

المستحيل على الله تعالى إجمالا وتفصيلا

كل صفة وجبت لموصوف إستحال ضدها على ذلك الموصوف فكل ما وجب إجمالا لا يستحيل ضده إجمالا ، وكل ما وجب تفصيلا يستحيل ضده تفصيلا .

وقد وجب لله تعالى إجمالا كل كمال يليق بذاته المقدسة فيستحيل عليه عز وجـــل إجمالا كل نقص ، ووجب له تفصيلا ، الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام النفسى فيستحيل عليه تفصيلا أضدادها وهى : العدم ، والحدوث ، والفناء ، والمماثلة للحوادث ، وعدم القيام ، بالنفس ، والتعدد ، والجهل ، والكراهية ، بمعنى القهر وعدم الإختيار ، والعجز ، والموت ، والصمم ، والعمى ، والبكم فيجب على المكلف أن يؤمن باستحالة هذه الأمور عليه تعالى الدليل على إستحالة هذه الأمور على الله جل شأنه أنها نقائص تتنافى وجلا الألوهية ، ويسمو عنها مقام العظمة والربوبية ، والنقص محال عليه / تعالى / . ولأن الله قد وجب إتصافه بالصفات المضادة لهذه الأمور فتستحيل عليه تلك الأمور » .

المؤمن الحق

إن المؤمن الحق هو : الذى يؤمن بأن الله تعالى متصف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، وبأنه تعالى موجود وجوداً لا أول له ، وباق بقاء لا نهاية له ، وبأنه لا يشبه خلقه فى شىء ، وغنى بذاته غناء مطلقاً عن كل ما سواه وأن كل ما سواه حادث ، ومحتاج فى وجوده إليه تعالى إن من يوقن بذلك يسعد سعادة لاحد لها ، لأنه يدرك أنه على ما فيه من نقص قد خلقه إله كامل ، وعلى مافيه من ضعف فإنه مربوب لرب قوى ، وأن سنده وملجأه فى دنياه وآخراه إله واحد ، منه الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فلا يليق به أن يذل لغير ربه ، أو يخضع لغير خالقه ، وموجده ومالك أمره ، فهو من الله ، وبالله ، وإلى الله ، هو من قدرة الله وجد ، وبعناية الله ورحمته يسلك سبل الحياة ، ومرجعة فى النهاية إلى الله .

إن المؤمن الحق هو : الذى يؤمن بأن الله تعالى واحد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله إيماناً واعياً ينفض عن نفسه آثار الشك ، والشرك فى قوله ، وعمله ، فيكون مع الله : تصرفاته الفعلية كما هو معه بعقيدة راسخة ، وقول سديد .

المؤمن الحق هو : الذى يعتقد بأن معبوده هو الله وحده ، فلا يعبد أحد سواه ليحقق معنى لا إله إلا الله وهو الذى يوقن بأن الله وحده العليم بكل شىء ، لذلك لا يعرض مشاكله إلا عليه وهو الذى يجزم بأن القادر الحق على كل شىء هو الله وحده ، فلا يستغيث ولا يستعين إلا به . وبلجأ

دائماً إليه لا إلى أحد سواه لأنه وحده سبحانه هو القادر على إجابة الداعى إذا دعاه إن المؤمن الحق هو : الذى يعلم أن الإيمان بأسماء الله وصفاته هو الذى يعيش به المؤمن مع ربه ، وهو الذى يحدد سلوكه ، ويقيم على الطهر حياته ، ويملأ بالأمل قلبه .

فما أحوجنا نحن المسلمين إلى إيمان صادق يعمق العقيدة فى قلوبنا ، والإخلاص لله فى أقوالنا وأعمالنا ، والصدق مع الله فى حياتنا ، واللجوء إليه فى كل أمورنا ، ومراقبته فى كل خلجات قلوبنا والحرص على طاعته فيما أمرنا . والفرار من كل ما عنه نهانا .

ما أحوجنا نحن المسلمين إلى وقفة جادة مع أنفسنا نحاسبها قبل أن تحاسب . ونزن أعمالنا قبل أن توزن علينا . ونعمق على درب الحق خطانا . ونزيل عن قلوبنا ما ران عليها نتيجة بعدنا عن جناب الله ، ولجوء البعض منا إلى الغش ، والخداع والنفاق ، والرياء ، والمكر ، والكيد .

ما أحوجنا إلى راجعة صادقة لدين الله . وإلى صحوة حقة من هذا الثبات . ويوم أن نفيق من غفوتنا سيعود للدين عزه ، وللإسلام مجده ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

خاتمة

وبعد أن وفقنا الله لدراسة تلك الجوانب من العقيدة الإسلامية .

فإننا نحمد الله حمداً يليق بجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، ونشكره شكر معترف بفضله ، وجليل نعمائه .

ثم : نتوجه بالنداء إلى كل مسلم ، ملتزم غيور على عقيدته ودينه ، أن يظل محافظاً على هذا الدين الذى جعله الله للإنسانية شرعة ومنهاجاً وللعالمين رحمة وسراجاً منيراً . وأن يعض على تلك العقيدة الإسلامية الخالدة بالنواجذ فإن حياته فيها وعزه بها وسعادته منها، وذاتيته منبثقة عنها، وحقيقة وجوده راجعة إليها .

كما أن عليه أن يواصل مسيرة حياته مع يقظة كاملة لكل مايدور حوله من مؤامرات على دينه ، ومن تشكيك فى عقيدته ومن مكر بالإسلام وأهله ومن كيد للدين وللمتدينين . فيتسلح بالعلم والمعرفة ، وبالبصر والحيطة . وبالصدق مع نفسه وربه .

كما نتوجه بالنداء إلى الإنسان ـ أى إنسان ـ أن يجيب داعى الله إن كان هواه قد نأى به عن الصراط السوى ، وأن يعود إلى صفاء الإسلام ونوره إن كان الشيطان قد عكر عليه صفاء اللقاء مع خالقه أو حجبه عن نور ربه ، وألا ييأس من روح الله ، وأن يوقن أن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ، ثم اهتدى . وأن يتأكد أن رحمة الله قريب من المحسنين .

وفى النهاية : لايسعنا إلا أن نتقدم بالشكر والتقدير لكل من عاوننا فى هذا الكتاب حتى كتب الله له الظهور إلى خير الوجود عرفاناً منا لأهل الفضل بفضلهم ، وتقديراً منا على كثرة جهدهم سائلين الله : أن ينفع بكل ما كتبناه ، وأن يعمنا جميعاً بفضله ورضاه ، وأن يهدينا سواء السبيل ؟

دكتور / أحمد أحمد أبو السعادات

ثبت بالمراجع

(١) القرآن الكريم

(٢) تفسير القرآن الكريم — للإمام إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى

(٣) تفسير الفخر الرازى — للإمام محمد الرازى فخر الدين .

(٤) الجامع لأحكام القرآن — للإمام القرطبى

(٥) تفسير النسفى — للإمام النسفى

(٦) تفسير أبى السعود — للإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى .

(٧) فتح القدير — للإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى

(٨) تفسير المنار — للشيخ محمد رشيد رضا

(٩) فى ظلال القرآن — للشيخ سيد قطب

(١٠) فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن على بن حجر العسقلانى .

(١١) صحيح مسلم بشرح النووى — للإمام محيى الدين زكريا يحيى بن شرف النووى .

(١٢) مختصر سنن أبى داود — للحافظ المنذرى

(١٣) الترغيب والترهيب — للحافظ المنذرى

(١٤) رياض الصالحين — للإمام النووى

(١٥) زاد المعاد فى هدى خير العباد — لابن قيم الجوزية

(١٦) مدارج السالكين — لابن قيم الجوزية

(١٧) السيرة النبوية — لأبي الحسن الندوي
(١٨) الدين الخالص — للشيخ محمود خطاب السبكي
(١٩) الدين الخالص — للهندي
(٢٠) القاموس المحيط — للقاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي .
(٢١) لسان العرب — لجمال الدين محمد بن بكر بن منظور
(٢٢) تاج العروس — لمحمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي
(٢٣) الصحاح — تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري
(٢٤) مختار الصحاح — للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر الرازي
(٢٥) شرح المواقف — لعضد الدين الإيجي .
(٢٦) المقاصد — لسعد الدين التفتازاني
(٢٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري
(٢٨) الملل والنحل — للإمام أبي الفتح الشهرستاني
(٢٩) الفرق بين الفرق — لعبد القاهر البغدادي
(٣٠) مجموع الفتاوى الكبرى — للإمام أحمد بن تيمية
(٣١) الإيمان — للإمام أحمد بن تيمية
(٣٢) كتاب التوحيد — للإمام محمد بن اسحق بن خزيمة
(٣٣) كتاب الأسماء والصفات — للإمام الحافظ أبي بكر أحمد البيهقي
(٣٤) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان — للعلامة الشيخ سلامة القراعي
(٣٥) شرح العقيدة الطحاوية — للعلامة الشيخ علي بن أبي العز الحنفي

(٣٦) تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد

للشيخ سليمان بن عبد الوهاب

(٣٧) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقانى

(٣٨) الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر

(٣٩) الجواب الإلهى للشيخ نديم الجسر

(٤٠) لمعة الاعتقاد الهادى إلى سبيل الرشاد

للإمام موفق الدين عبد الله بن قدامة

(٤١) إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى .

(٤٢) الله فى العقيدة الإسلامية للشيخ حسن البنا

(٤٣) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق

(٤٤) العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حنبكة الميدانى .

(٤٥) الكواشف الجلية عن معانى الواسطية

تأليف عبد العزيز المحمد السلمان

(٤٦) الصفات الإلهية بين السلف والخلف تأليف عبد الرحمن الوكيل

(٤٧) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى

(٤٨) الله للأستاذ عباس محمود العقاد

(٤٩) الإبداع فى مضار الإبتداع للشيخ على محفوظ

(٥٠) تبسيط العقائد الإسلامية للشيخ حسن أيوب

(١٥) الدين للدكتور/ محمد عبد الله دراز

(٥٢) قبس من الإيمان للشيخ عبد اللطيف المشتهرى

(٥٣) توضيح العقيدة المفيد للشيخ حسين مكى

(٥٤) قبس من الإيمان　للشيخ كمال أحمد عون
(٥٥) هداية المرشدين　للشيخ على محفوظ
(٥٦) إسلامنا　للشيخ سيد سابق
(٥٧) علم التوحيد　للشيخ محمد قطب
(٥٨) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه　للدكتور محمد يوسف موسى
(٥٩) الاسلام　للدكتور أحمد شلبى
(٦٠) الاسلام　للأستاذ سعيد حوى
(٦١) دستور الأخلاق فى القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز
(٦٢) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانى
(٦٣) دراسات فى النفس الانسانية للشيخ محمد قطب
(٦٤) العلمانية نشأتها وتطورتها وآثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة
لسفر الحوالى
(٦٥) تربية الأولاد فى الإسلام　لعبد الله ناصح علوان

فهرس

تصويب الخطأ

وجدت بالكتاب أخطاء لايخفى على فطنة القارىء تداركها ، منها :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٣٠	٤	ابراهيم القعانى	ابراهيم اللقانى
٢٢٩	١	اهمية علم الحقيقة	أهمية علم العقيدة
٣٨٢	١	اعترض وردة	اعتراض ورده
٣٨٤	٩	ايهام بان الله كسبى	بان علم الله كسبى

تمت طباعة هذا الكتاب فى

مطبعة النهضة العربية

١٣ شارع كامل صدقى (الفجالة) ت ٩٠٦٧٨٠

رقم الايداع : ١٩٨٣/٣٧٥٢
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧